مرايانا
Marayana

8 مارس

منشورات مرايانا

عـدد خاص

■ **مديرة النشر:** سناء العاجي ■ **رئيس التحرير:** هشام روزاق ■ عدد خاص ■ مارس 2022 ■ الإيداع القانوني: 2022PE0011

غير مخصص للبيع

نساء في حكاية مملكة

ساندها مقاومون وفقهاء

طالبت بمنع التعدد وخاضت معارك ضد الحجاب

أخوات الصفا

الكد والسعاية

الفتوى التي فتحت باب المساواة في الإرث

تم إنجاز هذا العدد بدعم من:

المجلس الوطني لحقوق الإنسان
Conseil national des droits de l'Homme

أجيال AJIAL
لحماية حقوق الإنسان والنهوض بها
FONDATION POUR LA PROTECTION ET LA PROMOTION DES DROITS DE L'HOMME

هيئة الأمم المتحدة للمرأة

هيئة الأمم المتحدة للمرأة، هي منظمة الأمم المتحدة المعنية بالمساواة بين الجنسين وتمكين المرأة. والهيئة هي النصير العالمي الرئيسي لقضايا المرأة والفتاة، حيث نشأت بغرض التعجيل بإحراز تقدم فيما يتصل بتلبية احتياجاتهن على الصعيد العالمي.

تدعم هيئة الأمم المتحدة للمرأة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة في وضع معايير عالمية لتحقيق المساواة بين الجنسين، وتعمل مع الحكومات والمجتمع المدني لتصميم القوانين والسياسات والبرامج والخدمات اللازمة لضمان تنفيذ تلك المعايير بشكل فعال لتعود بالفائدة بحق على النساء والفتيات في مختلف أنحاء العالم. تعمل المنظمة على الصعيد العالمي لجعل رؤية أهداف التنمية المستدامة حقيقة واقعة بالنسبة للنساء والفتيات، وتقف وراء مشاركة المرأة على قدم المساواة في جميع جوانب الحياة، مع التركيز على أربع أولويات استراتيجية:

- قيام النساء بقيادة أنظمة الحوكمة، والمشاركة فيها، والاستفادة منها على قدم المساواة
- تمتّع النساء بتأمين الدخل، والعمل اللائق، والاستقلال الاقتصادي
- تمتُّع كل النساء والفتيات بحياةٍ خالية من جميع أشكال العنف
- إسهام النساء والفتيات، وتأثيرهن بشكل أكبر، في بناء السلام والصمود المُستدامين، والاستفادة على قدم المساواة من الوقاية من الكوارث الطبيعية والصراعات ومن العمل الإنساني

كما تقوم هيئة الأمم المتحدة للمرأة بتنسيق عمل منظومة الأمم المتحدة وجميع المداولات والاتفاقيات المرتبطة بخطة عام 2030 في مجال النهوض بالمساواة بين الجنسين وتعزيزهم. وتعمل الهيئة على جعل المساواة بين الجنسين جزء لا يتجزأ من أهداف التنمية المستدامة وخطوة نحوعالمٍ أكثر شمولًا.

تساهم هيئة الأمم المتحدة للمرأة من خلال خطط عمل تتكيف مع واقع المغرب وبالتعاون مع الجهات الحكومية والمجتمع المدني والقادة في بناء قدرات مختلف الجهات الفاعلة في صياغة وتكييف وتنفيذ السياسات والقوانين التي تعزز المساواة بين الجنسين و تمكين النساء. وتحقيقا لهذه الغاية ، تتكون أنشطتها من تقديم الدعم الفني وبناء القدرات وأنشطة المناصرة والتوعية لتعزيز المساواة بين الجنسين.

المساواة ليس ترفا

سناء العاجي

مازال الكثيرون بيننا يرون في الخطاب النسوي وفي نقاشات النوع والمساواة الجندرية، حربا من النساء... على الرجال.

مازال الكثيرون بيننا يعتبرون قضايا المساواة وحقوق النساء ترفا في بلد "له أولوياته" حسب تعبيرهم: البنيات التحتية والحريات العامة والتعليم والصحة والبناء الديمقراطي.

هل سيقبل حملة هذا الخطاب أن نعتبر بأن التعليم أسبق من البناء الديمقراطي؟ وأن فك العزلة عن المناطق البعيدة عن المركز، أهم من حرية التعبير؟

هل سيقبلون مثلا بأن نتفق جميعا على أن القمع ليس مزعجا ما دمنا نبني البنيات التحتية والطرق والمدارس والمستشفيات؟

فلماذا، يا ترى، حين يتعلق الأمر بأشكال من الحيف يعاني منها نصف المجتمع، نعتبر الأمر ترفا و"هيستريا جماعية لنساء فشلن في حياتهن العاطفية فكَرِهْن الرجال"؟ لماذا لا نعتبر مثلا أن كل الحقوقيين مجرد كارهين للسلطة حاقدين على الأغنياء؟ لماذا، حين يتعلق الأمر بالنوع والمساواة وحقق النساء، تصبح كل أشكال التبخيس مباحة؟

لنتخيل أن تقرر سلطة معينة أو تصور مجتمعي معين أن كل الأشخاص الذين يبلغون من الطول أقل من 170 سنتمترا، ستكون لهم حقوق قانونية ومجتمعية أقل، وسيحاصر وجودهم في الفضاء العام، وسيعتبر المجتمع أن "فطرتهم" تجعلهم أكثر خنوعا وأقل ميلا للقيام بمهام معينة وأكثر قدرة على الصبر والتحمل.

هل يبدو الأمر عبثيا؟ بالتأكيد! فليس هناك منطق يجعل عدد السنتمترات محددا للحقوق والواجبات. لكن هذا المنطق الأخرق ليس أقل عبثية من اعتبار ولادة شخص بجنس معين، كافية لتحدد مصيره وحقوقه والكفاءات التي يقرر المجتمع أنه سيتوفر عليها.

اليوم، وبالأرقام والمعطيات، هناك أشكال كثيرة من الحيف تطال النساء والفتيات: العنف بكل أشكاله (الجنسي، الاقتصادي، النفسي، إلخ)، ضعف التمثيلية السياسية، صعوبات العيش في الفضاء العام، تزويج الصغيرات، التقسيم غير العادل للإرث، الهشاشة الحقوقية في حالة الطلاق وحضانة الأطفال، وغيرها من الإشكاليات. بل حتى في القضايا التي يعاني منها الرجال والنساء على حد سواء (الأمية، ضعف البنيات التحتية، إلخ)، سنجد دائما أن أرقام النساء الضحايا أكثر وأهم.

لذلك، فنحن نستمر في الحديث عن المساواة وعن ضرورة تفعيل مقاربة النوع، ليس من منطلق تزجية الوقت أو كترف فكري أو حقوقي؛ بل لأن هناك نساء بالآلاف يعانين من أشكال الحيف هذه. نساء نعتبرهم، في مرايانا، أكثر من مجرد أرقام في الإحصائيات والدراسات، بل حالات إنسانية تعاني في صمت أو بصوت مسموع...

ولأننا لا نستطيع أن نبني مجتمعا متوازنا بينما نصف أفراده يعانون من الحيف، لمجرد صدفة ميلادهم كإناث؛ ولا يمكننا أن ندافع عن الديمقراطية والحقوق المدنية والسياسية، ونحن نختزن ونمرر خطابات أو ممارسات ميزوجينية غير منصفة للنساء... لكل هذا، فملف مرايانا الذي بين أيديكم ليس "احتفاءً" بالنساء، لأن مرايانا، في حمضها النووي، لا تؤمن بأن المساواة وحقوق النساء هي مواضيع للاحتفاء والاحتفال... هو فقط مساهمة منا في نقاش أسس له غيرنا منذ عقود (وما جمعية "أخوات الصفا" التي ناضلت من أجل حقوق النساء في خمسينيات القرن الماضي والتي نخصص لها ملفا خاصا في هذا العدد، إلا نموذج من نضالات الكثيرين والكثيرات في هذا البلد السعيد)، ونطمح لأن نكون لبنة فيه... نقدم عبره نماذج لنساء ساهمن في بناء ما نحن عليه اليوم، ونقاشات مجتمعية وحقوقية نسعى من خلالها لأن نسلط بعض الضوء على أشكال حيف نتمنى أن لا نكون في حاجة للكتابة عنها في المستقبل القريب...

> **لا نستطيع أن نبني مجتمعا متوازنا بينما نصف أفراده يعانون من الحيف، لمجرد صدفة ميلادهم كإناث؛ ولا يمكننا أن ندافع عن الديمقراطية والحقوق المدنية والسياسية، ونحن نختزن ونمرر خطابات أو ممارسات ميزوجينية غير منصفة للنساء...**

ونحن نضع هذا العدد الأول بين أيديكم، نتمنى أن تعكس لنا مرايا المستقبل وجها أكثر إشراقا. وجه أكثر إدماجا لمختلف مكونات المجتمع...

... وجه لا مكان للحيف فيه!

مرايانا
Marayana

14 **السيدة الحرة**
حاكمة تطوان وأميرة الجهاد البحري!

50 **الملكة «ديهيا»**
الأمازيغية التي لم تجد إليها «الفتوحات» الإسلامية سبيلاً سوى قتلها!

07 **فاطمة الفهرية**
أو أنْ تُغنّي قليلا ويَتصَادى صَوتُكَ إلى الأبد!

62 **إلهام القادري**
مغربية على رأس عملاق الصناعة البلجيكي «سولفاي»

الشعيبية طلال
38 حلم عصامي امتطى صهوة التشكيل المغربي إلى العالمية

30 **كنزة الأَوْرَبية**
المرأة التي دعّمت أركان أول دولة إسلامية في تاريخ المغرب!

12 **خيرونة الفاسية**
«زعيمة» المذهب الأشعري بالمغرب

من حياة الفقر إلى عوالم السياسة في أعلى مستوياتها

قصة نجاح نجاة بلقاسم! 24

26 **التمييز بين الجنسين**
فروق شاسعة يحاول القانون حظرها بينما يكرسها المجتمع!

مرايانا
Marayana
Marayana.com
تصدر عن:
دايفيرسيتي ميديا
Diversity Medias S.A.R.L

مديرة النشر
سناء العاجي

رئيس التحرير
هشام روزاق

أعد هذا العدد
علي بنهرار
حسن الحو
دانيا الزعيمي
زينب ابن خلدون
كريم الهاني
نائلة بدرون
ربيع الجزولي

اغتيالات مزمنة:
أول الجريمة... التاريخ

هشام روزاق

... الحكاية هنا، لا تكتب بأفعال ماض. هي بكل بارد اللغات، حكاية مضارع يُصرِّف جريمة قديمة، في تراكيب المستقبل. يؤبدها، يمنحها ما يكفي من "شرعية القتل".

في حكاية المملكة هنا، كما في حكاية جغرافيات أخرى كثيرة، هناك سردية ظلت، على امتداد الزمن، شاهداً أساسيا في ملف معروض أمام ضمير البشر، دون أن يُفتح حتى أمام المرافعة.

سردية، تقول بكامل البساطة، إن التاريخ أول أعداء النساء. إنه، وهن يصنعنه... وهن يكتبن كثيرا من صفحاته، قرر أن يستأصل تلك الصفحات، وأن يجعل تاريخ النساء، مجرد جمل معطوفة على المذكر، ويبني كل أسمائهن وأفعالهن، للمجهول.

في كتاب التاريخ... تظهر المرأة شفافة، كما لو أنها وجدت فقط، كي ننظر من خلالها، للحكاية الأهم... حكاية الذكر. ففي كتاب التاريخ، المرأة لم توجد إلا لتكون زوجة حاكم، أو أم ملك، أو أخت عالم، أو ابنة فقيه، أو جارية في البلاط، أو سبية تُهدى، أو ـ في أكثر لحظات غباء الكرم ـ "امرأة بألف رجل"... لم توجد، إلا لتكون جملة اعتراضية في سيرة رجل.

لأجل ذلك، تستمر ذات السردية اليوم، وتعيش فيها ذات الجريمة. ذات الجريمة التي اغتالت النساء في جملة بنت كل أفعالها على الماضي والمضارع والمستقبل في آن.

ولأجل ذلك... ليس مهما اليوم، أن يكون في سيرتك، اسم بحجم "فاطمة الفهرية"، بانية أول وأقدم جامعة في العالم! ليس مهما، لأن كتاب التاريخ سيذكر اليوم، كما ذكر على الدوام، أن مكان المرأة بيتها... وأن فاطمة الفهرية التي شيدت جامعة، هي نفسها فاطمة المغربية التي يمكن لآخر فاشل ذكر اليوم، أن يطالب باسم الدين، بمنعها من التمدرس، حفاظا على شرف وعرض أسرتها من الاختلاط.

وليس مهما... أن يكتب التاريخ، بغير كثير كرم، حكاية "السيدة الحرة" التي حكمت وقاومت من أجل حرية بلد. الحكاية في كتاب التاريخ محسومة، ولا تحتاج غير بعض تأويل، إذ... ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة.

هي ذات الجريمة المستمرة على امتداد الصفحات. جريمة قديمة، مزمنة، تجعل أول الحكي ضلعا أعوجا، وتريد بطلة الحكاية، ناقصة عقل ودين؛ وليس مهما أن تكون ناقصة العقل والدين هنا، سيدة بقامة "خيرونة الفاسية"، الفقيهة والعالمة التي رسخت المذهب الأشعري في المغرب... نعم، قد يبلغ الأمر بالمجرم أحيانا، أن يقترف جريمته في حق النساء، باسم ذات الدين الذي علمته إياه النساء.

ثم... ما الذي سيعنيه أن يكون للحكاية، فصل كامل باسم "ثريا الشاوي"، تلك الشابة المغربية التي أصرت أن تكون أول قائدة طائرة في تاريخ إفريقيا والعوالم العربية... ربما لن يعني الأمر شيئا، بالنسبة لتاريخ طويل، يردد إلى اليوم، حكاية "عمل المرأة بيتها"، تماما كما لن يعني شيئا، أن يتغافل كتاب التاريخ صفحة "فاطمة المرنيسي" التي أصابت ذكورته في مقتل، وحكاية "زهرة الفاسية" التي غنت "حبيبي دیالي"، كما لو لتصرخ في وجه البشاعة، أن المغرب للمغاربة، وأن لليهود فيه حكاية حب لا تموت، تماما كما لا تموت عيطة "خربوشة" أمام سلطان جائر.

هي نفس الجريمة المزمنة، نقف عليها شهودا كل يوم، ونحن نقرأ سيرة "الملكة تينهينان"، شمس الطوارق التي لا تغرب، دون أن نفهم أن الأمر الأجدر أن يُحتَفَى به في حكايتها، هو... وقف تزويج الإناث بالغَصب في تافيلالت، والذي يستمرّ إلى اليَوم بالجنُوب الشرقي وفي مناطق أخرى من البلد... والذي ثارت من أجله تينهينان منذ أزيد من خمسة عشر قرناً...

"مرايانا"، وهي تقدم هذا العدد الخاص لـ "نساء في حكاية مملكة"، تريد فقط أن تقف على حجم الجريمة التي حان الوقت لفضحها. جريمة التناسي المتعمد، والإهمال المزمن، لحكايات يريد لها البعض، أن تظل مجرد إحالات منسية، كتبت بخط صغير أسفل صفحة كتاب التاريخ.

مرايانا... وهي تغالب كثيرا من صفحات التاريخ، وجدت حكاية النساء، في كثير من الأحيان، مكتوبة بجمل باردة، من قبيل "لا يعرف شيء عن تاريخ ومكان ولادتها" أو " لم تسهب المصادر التاريخية في ذكر الكثير عنها"... لكننا، رغم كل ذلك، انتصرنا للحكاية، كي نتعلم الدرس.

والدرس ببساطة... أننا جميعا، على امتداد أزمنة طويلة، لم نفعل أكثر من خوض المعركة الخطأ، في المكان الخطأ. لعلنا... قررنا، بكثير من وقاحة، أن ننفذ الجريمة، وأن نقف في ذات اللحظة، شهودا في صف الضحية، ومدافعين عن حقها في جبر الضرر.

لعلنا في النهاية... مجرد شركاء نقتسم ما اقترفناه من خراب.

على امتداد سنوات من سيرة الزور والشهادات الملفقة، استسهلنا الكذب، اطمأنت أنفسنا لعمليات تجميل القبح الذي يسكننا، صدقنا كذبتنا القديمة، وارتدينا زي الفوارس في معركة... نحن أول مجرميها.

وصفة الجريمة لم تكن معقدة. لم نكن نحتاج حتى لإخفاء الجثة أو مسح البصمات، احتجنا فقط، شهادة زور تجعلنا جميعا، خارج مكان الجريمة وقت تنفيذها، وتقدِّمُنا أمام المحكمة، كهيأة دفاع ومطالبين بالحق المدني.

... على امتداد زمن طويل، بحثنا عن وجه عدوها في الأمكنة.

بحثنا عنه، في جريمة عنف على حافة سرير أو في بيت زوجية، أو تحت سياط ذكر اسمه أب، أو وحشية أخ. بحثنا عنه في فضاء عام صار فيه مجرد حضورها، مرادف استباحة لجسدها وكرامتها. بحثنا عنه... في تخلف قانون أو ووحشية تأويل متخلف لنص مقدس.

بحثنا عن عدو المرأة في كل الأمكنة، ونسينا ان أصل الحكاية، الزمن. أن أول الأعداء، التاريخ. وتلك حكاية مشاركتنا في الجريمة.

التاريخ هنا، لا يكتبه المنتصرون، ولا يدونه المنهزمون. التاريخ هنا... حكاية جريمة قديمة، يرويها، إلى حدود اليوم، مجرمون.

وهي تصنعه، وهي تمنحه بعضا من معنى الوجود، قرر التاريخ أن يجعلها شفافة، أن لا تُرى... أن يسقطها من كتابه. قرر التاريخ أن ينتصب عدوا للمرأة، وأن يجعل كل حكايته، جمع مذكر غير سليم.

هي في النهاية... مجرد حضور ثانوي. هي امرأة تقف، ليس إلى جانب، وليس أمام، بل فقط... "خلف كل رجل عظيم".

هي تلك حكايتها في تاريخ البشر، وهي كذلك إلى اليوم. حكاية جريمة قديمة، لازالت تقترف كل يوم. جريمة تحضر في سؤال صحافي، حين تجد امرأة ناجحة نفسها، أمام ذات الطعنة الغادرة والبليدة: "كيف توفقين بين عملك والبيت؟"، لأن أصل الحكاية في جرم السؤال هنا، أن السيدة خلقت لتنجح في البيت... أبدا لن يُسأل رجل نكرة حتى... عن توفيقه بين عمله والبيت! وتحضر في غباء الساسة، حين يملؤون الدنيا ضجيجا، مطالبين بمنح منصب لامرأة، ليس لأنها تستحقه، ولكن فقط، لأنها امرأة... وتحضر في خطابات أشباه المفكرين والمثقفين وما تبقى من ذكورة، حين يبدؤون كلامهم الجاهز المعلب والقديم، بذات الجملة/ الجريمة التي يتوهمون بها الدفاع عنها والانتصار لها: "برهنت المرأة على قدرتها..."، وكأن المرأة في الأصل، خلقت لتبرهن فقط، أنها تستطيع النجاح. أنها تستحق الحياة. أو حين يقولون: "المرأة هي ابنتي وأختي وأمي"، وكأنها لا تستطيع أن تكون... خارج أبجديات الانتماء له!

في النهاية... "أيا كان ما تفعله النساء، كان عليهن أن تفعلنه مرتين أفضل من الرجال، وأن تتقبلن فقط نصف تقدير عليه. لحسن الحظ، لم يكن الأمر صعبا عليهن"، كما تقول الراحلة "Charlotte Witton" عمدة أوتاوا.

هي في الأصل، حكاية جريمة تاريخية، جعلت صانعة التاريخ مجرد حرف عطف في جملة، وجعلت الذكورة آلة اغتيال، لم تجد، لتبرير جريمتها، غير جمل قديمة، تكتب حروفها باسم المساواة...

ربما... حين يعترف التاريخ بجريمته الأصل، سيكون باستطاعتنا الحديث فعلا عن المساواة...

ربما، كما قالت الكاتبة والصحافية " Françoise Giroud " ذات يوم: ... سنستطيع القول إننا حققنا المساواة بين الجنسين، عندما تشغل نساء عاديات مناصب المسؤولية، كما يشغلها ذكور أقل من عاديين".

ربما... ستتحقق المساواة، حين يعترف التاريخ أولا، أنه شهادة زور ضد النساء.

وهذا... بعض من كلام.

الخبز والورد

اليوم العالمي لحقوق النساء... أصل الحكاية

في الـ8 من مارس/آذار كل عام، يحتفي العالم بيوم المرأة العالمي... من الدول من أقره عطلة رسمية، منها من يمنح عطلة للنساء وحسب، منها أيضا من يعرف مظاهرات نسائية للمطالبة ببعض الحقوق.
بيد أن الهدف في الأخير واحد؛ وهو تخليد نضالات المرأة، تقييم ما مضى، وتحديد رؤية مستقبلية لتمكينها من كافة حقوقها في أفق تحقيق المساواة بين الجنسين.
المستقبل يبنى... الحاضر فرصة... أما الماضي، فهو تراكم...

الحقوق التي نعدّها اليوم بديهية كانت، في زمن مضى، بالنسبة للنساء، في عداد الخيال.

نعم، الحقوق لا تُهدى، وتاريخ الحضارة الحديثة مليء بالبقع المظلمة فيما يخص النساء... حتى قررت ذات يوم أن تحاول وضع نقطة نهاية، من بين تجلياتها يوم المرأة العالمي هذا... وهذا أصل الحكاية!

في الثامن من مارس/آذار 1857، كان السيل قد بلغ الزبى بعاملات النسيج في نيويورك.

بينما يعمل الرجال 10 ساعات في اليوم وحسب، تعمل النساء 16 ساعة. بينما خصصت للرجال قاعات عمل دافئة تزورها الشمس طوال النهار، زج بالنساء في قاعات رطبة رثة تنبت الطفيليات من جنباتها. بينما يتقاضى الرجال أجرا يوازي قيمة جهدهم، تحصل النساء على فلس أو اثنين نظير نفس الجهد، أو أكثر منه بالأحرى.

لم يعد الوضع يحتمل، لا لهذا الظلم فقط، إنما لتراكم الإذلال وانتهاك الحقوق وانتفاء المساواة على نطاق أوسع؛ فالنساء ليس بوسعهن ولوج المناصب العليا، ولا أن يعملن فيما يرغبن، ولا يحصلن على أجور مثل الرجال... لا يملكن حق التصويت حتى!

يومها، خرجت آلاف النساء للاحتجاج في شوارع نيويورك على الظروف غير الإنسانية التي يجبرن على العمل فيها... يومها أيضا، لم تسلم النساء من وحشية أجهزة الأمن التي هبت لتفريقهن!

لكن... مسيرة الألف ميل تبدأ بخطوة، يكفي أنه في ذلك اليوم، بدأ المسؤولون يعون مشكلة المرأة العاملة.

لسبب ما، طمر الموضوع حتى أعاد التاريخ نفسه بعد 51 عاما؛ أي في الـ8 من مارس/آذار 1908... بديهي أن يعيد نفسه طالما أن الأسباب لم تزل تتراكم!

خرجت هذه المرة عاملات النسيج للتظاهر في نيويورك، يحملن في أيديهن الخبز وباقات الورد، دلالة على الحب والتعاطف وحق العمل والمساواة فيه، ويطالبن بتخفيض ساعات العمل وأجر أفضل وكذا منحهن حق التصويت.

هذه المرة أيضا، لم يعد التغاضي حلا؛ فكان الحاصل تأسيس حركة "الخبز والورد"، التي شكلت بداية الحركة النسوية داخل الولايات المتحدة الأمريكية.

ولأن الذكي لا يلدغ من ذات الجحر مرتين؛ بعد عام،

> **خرجت هذه المرة عاملات النسيج للتظاهر في نيويورك، يحملن في أيديهن الخبز وباقات الورد، دلالة على الحب والتعاطف وحق العمل والمساواة فيه، ويطالبن بتخفيض ساعات العمل وأجر أفضل وكذا منحهن حق التصويت. هذه المرة أيضا، لم يعد التغاضي حلا؛ فكان الحاصل تأسيس حركة "الخبز والورد"، التي شكلت بداية الحركة النسوية داخل الولايات المتحدة الأمريكية**

احتفلت النساء الأمريكيات بالذكرى الأولى لتلك الاحتجاجات، ثم ما لبث أن أعلن الحزب الاشتراكي الأمريكي، اليومَ، عيدا وطنيا للمرأة... هذه كانت إذن أول مرة يحتفى بها بالمرأة في الـ8 من مارس/آذار.

امتدت الفكرة إلى أوروبا، ذلك أن نساءها لم يكنّ أفضل حالا من الأمريكيات... في ذات اليوم عام 1910، نُظم مؤتمر دولي للنساء العاملات في كوبنهاغن (الدانمارك)، حضرته 100 امرأة من 17 دولة.

أخذت ناشطة ألمانية تدعى كلارا زيتيكن الكلمة، واقترحت أن يصبح الـ8 من مارس/آذار يوما عالميا للمرأة، فحظي المقترح بموافقة جميع الحاضرات.

بعد عام، احتفت النساء في النمسا والدنمارك وألمانيا وسويسرا بيومهن العالمي هذا، ثم حصلن أخيرا على حقهن في التصويت.

ثم عام 1917، رفعت الروسيات خلال الحرب العالمية الأولى، شعار "الخبز والسلام"، في وجه القيصر في الـ23 من فبراير/ شباط... كانت روسيا حينها تستخدم التقويم الجولياني، وكان اليوم يصادف 8 مارس/آذار في التقويم الغريغوري.

أضربت الروسيات يومها يطالبن بالخبز والسلام... أضربن ليوم واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، ثم تنازل القيصر الروسي عن العرش، فمنحت الحكومة المؤقتة للروسيات الحق في التصويت.

منذ ذلك الحين، أخذ الـ8 من مارس/آذار يكتسي بعدا عالميا أكثر فأكثر... ثم عام 1945، بدأت دول أوروبا جميعها في الاحتفاء به على إثر انعقاد أول مؤتمر للاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي في باريس.

مع ذلك، لم تعترف منظمة الأمم المتحدة بهذه المناسبة إلا بعد عقود، تحديدا في عام 1977... تأخرٌ اتسم بالغرابة لفترة طويلة في نظر المتابعين.

يومها، أصدرت المنظمة قرارا يدعو دول العالم إلى تخصيص يوم في السنة يقع عليه الإجماع للاحتفاء بالمرأة... اتفقت الدول على الـ8 من مارس/آذار، فبات على نحو رسمي، يوما يرمز لنضالات المرأة.

يوم النساء العالمي هو اليوم فرصة متاحة للتأمل في التقدم المحرز بخصوص المساواة بين الجنسين، والدعوة للتغيير وتسريع الجهود "الشجاعة" التي تبذلها عوام النساء وما يضطلعن به من أدوار استثنائية في صنع تاريخ بلدانهن ومجتمعاتهن.

فاطمة الفهرية

امرأة بَنَت للبشرية... أول وأقدم جامعة في العالم

ربما لا يعرف كثيرون أن أقدم وأول جامعة في العالم توجد في المغرب.
وربما... لا يعرف كثيرون أيضا، أن من بناها فعلا وبذل المال، امرأة.
امرأة ورثت عن أبيها مالا كثيرا، لم تفكر كثيرا أين ستضعه، فالتدين والورع والزهد في الدنيا، حددوا، منذ البدء، ما ستفعل به: بناء جامع! جامع كبير أصبح مع الوقت، جامعة، درست فيها أسماء وقامات علمية كبيرة.

ولدت فاطمة الفهرية، الملقبة بـ "أم البنين" واسمها الكامل فاطمة بنت محمد الفهرية القرشية، بمدينة القيروان في تونس. بعض المصادر التاريخية ترجح أن يكون ذلك مع بداية القرن الثامن للميلاد. وتعد فاطمة غصنا في شجرة تمتد جذورها إلى عقبة بن نافع الفهري، قائد "الفتح الإسلامي" لتونس ومؤسس مدينة القيروان.

ككثير من النساء اللائي تركن بصمتهن في كتب التاريخ، لم تسهب المصادر التاريخية في ذكر الكثير عن صبا فاطمة الفهرية، عدا أنها نزحت وهي فتاة صغيرة، رفقة عائلتها وكثير من التونسيين، من مدينة القيروان إلى مدينة فاس المغربية؛ تحديدا عدوة القرويين، وذلك في عهد حكم إدريس الثاني.

اختارت فاطمة الفهرية الإقامة والاستقرار في فاس، فتزوجت هناك، وكان لأبيها وزوجها مال كثير. غير أنه لم تمض سنوات كثيرة حتى توفي الأب والزوج وأخ له، فورثت فاطمة، بجانب أختها مريم، وحيدتي أبيهما، كل ماله، إضافة إلى مال زوجها، فأغدقت عليهما الدنيا بالثراء.

كان لتربية محمد بن عبد الله الفهري الدينية لابنتيه، فضل كبير عليهما، فقد تميزتا عند الناس بالورع والزهد في الدنيا والرغبة في التقرب من الله. هكذا، حين توفي وورثتا عنه ثروة طائلة، ثم وجدتا أن المسجد الذي يصلي فيه المسلمون ضيق، رأتا ضرورة بناء مسجدين قادرين على لم المسلمين جميعا للصلاة، فبنت فاطمة جامع القرويين في فاس، فيما بنت مريم جامع الأندلس في المدينة نفسها دائما

تذكر بعض المراجع التاريخية أن فاطمة اشترت أرضا بجانب بيتها، من رجل ينتمي لقبيلة هوارة كان قد أقطعه إياها الأمير، ثم سخرت مالها من أجل بناء مسجد عليها. كان ذلك في فاتح رمضان من سنة 859 للميلاد، وأقسمت منذ ذلك اليوم... ألا تفطر يوما وأن تظل صائمة إلى أن ينتهي بناؤه.

يشير المؤرخ عبد الهادي التازي، في رسالته لنيل الدكتوراه، إلى أن "حفر أساس مسجد القرويين والأخذ في أمر بنائه الأول كان بمطالعة العاهل الإدريسي يحيى الأول، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائمة محتسبة إلى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكرا لله."

من جهته، يذكر المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب، في كتابه "شهيرات التونسيات"، أن فاطمة "التزمت ألا تأخذ التراب وغيره من مادة البناء إلا من نفس الأرض التي اشترتها دون غيرها، فحفرت كهوفا في أعماقها وأخذت تستخرج الرمل الأصفر الجيد والجبس والحجر لتبني به، تحريا منها أن لا تدخل شبهة في تشييد المسجد".

بناء جامع القرويين انتهى سنة 876 للميلاد؛ أي بعد 17 عاما من أول يوم شرع في بنائه، ولم تمر بعد ذلك سوى سنتين أو أكثر قليلا، حتى توفيت فاطمة الفهرية. وتذكر بعض المصادر أنها أسلمت روحها للموت بين عامي 878 و880 للميلاد.

الحديث عن فاطمة الفهرية، هو حديث بالضرورة عن جامع القرويين، فلا تكاد تذكر دون ذكره، ولا يذكر دون ذكرها. ولعل فاطمة حينما فكرت في بنائه، لم يكن يدور بخلدها أن جامعها هذا، سيصير مع مرور السنين وتعاقب الأزمنة، أقدم جامعة في العالم، وفق العديد من المصادر التاريخية المختصة.

يشير المؤرخ عبد الهادي التازي في كتابه "جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس"، إلى أن حيازة جامع القرويين لأوقاف، جعلته مستقلا ماليا عن خزينة الدولة، بل إن "الدولة اقترضت في مراحل تاريخية مختلفة من خزينة جامعة القرويين التي أفاضت منها على سائر مساجد فاس وسرت أوقافها الزائدة حتى المسجد الأقصى بالقدس، وحتى الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة".

في ذكر فضلها على الملوك، يقول المؤرخ ابن خلدون: "فكأنما نبهت عزائم الملوك بعدها، وهذا فضل يؤتيه لمن يشاء من عباده الصالحين". والواقع أننا نفهم ذلك مما ورد في كتاب "فاس عاصمة الأدارسة" لصاحبه محمد المنتصر بالله الكتاني:

"وعلى مر الدهور والأعوام، تنافس الملوك والدول في توسيع بنائه (جامع القرويين) ورصد الأموال للقيام به، فزاد فيه أيام الدولة الزناتية أميرها أحمد بن أبي بكر من خمس الغنائم عام 345 للهجرة، وزاد فيه أيام الدولة المرابطية علي بن يوسف بن تاشفين، ثم لم يزل يوسع ويجدد وتزداد أوقافه، أيام دولة الموحدين ودولة المرينيين، إلى أيام دولتنا العلوية الحاضرة".

افاطمة الفهرية، حسب بعض المراجع التاريخية، لم تكن السبب المباشر في تطوير الجامع إلى جامعة، إذ أن ذلك بدأ في عهد المرابطين، حيث اتخذ علماء كثر الجامع مقرا لدروسهم، ثم صار الأمر أكثر جدية في عهد المرينيين، ذلك أنه حينذاك، ستبنى مدارس حول الجامع وسيتعزز موازاة بكراس علمية وبخزانات كتب ووثائق مهمة.

هكذا، أصبح إذن جامع القرويين الذي بنته فاطمة الفهرية بمالها وساعديها، أول جامعة في العالم، درست فيها على مدى تاريخ وجودها الضارب في القدم، قامات وأعلام شهيرة، من قبيل ابن خلدون، وابن رشد، وموسى بن ميمون، والشريف الإدريسي، وغيرهم كثيرون جدا.

ثريا الشاوي

أصغر وأول قائدة طائرة في المغرب، إفريقيا والعالم العربي!

كانت استثنائية... من سيقول إن فتاة مغربية في ثلاثينيات القرن الماضي، ستردد في قرارة نفسها «سأصير يوما ما أريد». وما تريد، هو أن تكون يوما ما قائدة طائرة؟ أن تكون قائدة طائرة في عهد كان خروج المرأة وحده، يعد ضربا لعادات المجتمع بعرض الحائط، وخروجا صارخا عن المألوف.

وكأنها ولدت طائرا. بعد بضع سنين، ستحلق في السماء مع الطيور، وستكون أصغر وأول طيارة في تاريخ المغرب. كان ذلك تحديا للمستعمر، وكان فخرا للمغرب. لكن في 19 من عمرها، وهي بعد في عمر الزهور، ستشيع شهيدة للوطن، بعد أن اغتالتها أيادي الغدر، واغتالت معها حلما كان ليكون له شأنا أعظم.

في هذا البورتريه، بعض من نجاحات كبيرة، لحياة قصيرة عاشتها ثريا الشاوي، شهيدة الوطن، وشهيدة أحلامها.

ميلاد طائر

في أحد صباحات دجنبر 1936، سترى ثريا الشاوي النور بمدينة فاس، تحديدا بحومة القلاقليين، لأب رائد في المسرح بالمغرب آنذاك، اسمه عبد الواحد الشاوي، وأم اسمها زينة.

في كنف هذه الأسرة ستنشأ ثريا. وإذا كانت الفتيات عادة يحبن اللهو بالدمى وألعاب الأطفال الأخرى، فإن ثريا منذ فجر صباها، ستولع بالألعاب المكانيكية الصغيرة، من سيارات وطائرات. ولكم رمقت أيضا بإعجاب كبير الطائرات وهي تحلق فوق منزلهم.

رب ضارة نافعة

أطفأت ثريا الشاوي شمعة عامها الثالث، فألم بها مرض صدري جائم، أرق والدها. وحين أخذها إلى طبيب بفاس، نصحه بأن يأخذها إلى مطار المدينة، فيبحث عن طيار يقوم لها بجولة في السماء، علّ هواء الأعالي، يشفي مرضها. لم يتردد الأب عبد الواحد كثيرا، وراح يبحث عمن يساعده في مسعاه، حتى وجد أخيرا من يحقق له ذلك. ركبت حينها ثريا الطائرة، ركبتها لأول مرة في حياتها، ثم كان الطبيب صادقا، فقد شفيت، لكنها التقطت حينذاك فيروسا آخر. فيروس سيرافقها مدى حياتها القصيرة، فيروس حب الطيران!

فتاة، مغربية، صغيرة، في مدرسة للطيران؟!

في زمن كان فيه التفكير في امرأة تقود طائرة ضربا من الجنون، أصرت ثريا على ولوج مدرسة "تيط مليل" للطيران. ولكم كان تحقيق حلمها صعب المنال، فالمدرسة كانت مخصصة لأبناء الفرنسيين وحسب، فهؤلاء اعتبروا أبناء جنسهم مضرب مثل في التفوق، ورأوا في ولوج ثريا للمدرسة، وهي صغيرة، وهي أنثى، وهي مغربية، رأوا في ذلك تحديا فظا لهم.

بطريقة ما، ولجت ثريا الشاوي المدرسة، وانتقلت كل العائلة معها إلى تيط مليل وهي بعد صبية. فدرست وحيدة بين نخبة أوروبيـة، واجتهد أبواهـا في توفير تكاليف المدرسة، وتكاليف تنقلها. وبالرغم من نظرات الازدراء والدونية، التي لمستها في زملائها الذكور، أبت إلا أن تواصل مسيرها، بدعم وحماية من أستاذها الإسباني.

ثريا الشاوي: مسار متفرد وانبهار عالمي

يوم التخرج... اليوم المشهود

عن عمر الـ15، جاء اليوم المشهود، يوم الامتحان، وكان يوما سيئ الأحوال الجوية. حسب بعضهم، فإن اختيار ذلك اليوم كان متعمدا من قبل الإدارة الفرنسية للمدرسة، حتى لا تنال شهادتها.

ركبت ثريا الشاوي الطائرة مؤمنة بحلمها، وحلقت على علو ثلاثة آلاف متر، وقطعت مسافة دائرية على طول 40 كيلومترا. قدمت استعراضا "رائعا" ثم نزلت أخيرا، تحت تصفيق الحاضرين من الصحافة، وانبهار غير ذي نظير من قبل لجنة الامتحان، فتوجت بذلك حلمها، ونالت شهادة الكفاءة لقيادة الطائرات، بامتياز.

أورد عبد الحق المريني، مؤرخ المملكة، في كتاب[1] له عن ثريا الشاوي، كلمة كتبتها في مذكرتها، تتوجه بها إلى أبيها متحدثة عن هذا الامتحان، تقول فيها:

"لقد عشت يا أبي أسعد لحظة في حياتي، حين كنت ممسكة بزمام الطائرة، فما كنت مضطربة، أو خائفة من الرسوب، بل كنت متيقنة من فوزي التام. لم أر إلا ضبابا في ضباب، ولكني كنت حذرة أشد الحذر على الاحتفاظ بتوازن الطائرة، وعدم الخروج من إطار ما حدوده لي، فكنت أحس نفسي كطائر أشارك الطيور في فضائها واستمتع بالحرية الكاملة، وحيدة يؤنسني صوت محرك طائرتي وتقودني معرفتي ومعلوماتي".

انبهار عالمي

لم يكن ليمر هذا الحدث، دون أن يتصدر عناوين الصحف الوطنية والدولية، فالنساء القائدات للطائرات آنذاك، كان يتم عدهن على رؤوس الأصابع في العالم، وثريا كانت أول امرأة عربية وإفريقية تحصل على شهادة الطيران في هذه السن المبكرة.

تقديرا لهذا الإنجاز، أقام النادي الجوي للأجنحة الشريفة، حفلا على شرفها. وانهالت عليها التهاني والتبريكات من كل حد وصوب، من محمد بن عبد الكريم الخطابي، وعلال الفاسي والاتحاد النسوي الجزائري، والتونسي، والربانة الفرنسية جاكلين أوريول، من ملك تونس، وملك ليبيا، وغيرهم، بل ومن ملك المغرب محمد الخامس، الذي استقبلها في قصره بحفاوة كبيرة رفقة أميراته ليهنئها.

مناضلة، فاعلة جمعوية، أديبة، وممثلة...

الاهتمام بالطيران لم يكن الشغل الشاغل لثريا الشاوي، إنما امتدت مواهبها إلى مجالات عدة. فكانت محبة للأدب بخاصة الشعر والقصة الصغيرة، ونالت جوائز كثيرة بهذا الصدد. كما شاركت، بجانب أبيها، في فيلم من إخراج الفرنسي أندريه زوبادا بعنوان "الباب السابع"، سنة 1943، وهو ما كان في حينه سابقة نسائية.

ثريا الشاوي أسهمت كذلك في العمل الجمعوي من خلال تأسيسها لجمعية اسمها "أخوات الإحسان"، وعملها سفيرة للقضية النسائية داخل مؤسسة للا أمينة المعنية بمساعدة الفتيات ودعم تحرير النساء. كما كانت لها مواقف وطنية عديدة، إذ طالبت مناضلةً ضد المستعمر بعودة محمد الخامس من المنفى، وحين عاد، كان الترحيب بطريقتها الخاصة.

في غضون عودة الملك من منفاه، عمت المغرب احتفالات الترحيب، وكان لثريا الشاوي طريقتها في ذلك، إذ حلقت بطائرتها في سماء الرباط فوق موكب الملك، ترمي بمناشير وأوراق ملونة فرحة بعودته. من شدة فرحتها، لم تعر اهتماما كافيا لملبسها، ولا لنافذة الطائرة المفتوحة، وحين نزلت، كان جسمها "مثلوجا".

استدعى ذلك نقلها إلى الدار البيضاء لإجراء فحوصات طبية، فتأكدت عودة المرض إلى صدرها. تكفل الملك بنقلها إلى سويسرا من أجل التداوي، هناك ظلت ستة أشهر تتعافى، قبل أن تعود إلى أرض الوطن، أخيرا، سالمة.

ثريا الشاوي: اغتيال أسطورة

قصة فخر أخرى

سنة 1953، كانت ثريا الشاوي في رحلة عائلية بإسبانيا، زارت فيها مالقة وغرناطة وإشبيلية. حل يوم العودة إلى المغرب، ركبت طائرة العودة، فلاحظ أعضاء من طاقم الطائرة، أن فتاة صغيرة ترتدي لباس ربان طائرة مدني، مع شارة للطيران المدني المغربي، فاعتقدوها طفلة مزهوة بلباسها.

يحكي أخوها الفنان التشكيلي، صلاح الدين الشاوي، أن الربان اقترب منها فسألها عن ذلك، فاندهش لما قالت له إنها فعلا طيارة مغربية. بعد حديث قصير للتأكد من ذلك، سلمها زمام قيادة الطائرة، فكان ذلك. وحين هبطت الطائرة بتطوان، أخبر الربان ركابها بأن من تولت القيادة، الفتاة الصغيرة الواقفة أمامهم. فانهالت عليها تصفيقات الانبهار والإشادة.

موت مؤجل فحسب

أربع محاولات اغتيال تعرضت لها ثريا الشاوي بين سنتي 1954 و1955، حتى أن علال الفاسي نصح أباها بالرحيل خارج المغرب، لكنه لم يعر لرأيه أي اهتمام خاص. الأولى وضعت فيها مجموعة فرنسية قنبلة بباب الفيلا التي تسكنها، فألحقت خسائر بالمكان دون إصابة أحد. والثانية أطلقت فيها ثماني رصاصات عليها وأبيها، فأفلتا اثنيهما.

وتعرضت بعد ذلك لمحاولة اغتيال ثالثة حاول فيها شرطيان فرنسيان إطلاق النار عليها بصحبة والدها داخل سيارتهما، لكنها باءت بالفشل هي أيضا. ثم محاولة رابعة، إذ أوقفها شرطيان وهي تقود سيارتها، وطلبا منها أن تحملهما إلى مكان ما، فامتنعت حتى عج المكان بالناس، فاكتفيا باتهامها بمخالفة قانون السير، ثم أخليا سبيلها.

شهيدة وطن

إن لم تكن الثالثة ثابتة، ولا الرابعة، فالخامسة لها رأي آخر. قبل يوم واحد من إعلان المغرب استقلاله عن الحماية الفرنسية؛ أي في فاتح مارس من سنة 1956، ستشارك ثريا الشاوي في حفل نظمته مؤسسة للا أمينة احتفالا بنيل المغرب لاستقلاله في الغد. بعيد نهايته، ستستقل سيارتها رفقة أخيها إلى البيت. دقائق قليلة. وصلا. ترجلا. أمها تمازحها من الشرفة أعلى البيت. وفجأة، باغتها أحدهم من الخلف، مفرغا رصاص مسدسه في رأسها، فأرداها مضرجة في دمائها، ملبية نداء أجلها وهي بعد في عمر الزهور، عن 19 عاما.

يقول صلاح الدين الشاوي أخ ثريا، عن تلك اللحظة: "ظننت أن أحدهم يمازحنا، فقد كنت صغيرا، وكان الجو العام تملؤه أفراح الاستقلال.. لكني وعيت من خلال أمي الثكلى ونواحها، أن الأمر كان حقيقة".

في اليوم التالي، وهو يوم الإعلان عن الاستقلال، عرف المغرب جنازة كبيرة شيعت فيها 60 ألف كبد محروقة، "شهيدة الوطن" إلى مثواها الأخير. وعربونا للمحبة التي يكنونها لها، درج كثيرون منهم بعد ذلك على تسمية بناتهم بـ"ثريا"، تيمنا بها.

القاتل الغامض...

سيذكر ضابط مخابرات مغربي بعد ذلك بسنوات، أن مقتل ثريا الشاوي، كان على يد أحمد الطويل، وهو عنصر في ميليشيا سرية كانت معروفة بتنفيذها عمليات الاغتيال آنذاك، ذلك أنها؛ أي ثريا الشاوي، رفضت الزواج منه. لكن الصحفي لحسن لعسيبي [2]، يؤكد أنه وإن كان الفاعل، فإن من أمر بالتصفية، هي جهة أكبر من أحمد الطويل، لكون المستهدف في شخص ثريا الشاوي، هو رمزيتها، وموقفها كامرأة وموقفها الوطني، وانخراطها في أسئلة المجتمع، وكذا علاقتها القوية مع الأسرة الملكية، وأيضا لكونها أصبحت رمزا للمرأة المغربية الناجحة. ويستطرد ذات المتحدث أن هذه الجهة، لاعتبارات عدة، هي "فرنسا". جدير بالإشارة، أنه يُؤاخذ على الدولة من قبل عدد من الباحثين والمهتمين، أنها لم تُسمِّ لحد الآن أي مطار في المغرب، باسم أول طيارة في تاريخه، ثريا الشاوي.

الأنثى في عاشوراء المغربية:

عندما تتفلت المرأة من سلطة الذكر

النار مقابل الماء، الأكل مقابل الصوم... رحلة تطهير متكاملة تستمد جذورها من ديانات ووتقاليد متعددة ومتنوعة.
مع بداية احتفالات عاشوراء تطغى الصورة التالية:
نساء وفتيات يخرجن إلى الشارع، يرددن أهازيج تدعو للثورة والتمرد، وتعلن انتهاء سلطة الذكر بشكل مؤقت.

تصدح حناجر النساء مرددة: "بابا عيشور ما علينا حكام ألآلة .. عيد الميلود كيحكمو الرجال ألالة"، "عيشوري .. عيشوري .. دليت عليك شعوري"، "اخرجوا الحاجبات... هذا عيشور عاد جات".

تحفل هذه الأهازيج والترانيم بتقابلات عديدة، قد تكون عاكسة لميزان القوى في المجتمع، فهي تضع تقابلا بين "الميلود" و"العيشور": (بين عيد المولد النبوي وعاشوراء)، وبالتالي بين سلطة الذكر وسلطة الإناث من جهة أخرى. لكن... اللافت هنا، هو إقحام المولد النبوي كإعلان عن عودة سلطة الذكر؟

هل يتعلق الأمـر بترسبات الانتقال من الأميسية إلى الأبيسية ومحاصرة سلطة المرأة؟ هل يعني استحضار المولد النبوي هنا تمثلا للسلطة الفقهية التي حاصرت المرأة؟

باستحضار باقي الأهازيج، نجدها دعوة مباشرة إلى إطلاق الشعر وكسر الحجاب، وغني عن البيان رمزية الشعر في الديانات التوحيدية، وبالتالي:

ألا يشكل إعلان إطلاق الشعر هنا، تحديا للمنظومة الفقهية الذكورية التي كانت ـ ولازالت ـ تعتبر الحجاب شرطا رئيسيا للتدين الصحيح وتربطه بالعفة والفضيلة؟

ألسنا هنا أمام حالة إعلان التحدي في وجه سلطة الذكر، المتمثلة في سلطة الفقيه المحاصر للمرأة، تحد تواصله المرأة برفض السلطة الذكورية، عبر توجيه الدعوة للبقية ليلتحقن بهن ويخرجن من حجابهن الذي يفصلهن عن باقي العالم؟

تشكل هذه الأهازيج إذن، دعوة صريحة لكسر الحواجز المجتمعية، والتمرد على الحجّب الممارس على المرأة، من خلال حجبها من الفضاء العام، الذي يصبح "محتلا" من طرف المرأة، في نوع من رد الاعتبار لها.

الخروج هنا ليس عاديا، فهو لا يقتصر على مجرد الدعوة إلى الخروج إلى أزقة الشوارع والفضاءات العامة وإعلان الاحتفال علنا، بل... هو دعوة إلى الخروج على سلطة ذكورية قيدت المرأة، ودعوة للانفلات من عقال السلطة الفقهية قبل أن تحين لحظة المولد النبوي لتعود من جديد، واستحضار لرمزية المرأة الثائرة المتجسدة في "السيدة زينب"، التي قامت بدور أساسي في معركة كربلاء، وقادت المعارضة في مواجهة الأمويين...

ألسنا هنا أمام ثنائية قد تكون ضاربة لأطنابها في القدم بين الديانات ذات المنزع الأنثوي والديانات ذات المنزع الذكوري؟

لقد كان المغرب وإلى فترة متأخرة مجتمعا أميسيا، تسود فيه المرأة وتحتل مواقع ريادية، ولم تفلح طبيعة المجتمع القبلية أن تغير من مكانة المرأة، وهو ما يبدو واضحا من خلال استنطاق النصوص التاريخية، فالمرابطون مثلا، كانوا إذا بلغ الرجل عندهم شأنا عاليا دعي باسم أمه، تكريما له، وظل الأمر كذلك عند عدد من القبائل، قبل أن تضطر المرأة لخوض صراع طويل ـ ابتداء من المراحل المتأخرة للعصور الوسطى ـ ضد رجال الدين التقليدانيين، آلت الغلبة فيها لهؤلاء، في ظل تغييرات عميقة مست جوهر البنى المجتمعية، وألقت بالمرأة في سجن العقلية الذكورية.

لكن... رغم ذلك، بقيت بعض محاولات الانفلات من هذه السلطة حاضرة، إن في المواسم أو الاحتفالات، فهل تشكل بعض من طقوس عاشوراء جزء منها؟

تمر أيام عاشوراء، وتنتهي لتعود بعد سنة، في نفس احتفالي يشكل سعي المغرب منذ القدم في رحلته للخاص والبحث عن التطهر والفضيلة، مازجا في ذلك الطقوس الوثنية والتوحيدية، صيام إبراهيمي/مجوسي، في مقابل أكل بأطباق مسيحية/إسلامية/وثنية.

نار مجوسية وماء يهودي، مع إعلان عن انفلات مؤقت من سلطة الذكر والعودة إلى المرحلة الأميسية.

ثنائيات وتقابلات تحضر مجتمعة دون أن يغيب أحدها الآخر، أو يطغى أحدها على الآخر، بل تمتزج فيها طقوس التطهير بالتكفير عن الخطيئة بالفداء داخل قالب من الاحتفال المبهج، يمارسها المغربي على اختلاف ديانته ومرجعياته دون إحساس بالتناقض.

احتفالات عاشوراء إذن خروج من دائرة الهويات المغلقة المحددة سلفا، لدوائر أرحب يلتقي فيها الإنساني بالمقدس، ويمتزج التوحيدي بالوثني، لتعبر عن جوهر الإنسان الحقيقي المتسم بالتنوع وبالاختلاف...

أفلا تشكل عاشوراء في المغرب نموذجا لقدرة الإنسان على العيش في ظل التنوع وتجاوز الهويات المغلقة والتصنيفات النمطية؟

أليست لحظة الفرح التي تخلفها احتفالية عاشوراء دليلا على أن الحياة لا تتحقق إلا بالتنوع... بالاختلاف؟

خُنَاثة بنت بكار

من هدية للسلطان إلى أم للسلاطين!

أن تكون المرأة الوحيدة التي خلد التاريخ جزءا من صنيعها ضمن بضع مئات من النساء كن في حياة المولى إسماعيل، فهذا يعني أنها ليست بامرأة عادية.

خناثة بنت بكار، أو «خناثى» كما دونت بعض المصادر التاريخية الأخرى، قادها القدر إلى أن تصبح زوجة أحد أشهر السلاطين المغاربة، أُمًا لولي عهده وجَدّة لسلطان آخر. على أن القدر يعرف جيدا أي طريق يسلك، فخناثة بلغت من العلم أسمى مراتبه، وقيل إنها فقيهة، بل وكان لها من العزم أن ارتمت، منذ بداية عهدها بقصر السلطان، في غمار السياسية ومشاقها.

ولم يكن ذلك ليكون دون نتيجة، ففي عهد انفجرت فيه الأطماع على السلطة، كانت خناثة السبب الرئيس في بقاء شجرة أبنائها على سدة الحكم إلى يومنا هذا.

الأقدار لا تخطئ حدسها

في الواقع، لم تكن خناثة بنت بكار تتخيل يوما أن تصبح زوجة للسلطان المولى إسماعيل، فقد نشأت هناك بعيدا في إمارة البراكنة (موريتانيا)، في كنف شيخ اسمه بكار بن علي بن عبد الله المغافري الذي كان أميرا للبراكنة، وكان شيخا فاضلا يحرص على تدين أبنائه، ومنهم خناثة التي حفظت القرآن في سن مبكرة وأحسنت القراءات السبع وتفقهت في العلوم الشرعية، حتى أصبحت فقيهة ذات شأو عظيم.

يشير محمد بن الطيب القادري في كتابه "نشر المثاني" إلى أن خناثة كانت بداية تفقهها، تخط بيدها في اللوح ثم تبعث بذلك إلى الشيخ المكي الدكالي ليصحح لها. لم يظل الحال كذلك طويلا حتى بلغت من العلم ما جعلها تحقق وتبدي ملاحظاتها في مصنفات كبار علماء الدين آنذاك.

في نفس السياق، يورد كتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" عن أبي عبد الله أكنسوس، أنه رأى خطها على هامش نسخة من كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر العسقلاني، فعرفه بعضهم وقالوا هذا خط السيدة خناثة أم السلاطين.

أما أكنسوس، وهو مؤرخ عاش في فترة حكم المولى سليمان حفيدَ حفيدِ خناثة، فيقول: "وخناثى هذه هي أم السلاطين أعزهم الله، وكانت صالحة عابدة عالمة حصلت العلوم في كفالة والدها الشيخ بكار".

طريق خناثة إلى القصر كان أشبه ما يكون بلعبة القدر، فهي لم تكن إلا هدية للسلطان. غير أن جمالها، فقهها وأدبها، سرعان ما نفذوا إلى قلبه. في ذلك يقول الشيخ أبو العباس وأحمد بن خالد الناصري في كتابهما الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: "سنة 1082 للهجرة، غزا السلطان المولى إسماعيل صحراء سوس، فبلغ آقاويطاطا وتيشيت وشنكيط وتخوم السودان، فقدمت عليه وفود العرب هنالك[...] وأدوا طاعتهم، وكان في ذلك الوفد الشيخ بكار المغافري والد الحرة خناثة، فأهدى الشيخ المذكور إلى السلطان ابنته، وكانت ذا جمال وفقه وأدب، فتزوجها".

السياسة لم تكن يوما ترفا

جمال خناثة لم يثنها عن تكبد مشقة نيل العلم، ولم يكن ليتركها تكتفي بلقب زوجة السلطان أو بإشقاء نفسها في منافسة نسائه تودداً إليه، بل راحت تعمق مداركها العلمية والفقهية، وارتمت في غمار السياسة وتدرجت فيها حتى أصبحت وزيرة ومستشارة عند زوجها السلطان؛ فبلغ أن فاقت شهرتها آفاق البحار. ويروى أن ملوك أوروبا كانوا يبتغون عطفها لتتوسط لهم عند السلطان ليطلق سراح بعض أسراهم.

غير أن وفاة المولى إسماعيل أقحمت المغرب في دوامة أزمات حادة لكثرة أبنائه وتعدد نسائه؛ كادت السلطة على إثرها أن تنفلت من قبضة يدي السلطان ابن خناثة، المولى عبد الله، الذي أقاله جيش عبيد البخاري لمرات عديدة، لوقوفهم في صف المولى أبي الحسن الأعرج ابن زوجة المولى إسماعيل الأخرى عائشة مباركة. بيد أن خناثة بنت بكار كانت المفضل دائما في عودة ابنها للحكم بطلبها دعم أقربائها في جيشي الودايا والمغافرة.

في عهد السلطان أبي الحسن الأعرج، الذي دام حكمه سنة ونصف، ستدخل خناثة السجن مع حفيدها محمد الذي سهرت على تعليمه وتكوينه وتفقيهه.

يشير كتاب "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" إلى أن السلطان الأعرج قد ألقى عليها القبض لتدله على أموال زوجها المولى إسماعيل، فلم يحصل منها على شيء. وحين أصبح سيدي محمد بن عبد الله، فيما بعد، سلطانا على المغرب، ستتضح التنشئة السياسية لخناثة على حفيدها؛ إذ تميز بالرزانة وبعد النظر، فاجتهد في الحفاظ على بلاده وتأمين وحدتها وتعزيز العلاقات مع الخارج، فكان انفتاحه على أوروبا وكان المغرب أول دولة تعترف بالولايات المتحدة الأمريكية كدولة مستقلة.

من هنا، يبدو جليا كيف أن خناثة بنت بكار كابدت الكثير بعد وفاة المولى إسماعيل لتحافظ على سلطان أبنائها، فدخلت لسنين طوال في صراع مع عبيد البخاري وسجنت ثم نفيت. بيد أنه لم يتمكن واحد من خصومها من التخلص منها، وإنما ظلت صامدة واقفة في وجه كل من أراد أن ينازع شجرة أبنائها على السلطة.

من يصنع الذاكرة، لا يموت

سنة 1143 للهجرة، ستسافر خناثة بنت بكار إلى مكة رفقة حفيدها للحج؛ وأينما كان يحل موكبها، تستقبلها القبائل بطلقات المدافع. كانت هذه الاحتفالات تدوم طيلة أيام.

يصف أبو محمد عبد القادر الجيلاني الإسحاقي حج خناثة بنت بكار تلك السنة فيقول: "وصلت ليلة السادس من ذي الحجة إلى مكة المشرفة بعد العشاء وعليها السكينة مرفرفة، وهي في جلالة عظيمة وسيادة فخيمة [...]. بذلت الشراب والطعام، ثم نفرت إلى مكة وجاءت بعمر الإسلام، تكثر الصدقات على الدوام، وبذلت بغير حصر، وأعطت عطاء من لا يخاف الفقر".

ويستطرد الإسحاقي يحكي قصة حج خناثة فيقول: "فقوبلت بحفاوة كبيرة من أهل الحرمين وفرقت هناك على المحتاجين وذوي البيوتات ما يزيد على مائة ألف دينار، وأكرمها العلماء ومدحها الشعراء؛ ومن جملة ما مدحت به قصيدة للشيخ محمد بن علي بن فضل الحسيني الطبري إمام المقام الإبراهيمي التي يقول مطلعها: فاحت بها أرجاء مكة رغبة ومحبة من سائر الأخيار\ وهي الحقيقة بالجلالة في الورى فجلالة الأضياف ليس بعار".

هكذا، يتضح جليا أن التاريخ الذي صنعته خناثة بنت بكار لم يتنكر لها، وإنما أصبحت بعد ذلك ذات حظوة وشهرة عظيمتين داخل المغرب وخارجه.

خناثة بنت بكار ستترجل عن صهوة الحياة وفق بعض المصادر التاريخية، في جمادى الأولى من سنة 1159 للهجرة (يونيو 1746 للميلاد)، وقد دفنت بروضة الأشراف بفاس. إذا كان قرنان ونيف قد مرا اليوم على آخر مرة رأت فيها النور، فإن سيرة حياة مثل التي تملكها خناثة بنت بكار، لا تموت.

خيرونة الفاسية

«زعيمة» المذهب الأشعري بالمغرب

ليس التاريخ الحديث للمغرب وحده من يزخر بنساء صنعن-ولا زلن- بعض أمجاده. التاريخ القديم أيضا غني بأسماء لولا ما صنعته وقدمته للمغرب، ما كانت لتظل خالدة إلى اليوم.
في هذا البورتريه، ننسج بعضا من حكاية امرأة، اسمها خيرونة، عاشت في العهد الموحدي، ووثّقت بعض المصادر أن لها فضلا كبيرا في انتشار المذهب الأشعري بالمغرب.

تشير مراجع تاريخية عدة، إلى أن الحركة النسائية شهدت نهضة غير مسبوقة في المغرب أثناء الحكم الموحدي. المرأة خلال هذه الفترة، سجلت تاريخا "مشرفا" من الإنجازات العلمية في مختلف مجالات الحياة، فخلدت بذلك اسمها بحروف لا تصدأ في سجلات تاريخ المغرب. إحدى هؤلاء النساء، اسمها خيرونة.

خيرونة، امرأة نزحت إلى المغرب من الأندلس في العهد الموحدي. لم تذكر المراجع تاريخ ميلادها، لكن ذلك كان –على وجه التقريب- في يوم ما من القرن السادس للهجرة، أو الثاني عشر للميلاد.

خيرونة هذه، أو خيرونة الفاسية كما تقدم المراجع التاريخية اسمها، كانت ممن أتقنوا الفقه وبحثوا في أحكامه العملية، واهتموا بتزكية حياتهم الروحية، فاعتنوا بدراسة الكتب الصوفية وتقليد أئمة التصوف حتى أصبحت مع تعاقب السنين من الزاهدات العابدات، وفق ما يشير إليه جمال البختي، رئيس مركز أبي الحسن الأشعري للدراسات والبحوث العقدية، في كتابه "عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية".

كانت خيرونة تحضر مجلس عثمان السلالجي، إمام أهل فاس في الأصول وعلم الاعتقاد؛ كما دأبت على حضور مجالس العلم بجانب حفظها للقرآن، وأصبحت ضليعة في مختلف العلوم الشرعية، من فقه وحديث وتفسير وأصـول، حتى ذاع صيت غـزارة علمها بين الناس.

أحبت خيرونة علم التصوف أيضا فأصبحت امرأة رائدة في التربية الباطنية، ثم اهتمت أكثر ما اهتمت، بعلمي العقيدة والكلام، وأسهمت فيما بعد في نشر التوحيد على المذهب الأشعري بين نساء أهل فاس، وفق ما يورده العلامة المغربي عبد الله كنون في كتابه "النبوغ المغربي في الأدب العربي".

تميزت الفترة التي عاشت فيها خيرونة بفاس، بصراع بين العقائد الأشعرية التي بدأت تنفذ إلى المغرب وعقائد أهل التسليم والتفويض. توجهت خيرونة إلى السلالجي ليعرفها أكثر على المذهب الأشعري.

السلالجي عرف بكونه مقلا في الكتابة، لكنه لم يرد خيرونة خائبة، فاستجاب لمطلبها، وكتب "البرهانية". كتبها لأجل خيرونة، دون أن يعلم أن عقيدته هذه، ستصبح ذات شأن في التاريخ العقدي للغرب الإسلامي، وستلعب دورا بارزا في انتشار المذهب الأشعري فيه. السلالجي إذ كان يكتب عقيدته، لم يكن يصوغها على هيأة كتاب، ذلك أنه كان يقدمها لخيرونة فصلا فصلا، دون أن يضمنها مقدمة أو ديباجة. بيد أن عقيدته هذه، بمجرد أن اكتملت، بدا أنها متميزة بتأليفها المحكم، فلم تلبث حتى ذاع صيتها وانتشرت بين الناس، فسميت بـ"البرهانية".

وقد سميت "البرهانية" كذلك، لاعتماد السلالجي فيها على البرهان العقلي في إثباته العقائد الإيمانية، معززا ذلك بالبيان النقلي من القرآن والسنة.

يقول أبو الحسن ابن مومن تلميذ السلالجي وراوي أخباره: "كان بمدينة فاس امرأة تسمى خيرونة، وكانت من الصالحات القانتات الزاهدات الغافلات المؤمنات، وكانت تعظمه وتوقره وتلزم مجلسه، فرغبت إليه أن يكتب لها في لوحها شيئا تقرأه على ما يلزمها من العقيدة، فكان يكتب لها في لوحها فصلا متى كلفته ذلك، فكانت تحفظه، فإذا حفظته ومحته كتب لها لوحا ثانيا، فكان ذلك دأبها حتى كملت عقيدة وكتبتها وكتبت عنها ولقبت بالبرهانية وصارت بأيدي الناس كثيرا".

بعض المراجع التاريخية تشير إلى أن هذه العقيدة حين وصلت إلى يدي ابن مومن، استشار السلالجي في وضع مقدمة لها، وترتيبها في فصول لتصبح كتابا، غير أن الأخير رفض اقتراحه، خوفا من أن يصبح علمه رياءً فتضيع سمعته.

في ذلك يقول ابن مومن: "فأخذتها،-أي البرهانية،- وقام بفكري أن أرتبها فصولا وأعمل لها شبه الخطبة، ثم شاورته في ذلك فمنع منه وقال لي: لم أعترض فيها أن تكون تأليفا تكتب وتنتشر، وإنما كتبتها لخيرونة خاصة على وجه (كذا)، فإن شاء الله أن تشيع، فاتركها كما هي ولا تزد فيها شيئا فتخرج عما قصد بها"، ثم يضيف: "فتركتها كما هي".

هكذا، وبعدما ظل السلالجي لوقت طويل يكتفي بمجالسه، عنيدا ينأى عن التأليف والكتابة، استطاعت خيرونة ما لم يستطعه أحد غيرها بجعله يعدل عن موقفه، فكان لها الفضل في إذاعة فكر أستاذها العالم في بلاد المغرب. دونها، ما كان ليعرف شيء عن أبي عمرو السلالجي، ولم يكن ليصبح ذا شأن كبير في التاريخ العقدي للغرب الإسلامي.

والواقع أن العقيدة البرهانية، إن كان صاحبها قد شاء لها أن تكون عقيدة خاصة بالمرأة، ذلك أنه كتبها لخيرونة على وجه التخصيص، فإنها مع تعاقب الأزمنة، أصبحت مرجعا لا غنى عنه في المذهب الأشعري، وقد خاضت فيها العديد من الأقـلام بالشروح، حتى إن المذهب الأشعري في المغرب تطور وانتشر بفضلها، حسب ما يشير إليه جمال البختي في كتابه "عثمان السلالجي ومذهبيته الأشعرية".

عكفت خيرونة الفاسية طوال حياتها على تدريس العلوم الشرعية للنساء، بخاصة علم العقيدة. وقد كان يأتي إليها الرجال أيضا يطلبون علمها، فأسهمت بجانب نساء أخريات عديدات، في تعليم المجتمع الموحدي وتثقيفه، إلى أن رحلت عن الحياة ذات يوم من عام 594 للهجرة. لفضلها ومكانتها العلمية والدينية، ووريت خيرونة الثرى بجانب أستاذها السلالجي في باب فتوح بفاس، وحفظ اسمها بمداد من ذهب في سجلات التاريخ المغربي.

الملكة تينهينان... شمسُ الطّوارق التي لم تغرُب بعدُ!

الحديثُ عن المَلِكة تينهينان كالحَديثِ عن الأسطُورة. لم يحدد الرواة على مرّ التاريخ لا سنة ميلادها ولا حتّى متى ترجّلت عن صهوة الحياة. كل ما نعرفهُ ونجدهُ في كتبِ التّاريخ، أنها الأمّ الروحية للطوارق، وأنّها رأس قبائلهم، إذ حكمت في القرن الخامس الميلادي، وكان يرجع إليها القوم أمرهم داخل "المجتمع" الطارقي، الذي لازال يستمدّ السلطة حتى الآن من حِكمة المرأة.

تذهبُ الرواية المتوارثة إلى القول بأنّ والدها قرر تزويجها بأمير إفريقي غصباً، فأعلنت رفضها وثورتها، ثم ولّت وجهها هاربةً على رأس مجموعة من الجنود بصحبة خادمتها، والتي اعتبرتها ثُلّةٌ من الروايات أختها، "تاكامات" صوب ضواحي تمنراست. ولكن...

على ما يبدو، لم يكن أحدٌ من النّاس، وقتذاك، يعي أن هذه الطّريدة المذعورة، والمرأة الهاربة بحثاً عن السّلام والحُرّية، ستغدو ذات شأن عظيم، وسيُنصفها التاريخ، لكي تبحث مرايانا في سيرتها!

تقُصّ الحكاية أن السفر من تافيلالت بالجنوب الشرقي للمغرب الأقصى، كان على متن ناقة بيضاء. لذلك سُمّيت تينهينان بـ"صاحبة الناقة البيضاء".

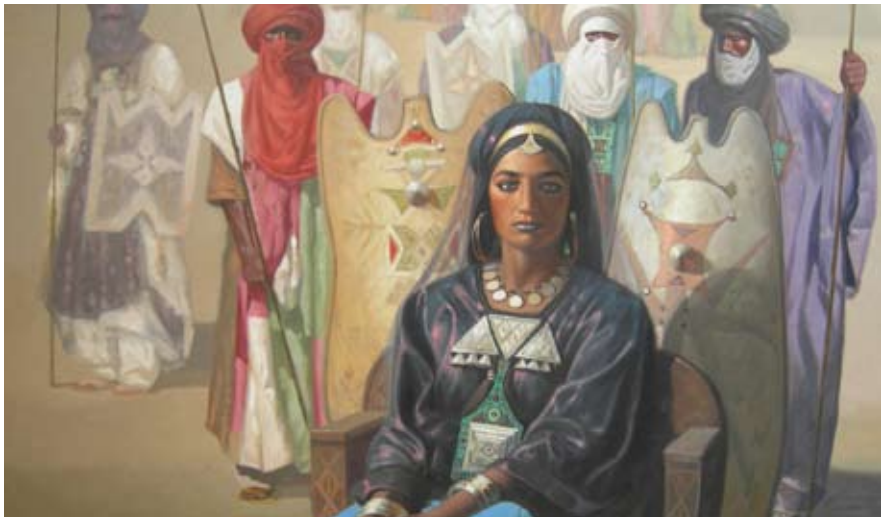

طالت تلك الرّحلة من تافيلالتْ بالرّكب، و"كادَ يهلَكُ جوعاً وعطشاً في "بِيد دونَها بيد"؛ وفي فيافي خالية، لا تَعْوي بها غير الرياح؛ لولا أن الخَادمة تفطّنت إلى مملكة نمل تسيرُ في وجهتها، محمّلة بما تختزنه لشتائها"، على حد تعبير الباحث رمضان مصباح الإدريسي. أمرت تينهينان القافلة بالسير عكس اتّجاه النمل، حتى وصلوا إلى جبال "هقار" في أقصى الجنوب الجزائري، حيثُ عثَروا على المياه والطعام، فاستقرت هناك وتمكّنت أن تنتزعَ ودّ الساكنة، لحصافتها وحنكتها وحُسنها، ولتبدأ بتشييد نواة مملكتها الجديدة.

سرعان ما أصبحت أول ملكة من سكان الصحراء، وبسطتْ مُلكها على من باتوا يُعرفون باسم الطوارق.

كانت مملكةُ تينهينان تمتدّ من صحراء ليبيا إلى التشاد، ومن الجزائر إلى مالي، ومن النيجر إلى موريتانيا، وهو ما يعادل مساحة ثلث القارة الأفريقية؛ وتنحدر من مملكتها جل قبائل الطّوارق الموجُودة حالياً.

عُرف عنها كونها صاحبةُ حكمةٍ ودهاء، فأدخلت تقاليد جديدة على مملكتها، لاسيما العمل وتخزين الخيرات لوقت الشّدة، والاستعداد الدائم "لقهر الغزاة القادمين من الشّرق"!

"كانت ملكة متفردة، فالأساطير والآثار أثبتت أنها كانت تدافع عن أرضها وشعبها ضد الغزاة الآخرين من قبائل النيجر وموريتانيا الحالية وتشاد. وقد عرف عنها أنها صاحبة حكمة ودهاء، نصبت ملكة بسبب إمكانياتها وقدراتها الخارقة للعادة"، هكذا تحدّث عنها عبد الله هسوف، في كتابه "الأمازيغ: قصة شعب".

اسم تينهينان، وفق المرويّات، مركّب من جزأين: "تين" و"هينان"، وهي لفظة من لغة "التاماهاك"، تعني "ناصِبةُ الخيام"، هذا ما دفع المؤرخين إلى الاعتقاد بأنّها أن كانتْ كثيرةُ السّفر والتّرحَال. [1]

أكثَر من ذلك، يُقال إنها ساهمتْ في الدّفع بقدرة النّساء على أن يتدخّلن في الشؤون العامة للمجتمع الطارقي، وأن يُسيطرن على التّجمعات القبلية. ويتجلّى ذلك بوضُوح في قدرتهنّ، كما يُحكى، على مناقشة وإدارة دفّة الحرب والسّلم؛ وحتّى حين يُنتخبُ رجلٌ على رأس القبيلة، فما هو إلاّ ممثّل للملكة تينهينان.

كان المجتمع الطارقي أميسيّا، يأخذُ فيه الرّجال والنساء نسبهم من الأم وليس من الأب، وكان هذا السببُ كافياً ومنطقياً لتعتَبرَها الدّراسات التّاريخية أمّاً روحيةً للطوارق.

كانت التّجارة، بدورها، من الأشياء التي كانت في صلب اهتمام الملكة الأمازيغية، إذ أقامت علاقَات مع قبائل جنوب الصّحراء، ما عضّد استمرار مملكتها وضمان بقائها على قيدِ الحياة.

أضِف إلى ذلك، أنّ مُجوهرات الحلي والإكسسوارات الفضية أو المذهّبة التي ترتديها نساء الأمازيغ، إلى اليوم، كانَت مستمدّة من أذواق تينهينان، وفق بعض المراجع.

تزوجت تينهينان وأنجبت أولاداً وبناتاً أشهرهم "أهقار"، الذي تنسُبُ له المحكياتُ أصل ارتداء اللثام من طرف رجال الطّوارق، بسبب هروبِهِ من إحدى المعارك. وهو في طريقِ العودة، أحسّ بندمٍ شديدٍ بعد أن تنبّه أن ذلك الصّنيع لا يليقُ بقائدِ جيش وابن المَلكة تينهينان، "فبقي مُرابطاً بجيشِهِ على مشارف الدّيار مدّة شهر كامل لا يستطيع الدّخول مخافةَ ملامة النسوة له. ولمّا طال بهم الحالُ ونفد ما معهم من زاد، وجدوا أنفسهم مجبرين على دخول الدّيار، فما كان من القائد سوى أن يغطّي وجههُ الذي يحملُ ملامح العار وكذلك فعل بقية جنده، وبقوا على تلك الحال طيلة حياتهم، وكذلك فعل من جاء بعدهم، حتّى أصبح الأمرُ تقليداً مفروضاً إلى يومنا هذا"، كما يقولُ عبد الله هسوف.

المؤرخ ابن خلدون، لمّا تحدّث عن الطّوارق، وصفهم بأنهم "أبناء تيسكي"، ويعني أبناء المرأة العرجاء، وهذا يتطابق مع ما توصلت إليه أبحاث الحُفريات، التي أفادت أن تينهينان كانت عرجاء. قالت الكثير من الرّوايات أن تينهينان كانت مسلمة؛ لكن الكشف عن بقايا جثّتها أظهر طريقةً في الدفن تتعارض مع الطريقة الإسلامية "الصّارمة"، حيثُ وُجدَت جثتها ملقاة على ظهرها، ويتوجه وجهها نحو الشّرق على لوح خشبي، بينما الكيفية الإسلامية، وفق المذاهب الأربعة، كانت تحثّ أن بعد دُخول الميّت القبر، يُوضع على شقه الأيمن استحبابًا، ويجب أن يوجّه وجهُه إلى القبلة.

بالمناسبة، لم يُعرف المكان الذي دفنتْ فيه الملكة تينهينان إلا في سنة 1925، من طرف بعثة فرنسية أميركية مشتركة في "أباليسا" بالهقار، جنوب الجزائر.

هيكلها بيّن أنها كانت امرأة طويلة ورشيقة، وأنها كانت عريضة الأكتاف وذات ساقين نحيفين. ويستعرض متحف باردو في الجزائر قبر الملكة ومجوهراتها وحتى هيكلها العظمي.

كما عُثر، بجانب الهيكل الخاص بالملكة تينهينان، على جملةٍ من التّحف الثمينة والمجوهرات النّادرة. تمّ نقلُها إلى الولايات المتّحدة بغَرض العَرض، لمدّة خمس سنوات، قبل أن تعود ثانية إلى الجزائر وتُعرض بذات المتحف، أي "باردو".

ظلت تينهينان بمثابة شمس لا تغربُ إطلاقاً بالنّسبة للطّوارق، فمن الصّعب بمكان، إن لم نقُل من المُستحيل، أن تجد طارقياً لا يعرفُ سيرتها وقِصّتها... وإلى اليوم، يتمّ تكريمُ تينهينان، عبر الاحتفال بمهرجان يحمل اسمها في الجزائر. ولكن... الأمر الأجدر أن يُحتَفى بِه، ربّما هو...

إيقاف تزويج الإناث بالغَصب في تافيلالت، الذي يستمرّ إلى اليَوم بالجنُوب الشرقي، والذي ثارت من أجله تينهينان منذ أزيد من خمسةَ عشر قرناً...

[1] **خليفي عبد القادر، طوارق الجزائر: الخصوصيات الأنثروبولوجية و السوسيوثقافية.**

السيدة الحرة
حاكمة تطوان وأميرة الجهاد البحري!

في زمن كان فيه حكم المرأة لدى المسلمين غير مألوف، اعتقادا منهم أن الدين لا يستحب ذلك، ظهرت امرأة تسللت، بفضل ذكائها وحنكتها، إلى القلوب وغمار السياسة. فلما رأى الناس في تطوان وشفشاون سديد حكمها، رأوا أن تظل حاكمة عليهم؛ فأدت واجبها على نحو منقطع النظير مع أن الوضع الداخلي وكذا الخارجي، كان مستعرا؛ وظلت الحاكمة لما يربو عن 30 سنة، حتى جاءت النهاية غير المتوقعة...

وهذه... بعض من سيرة امرأة اسمها، السيدة الحرة، حاكمة تطوان، وأميرة الجهاد البحري!

مع أن المصادر التاريخية التي تؤرخ لحكم ولسيرة السيدة الحرة ضئيلة، حتى إن البعض اعتبر ذلك إجحافا في حق امرأة كان لها شأن عظيم، إلا أن بعضها يؤكد أنها ولدت في القرن الخامس عشر للميلاد، تحديدا عام 1485.

يحكى أن اسمها الحقيقي عائشة، وهذا مما جاء في بعض المرويات الأجنبية التي أخذت عنها المصادر العربية لاحقا، وأن أمها كانت من الأندلس، مسيحية ثم دخلت الإسلام فصارت تدعى لالة زهرة، ليتزوجها مولاي علي بن راشد، فولدت له ابنا اسمه مولاي ابراهيم أصبح فيما بعد حاكما لشفشاون، وابنة اسمها عائشة أصبحت فيما بعد تلقب بالسيدة بالحرة، وحكمت تطوان فترة من الزمن.

وتأكيدا لوجود السيدة الحرة، فقد جاء في كتاب "دوحة الناشر" لابن عسكر، تعريف بأحد الجواسيس، تمت الإشارة فيه إلى السيدة الحرة: "... وجدوا هذا الرجل على ساحل البحر بمقربة

سبتة، فظنوا أنه من الجواسيس الذين يترددون من بلاد الكفر، فسألوه عن أمره فتكلم بكلام لا يفهمونه فقبضوا عليه، وأتوا به إلى تطوان في ولاية الحرة بنت علي بن راشد".

كانت بين بني راشد، الذين حكموا شفشاون وقبائلها المجاورة، وآل المنظري وأندلسيي تطوان، الذين نزحوا من غرناطة، علاقة متينة، أدت إلى التعاون بينهما، بل وإلى المصاهرة بينهما.

المنظري كان حاكما لتطوان، وأصبحت السيدة الحرة زوجة له عن عمر الـ16، رغبة في توحيد جبهة القتال بين تطوان وشفشاون ضد البرتغاليين، وكان حين يغيب إذ يخرج إلى حروبه مع الإفرنج، تنوب عنه زوجته، رأيا وإشارة، لما رأى فيها الناس من بعد نظر ورأي سديد وتدبير حسن.

ثم حين مرض وتوفي المنظري حاكم تطوان، ظلت زوجته السيدة الحرة على سدة الحكم، قابضة عليه، فقد كانت متنفذة ولها جاه عظيم، ناهيك عما وجده الناس فيها من حزم ودهاء وحسن سياسة، مع أن ولاية المرأة كانت حينذاك، وإلى اليوم لدى عموم المتطرفين، أمرا غير مستحب لدى المسلمين.

المراجع التاريخية تذكر أن السيدة الحرة -ولقبها هذا جاء لكونها امرأة نبيلة ومتميزة- تزوجت بعد وفاة زوجها بالسلطان أحمد الوطاسي، حاكم فاس، لتصبح حينذاك أكثر تنفذا، إذ لم يقتصر

> **زواج السيدة الحرة من السلطان الوطاسي، أغضب كثيرا آل المنظري، عائلة زوجها الأول، إذ رأوا أنه لا يصدق أن تتولى حكم تطوان وهم بعد في الوجود. هكذا، دبروا مؤامرة للانقلاب عليها، بقيادة حفيد المنظري حاكم تطوان فيما قبل، بجانب والده محمد الحسن، الذي جاء من فاس إلى تطوان.**

حكمها بعدها على ما داخل أسوار المدينة، إنما طالها إلى الخارج، حيث أصبحت تعرف بأميرة الجهاد البحري.

ذات المصادر أكدت على أنها كانت تروع البحار، فقد كانت تمارس القرصنة/المقاومة في غرب البحر الأبيض المتوسط، واستطاعت أن تبني علاقة متينة مع القرصان التركي باربا روسا في شرق المتوسط، فكان ذلك فاتحة لعداوة الإسبان والبرتغاليين أساسا، والذين احتلوا سبتة آنذاك.

لم يكن ذلك ترفا، فالوضع السياسي آنذاك في غرب البحر الأبيض المتوسط كان يفرض "الجهاد البحري". استطاعت السيدة الحرة، بدعم من زوجها، فرض رقمها في معادلة القرصنة في ذلك الزمن. بيد أنه، بالرغم من نجاحها في ذلك، كان الوضع الداخلي يعجل بنهاية غير متوقعة.

جاء في كتاب "مرآة المحاسن" لصاحبه العلامة سيدي العربي الفاسي: "ولما كان خروجه (أي السلطان الوطاسي) الذي وصل فيه إلى تطوان وتزوج بها الحرة بنت الأمير السيد أبي الحسن علي بن موسى بن راشد الشريف[...]، قال الشيخ قاضي الجماعة أبو محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي رحمه الله فيما قرأته بخطه "وتزوج السلطان الحرة في ربيع الأول عام 948هـ (1541م) وبنى بها ببلد تطاون".

زواج السيدة الحرة من السلطان الوطاسي، أغضب كثيرا آل المنظري، عائلة زوجها الأول، إذ رأوا أنه لا يصدق أن تتولى حكم تطوان وهم بعد في الوجود. هكذا، دبروا مؤامرة للانقلاب عليها، بقيادة حفيد المنظري حاكم تطوان فيما قبل، بجانب والده محمد الحسن، الذي جاء من فاس إلى تطوان.

بعض المصادر الأجنبية ذكرت أن محمد الحسن المنظري فر من فاس، من السلطان أحمد الوطاسي، عام 1542، بسبب بعض الخلافات العميقة، وشد الرحال إلى تطوان حيث كانت الحاكمة هي السيدة الحرة، فبلغها في جماعة من الفرسان، ثم بعد يومين من وصولها، نصب نفسه حاكما على المدينة، طاردا السيدة الحرة، مستوليا على ممتلكاتها.

لكن، أين زوجها، حاكم فـاس، من كل ما حدث؟

في الواقع هذا سؤال يفرض نفسه بقوة، وقد حاولت بعض الكتب التاريخية أن تجد له جوابا، فمنها ما أورد أن السلطان كان قد طلق السيدة الحرة مع أنه لم يثبت ذلك، ومنهم من قال إن زواجه منها في الأصل كان سياسيا، ذلك أنه كان يود توطيد علاقته بالشمال، بعدما بدأ السعديون يحاولون بلوغ الحكم، وقد كان مشغولا بصراعهم فيما بعد، فاستغل المنظري ذلك.

هكذا كانت نهاية حكم السيدة الحرة، الذي دام من 1510 إلى 1542؛ أي 32 عاما، غير متوقعة ومفاجئة، بحيث استرجع آل المنظري حكمهم على تطوان ونواحيها، وأصبح محمد الحسن المنظري رابع رجالات العائلة الذين تبوؤوا الحكم على المدينة.

السيدة الحرة، كما يروى، عادت إلى بيت عائلتها في مدينة شفشاون، واستسلمت للأمر الواقع، وظلت منعزلة، حتى وافتها المنية في ذات العام؛ أي 1542، فدفنت هناك ليظل قبرها إلى اليوم، مزارا لعدد كبير ممن يتيمنون بسيرة حياتها، كامرأة رمز للتفاني والحكم السديد.

الكد والسعاية...

ابن عرضون، الفقيه المغربي الذي أفتى بحماية حقوق النساء وتحصينها ضد العنف الاقتصادي!

أحياناً، قد نتساءلُ ببراءة: بعد الطلاق أو وفاة الزوج، هل يمكنُ أن يضيع حق الزوجة في مال زوجها وهي قد أسهمت بكدها وجهدها وسعيها ومالها ووقتها في تنميته وادخاره؟
عادةً... في محاولة الإجابة على هذا السؤال، يصطدمُ الأفق الحقوقي للعلاقة بين الرجل والمرأة مع الشعور الديني المؤطر لهذه العلاقة... فتضيعُ حقوق المرأة...
لكن، هل سمعنا من قبل بنظام الكد والسعاية الذي يحفظُ هذا الحقّ من الضياع؟

لم يكن أحد يجرؤ، خوفاً من حراسّ التراث وأنصار الشريعة بتأويلاتها السلفية، على فتح هذا الباب الذي ينصفُ المرأة ويعيدُ لها حقّها، قبل ابن عرضون، عبر فتوى الكد والسعاية...

ابن عرضون اجتهد وأفتى...وسكّان مناطق سوس في جنوب المغرب، استلهموا هذه الفتوى، ذات النفس الحداثي، وأطلقوا عليها حق "تامازالت" أو "تيغراد". هذه اللفظة الأمازيغية تعني "حق السعاية والجهد والعمل"، وأضحى لها حضور قوي في فتاويهم وأقضيتهم...

الأصل الفقهي...

لعلّ أوّل من أفتي بـ"الكد والسعاية" هو الفقيه المالكي أحمد بن عرضون، في القرن ١٥هـ/16م، عندما آمن الفقيه المغاربي بحق السعاية للزوجة ونصيبها من مال الأسرة بالتساوي.

لكن، مع ذلك، يصر الكثيرون على أنّ هذه الفتوى كانت إحياءً لفتوى عمر بن الخطّاب في تظلّم حبيبة بنت زريق، التي عتّم عليها الفقهاء من القرن الأول الهجري إلى آخر القرن العاشر الهجري.

ليست الغَايةُ التأصيل في حد ذاته، وإنما تسعى "مرايانا" إلى إحياء هذه الفتوى في زمن لم يكن يذكر فيه مثل هذا الاجتهاد الذي يخرج المرأة من وضعها الدوني؛ بل غاية ما وجد صون عرضها وشرفها تحت سلطة زوج يحميها ويقوم عليها. أمّا أن يتحدث عن أموالها وتدبير شؤونها، فقد كان ذلك صعباً. بل أنه، إلى اليوم، لازال فكر الكثير من الأصوليين متصلّباً يأبى الاعتراف بأهمية هذه الفتوى.

لا شكّ أن هذه الفتوى لقيت، وفق المؤرخين، معارضة الفقهاء المعاصرين لابن عرضون، واعتبروها "فتوى شاذة"، وأنّ الفرائض قد قسمها المولى بنفسه من فوق سبع سماوات، فلم يبق فيها نظر ولا اختيار... لكن، لِم يَسْعَ الفقهاء إلى تحجيم هذه الفتوى واعتبارها تتنافى مع الشّريعة؟

المهدي الوزاني في نوازله المسماة "المعيار الجديد الجامع المعرب من فتاوى المتأخرين من علماء المغرب"، ينتصر للفتوى ويرد على منتقدي "ابن عرضون" بكونهم لم يفهموا مراده من القسمة، وأنّه ليس المقصود منها نقض الفرائض وأحكام الإرث والتطاول على تركة الهالك، بل معناه أنّ الذين يخدمون الثروة يأخذون منها بحسب جهدهم وعملهم، وما بقي فهو للورثة والزوجة منهم، وكل ذلك داخل في ما

شرط الفقه من تصفية التركة قبل القسمة، من زكـاة وديــون ومـصـاريـف الـدفـن والوصية وغيرها...

عرفٌ يدخلُ القانون...

الراحل الحسين الملكي، أحد أكثر الحقوقيين الذين اشتغلوا على حق الكد والسعاية في ثلاث مؤلفات منذ بداية الألفية الثالثة، يعتبرُ بأنّ هذا الحقّ من شأنه، ليس فقط تكريس مبدأ المساواة في توزيع الثروة الأسرية؛ أي ما راكمته المرأة إلى جانبِ زوجها منذ عقد قرانهما إلى غاية الطلاق أو وفاة زوجها؛ بل أيضاً له القدرة على الحد من عدة ظواهر تـؤرقُ الأسر المغربية، كظاهرة الطلاق غير المسؤول، ظاهرة زواج النزوة والمصلحة، ظاهرة تشريد المطلقات والأبناء، ظاهرة تعدد الزوجات بدون مبرر شرعي، ظاهرة العنف ضد الزوجات لأسباب اقتصادية ومالية...

الحسين الملكي، المتخصص في نظام الكد والسعاية، في مقال له بعنوان: "الكد والسعاية: قواعد مستخرجة من أحكام القضاء الشرعي"، يشيرُ فيه إلى عشرين مِلفاً يخصّ هذا الموضوع، تؤرّخُ بين 1959 و1960، ليبيّن أن الاجتهاد القضائي

> **المدونة تضمنت مجموعة من المقتضيات الجديدة، كان من أهمها معالجتها لمسألة التدبير المالي للأموال المكتسبة بين الزوجين أثناء العلاقة الزوجية، سواء في حالة الاتفاق أو غيابه؛ وذلك من خلال المادة 49 التي اعتبرها البعض تكريساً تشريعيا لحق الكد والسعاية... هذا الأمر يجعلنا نطرح التساؤل حول إمكانية تبني المادة 49 كأساس لمفهوم الكد والسعاية**

بسوس متجذّرٌ منذ نهاية الخمسينيات وما قبلها وأيضاً ما بعدها...

الملكي يعتقدُ أن النظرة الإقصائية السلبية أصبحت متجاوزة بعد صدور قانون مدونة الأسرة الجديد 70.03 وأساساً المادة 49 منه، التي صيغت الفقرتان الأولى والأخيرة منها، بشكل جعلهما متضمنتان للعناصر الأساسية لنظام الكد والسعاية إن لم نقل للنظام برمته، تحت تسمية عصرية هي" الأموال الأسرية".

الباحث في القانون الخاص بسلك الماستر، عمر المزكلدي، والذي اشتغل على نظام الكد والسعاية، يرى بأن صدور المدونة الجديدة للأسرة، بعد سنوات من النقاش حول إشكالية تعديل مدونة الأحوال الشخصية، اعتبره العديد من رجال القانون وغيرهم، حدثا قانونيا بارزا، نظرا لما تكرسه من ثورة إصلاحية، تعد الأكثر عمقا في المجتمع المغربي منذ الاستقلال، وما تمنحه من حماية قانونية وقضائية لمؤسسة الأسرة بمختلف مكوناتها، على أسس من العدل، والمساواة، ومراعاة لمقاصد الشريعة وأحكامها...

هذه المدونة تضمنت مجموعة من المقتضيات الجديدة، كان من أهمها معالجتها لمسألة التدبير المالي للأموال المكتسبة بين الزوجين أثناء العلاقة الزوجية، سواء في حالة الاتفاق أو غيابه؛ وذلك من خلال المادة 49 التي اعتبرها البعض تكريساً تشريعيا لحق الكد والسعاية... هذا الأمر يجعلنا نطرح التساؤل حول إمكانية تبني المادة 49 كأساس لمفهوم الكد والسعاية.

الكد والسعاية... نظام قد يكون مدخلاً لإقرار المساواة في الإرث

حميد أيت علي، الناشط الأمازيغي، يفكّكُ لـ"مرايانا" معاني تامازلت، فيقولُ بأنّه عرفٌ أمازيغي مشتق من كلمة "تـازلا" أي الكد والسعي من أجل العائلة والأسرة؛ ويمكن تفسيره بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية للأسرة. إمازلن هم الأشخاص الذين يقومون بمجهود مادي ومعنوي بغية استقرار العائلة وتغطية احتياجاتهم...

دعوة لا يزال صداها يتردد في بيوت وأرض الأمازيغ في كل وقت وحين: "أديعاون ربي إمزلن"...

حياة مشنان، رئيسة جمعية صوت المرأة الأمازيغية، في حديث مع "مرايانا"، تعتقد أن تمازلت، أو ما عرف عند الفُقهاء بالكد والسعاية، خيار هام للحفاظ على حقوق المرأة الاقتصادية والاجتماعية وحمايتها من العنف الاقتصادي الذي قد يمارسُ عليها داخل الأسرة...

لا تكتفي مشنان بهذا الاعتقاد، بل تدفعُ إلى الواجهة بكون الجمعية قامت بدراسة، وتبين أنّهُ عندما كان الأمر عرفاً، كان عملياً ومعمولاً به؛ وعندما غدا مدوّناً في قانون الأسرة، سيما المادة 49، لم تعد محاكم أو قضاء الأسرة تعتمد عليه كثيراً...

ثمّة قصور من ناحية التعامل مع الكد والسعاية في القضاء المغربي، حسب مشنان، لأن المرأة هي التي تُطَالَب بإحضار وسائل الإثبات كونها شريكة ومساهمة في الثروة العائلية بعد انقضاء العلاقة الزوجية سواء بالطلاق أو بهلاك الزوج؛ بينما... روحُ عرف تمازلت أبعدُ من ذلكَ وأكثرُ إنصافاً، تقولُ المتحدثة، فهو حريصٌ في جوهره على أن كل ما هو مكتسب منذ اليوم الأول من الزواج، فهو يدخلُ ضمن الكد والسعاية... المرأة تساهم في تنمية اقتصاد الأسرة بتربية الماشية والعمل في الحقول وجمع المحاصيل، وهذه أعمال تقوم بها دون أجرة، بينما يكون مجرد القيام بها كافيا لمعرفة أنها مساهمة في بناء الثروة الأسرية...

دراسة أعدتها جمعية "حقوق وعدالة" بشراكة مـع مجموعة مـن المؤسسات، ونوقشت مضامينها قبل سنة، دعت إلى تعديل المادة 49 من مدونة الأسرة، بالشكل الذي يتضمن صراحة التنصيص على لزوم تقييم العمل غير المثمن وغير المأجور الذي تقوم به المرأة، سواء في المنزل أو خارجه، في تحديد ما ينوبها من نصيب في الممتلكات المكتسبة أثناء الزوجية...

نحو العالمية...

لاتخفي الكثير من البلدان العربية انبهارها بقيمة العدل التي يضمنها ما وصفة الفقهاء بحقّ الكد والسعاية...

فقبل سنةٍ، دعا أحمد الطيب، شيخ الأزهر، إلى تنظيم مؤتمر تُدْعَى فيهِ المجامع الفقهية، من أجل تدارس اعتماد فتوى للفقيه المغربي ابن عرضون اصطُلِح على تسميتها بـ"حق الكدّ والسعاية"، وأفتى فيها هذا الأخير، في القرن السادس عشر الميلادي، بأن للمرأة الحق في نصف ثروة زوجها ثم يكون النصف الآخر للميراث... كان هذا جوابا، بعدما سُئل عن نصيبِ الزوجة من المال والثروة التي شاركت في تكوينها مع الرجل، بعد وفاته أو تطليقها، إذا كانت من النساء اللائي يخرجن مع أزواجهن إلى الحقول ويزرَعن ويحصدن وتكون أيديهِنّ بأيدي الرجال...

بعض الفقهاء لاحظوا أن الكد والسعاية لا يمس بقداسة الإسلام ولا يضر عقيدته، بل بالعكس ينتصرُ لمقاصده، وهو ما جعل تعديل نظَام الإرث في شموليته منسجماً مع تلك المقاصد الإسلامية...

الباحث عبد الرحيم عنبي ينحازُ إلى أن بقاء هذه الأحكام، والتي تجعل من المرأة الحلقة الضعيفة في الولوج للملكية، مشروطة ببقاء تلك الأحوال التي كانت تسود في بيئة شبه الجزيرة العربية... مؤسسة النوازل الفقهية يمكنها، إذن، أن تلعب دورا أساسيا في الجواب عن العديد من القضايا المطروحة في باب الإرث، قياساً على مبدأ الكد والسعاية...

كخُلاصة، قد يكون هذا الملف حاول، كما قال الحسين الملكي، توضيح خطأ الرأي الذي يذهبُ بدون تحفظّ إلى أنّ عمل المرأة المنتج، سواء داخل إطار الأسرة أو خارجه، لا يرتبط بأي مقابل في تكوين ثروة الأسرة...

فهل يمكنُ أن يكون هذا مدخلاً لإحقاق المساواة في الإرث بين الجنسين؟

أحمد ابن عرضون... الفقيه المالكي الذي أعاد للمرأة حقها!

كانت الثّقافة الفقهية في القرن العاشر الهجري، وكما هي مستمرة اليوم للصدفة!، قد اطمأنت لما جاء به السلف. وكان العقل العربي شبه مستقيل، فبلغت حالة الركود أوجَها، بفعل الضّعف الذي أصاب الحياة الفكرية عموما حينئذٍ، لا سيما الجانب الفِقهي...

لم يكن الأمر يتعلّق بالمغرب فقط، وفق المَرويات، بل شمل سائر أقطار العالم الإسلامي؛ إذ أصبح فقهاء هذا العصر، يقفون عند ما انتهى إليه سابقوهم... يكتفون بما قالوه، ويقبلونه على علاته. لا يعملون فكرهم، ولا يبحثون لأنفسهم عن الخروج من حالة التقليد إلى ميدان التطور والتجديد... ولكن!

ابن عرضون خرج من رحم تلك الفترة، فخرج عن الثابت والمألوف وحاول أن يستخدم عقله في حدود الشرع، دون أن يبخس المذهب المالكي حقّهُ؛ فأفتى بما يلزم من التطورات الحاصلة في تلك الفترة، مع مراعاة حقوق الكل بالتساوي، رجالاً ونساءً...

فمن هو ابن عرضون الكبير الذي أعاد للمرأة حقها؟

مرايانا في هذا البورتريه تنبشُ في سيرة الفقيه...

المخاض الأول...

هو أبو العباس أحمد بن الحسن بن يوسف بن عمر بن يحيى، المعروف بابن عَرضون، الزّجَلي، المُوسوي، الصّالحي، المغربي، المالكي...

ولد الفقيهُ ابن عرضون الكبير بقرية تلمبوط التابعة لإقليم شفشاون شمال المغرب... وعُيّن قاضياً في شفشاون فيما بعد...

بخصوص تاريخ مولده، فلم تُسعف المصادر في تحديد زمن ولادة ابن عَرضون، في حين خَلُص الأستاذ عمر الجيدي في بحثِه إلى أنه وُلد عام 947هـ...

ترعرع ابن عرضون في وسطٍ عائلي ذِي عِلم ورفعة وضلوع في الدّين في ذلك الوقت؛ فهو ابن أبي علي الحسن بن يوسف، الذي كان عالماً فاضلاً، له أجوبة في الفقه تؤذن باتساع مداركه في العلم، وأخوه أبو عبد الله محمد، تولى القضاء بعده بشفشاون، وله تقاييد في الفقه والتوحيد.

ابن عرضون سيترجّل عن صهوة الحياة سنة 992 ه الموافق 1584 م، مخلّفاً زخماً من الكتب، من أهمها "التقييد اللائق بمتعلم الوثائق"، و"مقنع المحتاج في آداب الأزواج".

عدد كبير من الطلبة، تتلمذوا على يديه. وإن كان لم يتول مهمة التّدريس، فإن المصادر تذكر من بين من أخذ عنه وتأثّر به واستفاد من علمه ولده محمد، والقاضي أبو عبد الله محمد مخشان، وأبو سالم إبراهيم بن عبد الرحمن الجلالي، وغيرهم...

ابن عرضون الكبير والفتوى وفقه النوازل...

ابن عرضون، وفقَ كتاب ابن عرضون الكبير حياته وآثاره، عرف بقوة العقل ومضاء الذاكرة، فلم ينفض يده من النص ولم ينسلخ من المذهب، ولكنه كان يعرف كيف يقارن، وكيف يراعي الأصلح، متماشياً مع الشريعة... لا يهمل العُرف والعادات التي لا تمسّ جوهر الدين، ولا العقيدة، فابتعد أحيانا عن المشهور، وأفتى بـ "الشاذ" متى كانت المصلحة تقتضِيه...

عمر الجيدي يضيف في الكتاب، أن ابن عرضون الكبير كان يتعامل مع "الشاذ" متى كان هو الأليق

رغم أن تلك الفتوى قد أثارت الكثير من الاعتراضات من جانب بعض الفقهاء وقتها، يضيف رفيقي، إلا أن المجتمع الأمازيغي السوسي قد تقبّلها، ووضعها موضع التطبيق، بحيث صار معمولاً بها، ونُقلت أحكامها إلينا عبر ألواح جزولة...

كما ذهبَ بعضُ الباحثين إلى أنّ هذه الآثار العلمية تعبر عن مذهبه الإصلاحي الذي اهتم بخدمة قضايا مجتمعه؛ عبر النفاذ إلى قلبه ولبنته الأولى؛ "الأسرة"، في محاولة رد الاعتبار للمرأة البدوية والحرص على إعادة الحياة لبيت الزوجية...

من غيره، وقضى الشاذ وشهره، وهو في كل ذلك معترف بأنه لا يمس مذهب الإمام مالك، ولا يعترض عليه، ولا ينقص من قيمة صاحبه، وإنها هي أحكام كان يصدرها حسب ما تتطلبه المصلحة، وحسبما يتفق ومستوى العصر الـذي عاش فيه...

لم يتوقف ابن عرضون عند هذا الحد من تشهير ما اعتبر شاذا، أو الفتوى بما في خارج المذهب؛ بل أنه، وفق الجيدي، أفتى بشيء ما سبقه إليه أحد، وهي الفتوى التي حيرت العلماء وأدهشتهم، وهي قضية المرأة عندما أعطاها قسمة مساوية للرجل في العمل، وهو ما يسمى بحق المطلقة أو الأرملة في الكد والسعاية...

لقد سبق هذا العالِم والفقيهُ مدوّنة الأسرة منذ قرون وأعطى للمرأة الشفشاونية عامة والغمارية على الخصوص، الحق في مطالبة زوجها بعد طلاقها، بنصف ما يمتلك نظير ما ساهمت به من مجهود بدني في غناه...

فتوى الكد والسعاية...

في فتوى "الكدّ والسعاية"، يقول ابن عرضون من القرن العاشر الهجري، إن المرأة إذا مات زوجها تأخذ نصف التركة ثمّ الباقي يقسّم إرثاً، وذلك بحكم مشاركتها وسعيها وكدّها في تحصيل هذه الثروة.

أبو الحسن العلمي يقول في كتابه "النوازل"، إن ابن عرضون سُئل "عمن تخدم من نساء البوادي خدمة الرجال من الحصاد والدراس وغيرها، فهل لهن حق في الزرع بعد وفاة الزوج لأجل خدمتهن أو ليس لهن إلا الميراث؟ فأجاب: الذي أفتى به القوري مفتي الحضرة الفاسية أن الزرع يقسم على رؤوس ما نتج عن خدمتهم، زاد عليه مفتي البلاد الغمارية جدنا للأم أبي القاسم بن خجو على قدر خدمتهم، وبحسبها من اتفاقهم أو تفاوتهم، وزدت أنا لله عبد بعد مراعاة الأرض والبقر والآلة، فإن كانوا متساويين فيها أيضا فلا كلام، وإن كانت لواحد حسب له ذلك".

بحسب ما يذكرهُ الباحث عبد الوهاب رفيقي في تصريحه لأحد المواقع الالكترونية المغربية، فإن الواقع والعُرف الأمازيغي الذي كانت فيه المرأة تشارك زوجها في جميع أعباء الحياة، وتقاسمه في المشقة والجهد، قد انعكس على الرأي الفقهي السائد، من خلال فتوى ابن عرضون التي قال فيها إن المرأة اذا مات زوجها، تأخذ نصف التركة ثمّ الباقي يقسّم إرثاً، وذلك بحكم مشاركتها وسعيها وكدّها في تحصيل هذه الثروة....

ورغـم أن تلك الفتوى قد أثـارت الكثير من الاعتراضات من جانب بعض الفقهاء وقتها، يضيف رفيقي، إلا أن المجتمع الأمازيغي السوسي قد تقبّلها، ووضعها موضع التطبيق، بحيث صار معمولاً بها، ونُقلت أحكامها إلينا عبر ألواح جزولة...

كما ذهبَ بعضُ الباحثين إلى أنّ هذه الآثار العلمية تعبر عن مذهبه الإصلاحي الذي اهتم بخدمة قضايا مجتمعه؛ عبر النفاذ إلى قلبه ولبنته الأولى؛ "الأسرة"، في محاولة رد الاعتبار للمرأة البدوية والـحـرص على إعـادة الحياة لبيت الزوجية...

ما بعد الفتوى!

فتوى الكد والسعاية عارضها بشكل شديد أهل فاس كما تروي كتب التاريخ...

حركت هذه الفتوى مدرسة النوازل الفقهية من جديد في المغرب آنذاك، وحدثت اختلافات عميقة، في اعتقاد المعارضين لها، الذين اعتبروها... فتوى تتعارض مع شرع الله والتأصيل السماوي للإرث، وأن الزوجة لا نصيب لها إلا ما أقرّهُ نظام الإرث في الإسلام...

أهل فاس، وفق ما أوردهُ عمر الجيدي في كتاب ابن عرضون الكبير: حياته وآثاره، آراؤه وفقهه، ولو بعد حين، زاروا ضريح عبد السلام بن مشيش؛ دفين جبل العلم، ومروا في رحلتهم بشفشاون التي كـان ابـن عرضون قاضيا بها؛ لملاقاته ومناقشته في فتواه المستحدثة، وسألوه عن القضية، فما أجابهم بشيء.

بل طلب منهم الانتظار...

وبينما هم كذلك، إذ مر فوج من النساء، وهن حاملات أثقالا على ظهورهن – كعادتهن – من حطب وأنواع أخرى من الأثقال. فقال لهم: ما رأيكم في هؤلاء النساء؟ فتعجب العلماء من ذلك، وأذعنوا لرأيه، وأيدوا حكمه، وأدركوا وجاهة فتواه وإصابتها روح العدل"....

أفلسنا بحاجة إلى فقه ابن عرضون اليوم كلما عاد نقاش الإرث إلى الواجهة؟

أم أن الفقه المغربي... صار مجرد ذكرى وسط تسيد لغات الشرق؟

تزويج القاصرات

حين يشرعن القانون الرق... والاتجار بالبشر!

كشف تقرير صادر عن رئاسة النيابة العامة بالمغرب، أن المحاكم المغربية تلقت خلال سنة 2020، 19 ألفا و926 طلبا للإذن بـ «تزويج قاصر»، وافق القضاء على أكثر من 13 ألف طلب منها.
تقرير النيابة العامة المغربية، أوضح أن 77% من الفتيات اللواتي يطلب تزويجهن، غير ملتحقات بالمدارس.
وأن...
95% من الطلبات تتعلق بتزويج فتيات قاصرات، فيما شكل تزويج الذكور القاصرين 5% فقط، فيما رُصد أن 68% من هذه الطلبات يقطن أصحابها في المناطق القروية.

خرجت مدونة الأسرة في المغرب إلى حيز النفاذ عام 2004، وما زالت منذ ذاك تطرح العديد من الجدل في فصول كثيرة؛ من أبرزها، تلك التي كان يفترض أن تحاصر ظاهرة تزويج القاصرات، فأسهمت، وفق البعض، في تفاقمها.

في حين سجل عام 2004، بحسب الأرقام الرسمية، 18341 حالة تزويج للقاصرين، ارتفع الرقم عام 2011 إلى 39031 حالة، بنسبة بلغت 12 بالمائة من مجموع عقود الزواج المسجلة خلال نفس السنة.

على أنه بعد الارتفاع، سجل المغرب تراجعا في هذه الظاهرة، إذ بلغت حالاتها، عام 2018، 25514 عقد زواج، بنسبة 9.13 بالمائة من مجموع العقود المسجلة خلال السنة ذاتها.

بحسب مذكرة إخبارية للمندوبية السامية للتخطيط، نشرتها عام 2017 بمناسبة اليوم العالمي للطفولة، فإن 94.8 بالمائة من القاصرين المتزوجين هم إناث.

بلغة الأرقام إذن، ما زال الوضع مقلقا، والأمر يتعلق، وفق دراسة حديثة أجرتها جمعية «حقوق وعدالة»، بـ«موروث ثقافي لبلد تحكمه الأعـراف والتقاليد» وبـ«أزمة القيم والأخلاق»؛ إذ مهما «اختلفت وتداخلت أسباب زواج القاصرات، فنتائجه وعواقبه تطال أطراف العلاقة الزوجية».

والأسباب هنا مختلفة، منها ما يتعلق بالجانب الاجتماعي والجنسي، كالخوف من «العنوسة» (باعتبار أهمية الزواج لدى أغلبية الأسر والأفراد، خاصة بالنسبة للإناث)، أو ما يتعلق بالجانب الاقتصادي، كرغبة الآباء في انتشال بناتهم من الفقر، خاصة في العالم القروي.

رئيس ذات الجمعية، مراد فوزي، أكد خلال تقديم نتائج الدراسة أن نسب تزويج القاصرات في تزايد وتتجاوز الإحصائيات الرسمية، كما اعتبر أن تزويج القاصرات «جريمة ترقى إلـى جرائم الاتجار بالبشر وتجارة الرقيق».

المجتمع لا يقبل الظاهرة

وفق بحث ميداني أجراه مركز الدراسات والأبحاث حول الهجرة والحقوق الإنسانية، عام 2017، فإن 71 بالمائة من المستجوبين يرفضون تزويج القاصرات.

79 بالمائة من هؤلاء، يرون بحسب البحث نفسه، أن تزويج القاصرات مرتبط بالفقر بدرجة أولى، ويعرف انتشارا مهولا في المناطق التي تتميز بالهشاشة.

كما ربط 80 بالمائة الظاهرة بضعف التعليم وغياب الوعي بالحقوق، معتبرين أن القيم الاجتماعية والثقافية تلعب دورا أساسيا في استمرار الظاهرة عبر الأجيال.

«الفشل مصير تزويج القاصر»، كان رأي أزيد من 71 بالمائة منهم. وفي حين اعتبر نحو 93 بالمائة أن تزويج القاصرات له آثار نفسية وجسدية خطيرة، بلغت النسبة في هذا الرأي لدى الفتيات 99 بالمائة.

تعليقا على هذه الأرقام، كان عبد الإله الخضري، رئيس المركز المغربي لحقوق الإنسان، قد أكد في غضون عرضها، أن «زواج القاصرات بات أزمة حقيقية، أدت إلى تزايد نسبة الوفيات في صفوف الحوامل الصغيرات، والانتهاك الممنهج لحقوقهن في الكرامة، وفي التعليم وتنمية قدراتهن»، مضيفا أن «الظاهرة تسببت في تشريد وضياع العديد من الفتيات، ضحايا التزويج في سن الطفولة، ورميهن في براثن الدعارة

وتجارة البشر، والاستغلال الجنسي الممنهج».

ثغرات قانونية

يخوض الحقوقيون معركة شرسة ضد الفصلين 20 و16 من مدونة الأسرة، إذ يفتحان الباب لاستمرار الظاهرة؛ الأول لتخويله الاستثناء، والثاني لإمكانية التحايل عليه بسهولة...

الفصل 20 من مدونة الأسرة يقول إن «لقاضي الأسرة المكلف بالزواج أن يأذن بزواج الفتى والفتاة دون سن 18 سنة»، شريطة تعليل قراره بعد الاستماع إلى أبوي القاصر أو نائبه الشرعية، والاستعانة بخبرة طبية أو إجراء بحث اجتماعي.

أما الفصل 16، الخاص بإثبات الزواج، فيطرح إشكالا كبيرا إذ يتم التحايل عليه لشرعنة تزويج القاصرات. الحديث هنا عن إشكال مفاده أن يتم الزواج على نحو تقليدي، بالفاتحة مثلا، ثم بعد ذلك يرفع الزوجان دعوى ثبوت الزوجية، حين تضع القاصر مولودها البكر.

هذا الفصل ينص على أن «وثيقة عقد الزواج تعد الوسيلة المقبولة لإثبات الزواج، إذا حالت أسباب قاهرة دون توثيق العقد في وقته». ذات الفصل يشير إلى أن «المحكمة تأخذ بعين الاعتبار وهي تنظر في دعوى الزوجية وجـود أطفال أو حمل ناتج من العلاقة الزوجية».

بحسب دراسة أجرتها جمعية «مبادرات للنهوض بحقوق النساء – مكناس» عام 2014، فإن هذه المادة التي تروم تسهيل الاعتراف بالزواج، خاصة في العالم القروي، للأزواج الذين تعذر عليهم لأسباب قاهرة توثيق زواجهم، تسمح بـ»الاعتراف بعمليات تتم خارج القانون تتعلق بتزويج القاصرات».

هل يلغى الاستثناء؟

أقر وزير العدل الأسبق، محمد أوجار، في ملتقى وطني بعنوان «تزويج القاصرات: إلغاء الاستثناء... تثبيت القاعدة القانونية»، نظم في أبريل 2019، بأن تزويج القاصر اليوم «ظاهرة اجتماعية مؤسفة وتحد حقوقي يقتضي تظافر الجهود للحد منه في أفق إلغاء الاستثناء».

أوجار أكد أن «الطابع الاستثنائي في الترخيص لهذا النوع من الزواج لم يمنع من الإقبال عليه خاصة بالنسبة لتزويج الفتيات، لدرجة أننا نواجه اليوم ظاهرة مجتمعية مزعجة تحضر بقوة في بعض مناطق المغرب كممارسة شائعة».

من جهتها، رأت أمينة بوعياش، رئيسة المجلس الوطني لحقوق الإنسان، في ذات الملتقى، أن السماح بتزويج القاصرات يؤدي إلى تعريضهن إلى الهشاشة الاقتصادية، موضحة أن «تزويج القاصرات يساهم في تزايد الهشاشة ويؤدي إلى الفقر المدقع ويعرض الفتيات ونسلهن لأخطار صحية، كما يؤدي إلى انسداد آفاقهن المستقبلية».

بوعياش أكدت أن المطالبة بإلغاء الاستثناء يرجع إلـى أن «مـدونـة الأسـرة لا تتلاءم مع الدستور والتشريعات الدولية، ومن ثم ينبغي الترافع من أجل إلغاء المادة 20 من المدونة، وتنفيذ مقتضيات تحديد السن الأدنى للزواج في 18 سنة».

من جانبه، قدّر المندوب الوزاري المكلف بحقوق الإنسان، أن إلغاء تزويج القاصرات سيجنب المغرب ثلاث مخاطر:

أولاها: عدم دخول دائرة التسليم بأمر الواقع، والقول إن الفقر المدقع الذي تعيشه المناطق الريفية مبرر للإبقاء عليه، إذ لا يمكن تحميل الطفلات مسؤولية تأخر المشاريع التنموية، مشددا على أن استمرارهن في تأدية ثمن هذه الفاتورة، يظل وصمة عار؛

ثانيهما: عدم الخضوع للأعراف والممارسات الشبيهة بالرق، التي تبدأ بالمقايضة المالية وتنتهي بالعبودية الجنسية وربما الاتجار بالبشر؛

وثالثهما: رفض الاعتقادات والتمثلات المحيطة بجرائم الشرف التي تؤدي إلى الزواج القسري.

المسألة بالنسبة للمندوب الوزاري المكلف بحقوق الإنسان، لا تتعلق إزاء هذه المخاطر بتغيير قانون أو إلغاء مقتضى متقادم، إنما بـ»الإسهام في تحرير المجتمع مـن قـيـوده التي تجره إلـى القرون الوسطى».

هكذا، يبدو أنه ثمة وعي من لدن المسؤولين بأن هناك ثغرات قانونية تسمح بتزويج القاصرات، بل وبتفاقمها كظاهرة... فهل ستتخذ خطوات عملية تروم إلغاء الفصلين 16 و20 من مدونة الأسرة، كمدخل من بين مداخل أخرى، يمكن أن تحاصر الظاهرة، في أفق القضاء عليها؟

تزويج القاصرات: الاستثناء المخول للقاضي في مدونة الأسرة أصبح قاعدة!

سنة 2004... حين رفعت مدونة الأسرة سن الزواج إلى 18 سنة، كان يُنتظر أن تحاصر ظاهرة ما يعرف بـ»الزواج المبكر» أو تزويج القاصرات... إلا أن الأرقام تبين منذ ذلك الوقت، أن الظاهرة مستمرة وأن لا نجاح تحقق في مواجهتها.

ثغرات عدة تعتري المدونة، على نحو لا يسمح بمحاصرة الظاهرة... بل إن البعض، يومها، ذهب إلى أن المدونة «الجديدة» أسهمت في تفاقمها!

نشرت جمعية «حقوق وعدالة»، بداية مارس 2020، نتائج دراسة وطنية حول تزويج القاصرات في المغرب، قدمت فيها معطيات مفصلة عن الظاهرة، قصد تعميق الفهم والوعي بها.

في هذا التقرير، نتابع أبرز ما جاء فيها.

الاستثناء بات أقرب إلى قاعدة!

توصلت الدراسة إلى أن المحاكم المغربية لا تزال تلجأ بشكل واسع إلى إعمال الاستثناء المحتمل، الذي تنص عليه المادة 20 من مدونة الأسرة.

هذه المادة تنص على أن «لقاضي الأسرة المكلف بالزواج أن يأذن بزواج الفتى والفتاة دون سن 18 سنة»، شريطة أن يعلل قراره، بعد الاستماع إلى أبوي القاصر أو نائبهما الشرعي، والاستعانة بخبرة طبية أو إجراء بحث اجتماعي.

يمثل «زواج الفاتحة» في بعض الجهات معدلا مرتفعا جدا، يساوي أحيانا معدل الزواج المصادق عليه، كما هو الحال في جهة درعة تافيلالت أو جهة الداخلة وادي الذهب.

من أصل نحو 269 ألف عقد زواج أبرم سنة 2018، هناك 25.514 عقدا يتعلق بأزواج يقل سنهم عن 18 سنة، ما يمثل نسبة تقدر بـ9.5 بالمائة.

94.8 بالمائة من مجموع زيجات القاصرين هذه... تتعلق بفتيات.

هذه الأرقـام، بالمناسبة، تشمل فقط الزيجات المبرمة أمام عدلين، كما تنص على ذلك مدونة الأسرة، ولا تتضمن الزيجات «العرفية» المبرمة بما يسمى «قراءة الفاتحة».

عدد طلبات الزواج المتعلقة بقاصرين بلغت برسم ذات السنة، 32.104 طلبا، بما يعني رفض 6590 منها،

وقبول أزيد من نصفها بكثير.

منذ عام 2011، وإلى غاية 2018، حظيت 85 بالمائة من هذه الطلبات بإذن القبول.

هذه الأرقام جعلت الدراسة تخلص إلى أن الخروج عن القاعدة واسعٌ، وأن ما ينبغي أن يكون استثناءً... أصبح يميل إلى أن يكون قاعدة!

لم يبلغا 18 سنة... بمعنى؟

قد يبلغ سن الزوجات القاصرات 14 سنة. بحسب الدراسة، عبارة «فتاة وفتى لم يبلغا سن 18» في مدونة الأسرة، ليست واضحة تماما.

96.89 بالمائة من حالات تزويج القاصرين، عام 2018، كانت تتعلق بقاصرات غير متمدرسات.

ثم إنه، تورد الدراسة، ليس لبعض الفتيات المعنيات حالة مدنية، ويُستنبط سنهن من تصريحات آبائهن وبنيتهن الجسمانية.

منذ عام 2007، وإلى غاية 2018، بلغت نسبة الفتيات اللائي تم تزويجهن في سن الـ14، 0.87 بالمائة.

6.7 بالمائة بالنسبة للفتيات في سن الـ15.

26.91 بالمائة لمن يبلغن 16 سنة.

و65.52 بالمائة للفتيات في الـ17.

بالرغم من أن معدل اللائي تم تزويجهن في سن 14 يقل عن 1 بالمائة، 359 فتاةً بالتحديد، إلا أن هذا الرقم، بحسب الدراسة، لا يزال مرتفعا للغاية.

«زواج الفاتحة» يجعل الأرقام ملتبسة!

في الفترة بين عامي 2007 و2018، كان عدد طلبات زواج قاصرين في الوسط القروي، أعلى من عددها في الوسط الحضري. لكن ثمة استثناء... بين عامي 2010 و2013، ارتفعت طلبات الزواج من هذا النوع في الوسط الحضري، بينما أظهر الوسط القروي منحنى تناقصيا، حد أنه أصبح أقل من الوسط الحضري عام 2013.

لكن، ما لم تدركه الأرقام هنا: «زواج الفاتحة»!

رغم الجهود التي تبذلها الحكومة، تقول الدراسة، يظل «زواج الفاتحة» مستمرا بنسبة 13 بالمائة في الوسط القروي، مقابل 6.56 بالمائة في الوسط الحضري.

هذا «الزواج» يمثل في بعض الجهات معدلا مرتفعا جدا، يساوي أحيانا معدل الزواج المصادق عليه، كما هو الحال في جهة درعة تافيلالت أو جهة الداخلة وادي الذهب.

هيمنة السلطة الذكورية، بحسب الدراسة، تزيد من خطر الزيجات العرفية.

فالبنية الأسرية في الوسط القروي تقليدية، وتمارس فيها السلطة من طرف الرجال. بينما تظل روح وطريقة التنظيم القروي، حية في أحياء الصفيح بالمدن، وذلك حتى بعد إعادة التوطين.

«مرايانا» أشارت سابقا إلى الإشكال الذي تطرحه المادة 16، الخاصة بإثبات الزواج في مدونة الأسرة، إذ تمكّن الزوجين من رفع دعوى ثبوت الزوجية، حين تضع القاصر مولودها البكر، وذلك بعد أن تكون قد زُوجت بـ«الفاتحة».

مستواهن التعليمي متدنٍّ جدا

96.89 بالمائة من حالات تزويج القاصرين، عام 2018، كانت تتعلق بقاصرات غير متمدرسات.

الدراسة لاحظت أن معدل تعليم المبحوث معهن في الوسط القروي، أقل بكثير من المعدل في الوسط الحضري. وتوضح: «نصف المبحوث معهن على المستوى الوطني أميات. لم يذهبن قط إلى المدرسة، ويتمركزن بشكل رئيسي في الوسط القروي». أما الفتيات اللائي تلقين تعليمهن قبل زواجهن، فقد لاحظت الدراسة أن مستواهن التعليمي منخفض للغاية، بخاصة في البادية.

إذا تزوجت الأم وهي قاصر... في الغالب، تنال ابنتها المصير نفسه!

تساءلت الدراسة عما إذا كانت الأم التي زُوجت وهي قاصر، تستنسخ هذا النوع من الزواج لبناتها؟

ما دفع إلى هذا التساؤل، أن النتائج التي توصلت إليها تقول بأن هؤلاء الأمهات يشكلن نسبة 71.96 بالمائة من أمهات المتزوجات القاصرات. يدفع هذا، تشير الدراسة، إلى الاستنتاج أن هناك صلةً وثيقةً بين سن زواج الأم المتزوجة وهي قاصر، وسن زواج ابنتها (بناتها)، بسبب الآثار المشتركة للتقاليد وتأثير الأم. هكذا، ينتهي الأمر بالأم، إلى المساهمة في استمرارية الزواج المبكر... بعد أن محت ذاكرتها كل خيبات الأمل التي واجهتها من قبل، تحاول الدراسة تفسير هذا الاستنتاج.

يعد العامل الاقتصادي الأكثر ضلوعا في انتشار تزويج القاصرات. حسب اليونيسيف، من المحتمل أن تُزوج الأسر الأكثر فقرا بناتها، قبل سن 18 سنة، بنسبة الضِعف مقارنة مع الأسر الأقل فقرا أو تلك التي تقطن في الوسط الحضري.

هاجس تقليص الأفواه التي ينبغي إطعامها، والفائدة التي يجلبها الصداق، بجانب انخفاض مستوى التعليم، يمكن أن يدفع بالأسر إلى تزويج بناتها في وقت مبكر.

تزويج القاصرات يقترب من تعريف الاتجار بالبشر:

معظم «الطفلات» المتزوجات غير راضيات عن حياتهن!

ممارسة شائعة

32 بالمائة من المبحوث معهن، يعرفن "طفلات" تزوجن قبل سن 15 سنة، و68 بالمائة يعرفن "طفلات" تزوجن بين 15 و18 سنة.

هذه النتائج تثبت، بحسب الدراسة، أن تزويج القاصرات ممارسة معروفة في المجتمع، وبشكل أدق في المناطق القروية، حيث يبدو معمولا به منذ سن 15 سنة.

إحدى الأسئلة الموجهة إلى المبحوث معهن، كان المصير الذي ينتظر الفتيات اللائي لم يتزوجن بعد عن سن الـ18. تشير الإجابات إلى أن أكثر من 32.34 بالمائة يفضلن الزواج بعد 18 سنة. الواقع أن الزواج بعد سن 18 يعد الطبيعي، ذلك أنه يتيح للفتاة القيام بعمل يرضيها أو إنهاء دراستها.

غير أن أكثر من 24.94 بالمائة يعتبرن أن الزواج بعد سن الـ18، يحكم على الفتاة بالبقاء عازبة إلى الأبد، وبسبب ذلك، ينبغي عليها الزواج قبل ذلك.

أكثر من هذا، هؤلاء يعتقدن أن الفتاة إن لم تتزوج في سن الـ18 أو قبله، يمكن أن تتعرض لمشاكل خطيرة، يمكن أن تصل إلى حد بيع الجنس، أو "الدعارة" بتعبير الدراسة.

هذه المشاكل الخطيرة تتمثل، تقول الدراسة، في عدم احترام محيطها لها، مع الإشارة التحقيرية: "بايرة"، أو الخوف من معاناة والديها، أو السعي وراء حياة رتيبة مثقلة بالمهام، أو الحرمان من "متعة" أن تصير أُمّا.

والحال هذه، ترى الدراسة، أن أي استراتيجية لمكافحة ممارسة زواج القاصرات، ينبغي أن تأخذ كل هذه المعايير بعين الاعتبار.

غير راضيات

إجمالا، 32.02 بالمائة من المبحوث معهن، يعشن مع أبوي الزوج. 45.32 بالمائة تعيش في منزل يملكه الزوج، و20.69 بالمائة في منزل مستأجر، و1.97 في مكان آخر غير الأنواع السالف ذكرها.

معظم أزواج الزوجات القاصرات يشتغلون، فقط 11.09 بالمائة منهم عاطلون عن العمل.

88 بالمائة منهم يشتغلون قرب منازلهم، و12 بالمائة بعيدا عنها، فيما يشتغل 4.43 بالمائة في الخارج.

نصف الأزواج البعيدين يزورون زوجاتهم من حين لآخر، وربعهم في كثير من الأحيان، بينما الأقلية، نادرا ما تقوم بذلك.

معظم هؤلاء الأزواج يرسلون نفقة شهرية إلى أسرهم، في حين أن 28.13 بالمائة لا يرسلون أي

هل الزوجات/الطفلات القاصرات راضيات عن حياتهن الجديدة هذه؟
تؤكد 73.04 بالمائة منهن أنهن غير راضيات عن حياتهن اليومية، فيما تقول 26.96 بالمائة أنها راضية. تلاحظ الدراسة أن الزوجات القاصرات في المناطق القروية نادرا ما يشتكين. بصفة عامة، تؤكد 76.05 بالمائة من الطفلات اللائي تم تزويجهن، أنهن ليست لديهن انشغالات أخرى غير المنزل، في حين صرحت 23.95 بالمائة منهن... أن لديهن انشغالات أخرى

شيء لزوجاتهم، وهو ما يمثل مشكلة حقيقية بحسب الدراسة.

وفقا للدراسة، تلجأ الزوجات القاصرات لإدارة هذه الوضعية إلى آبائهن أولا، ثم إلى العمل المنزلي، والتسول، وربما في بعض الحالات إلى بيع الجنس.

فهل الزوجات/الطفلات القاصرات راضيات عن حياتهن الجديدة هذه؟

تؤكد 73.04 بالمائة منهن أنهن غير راضيات عن حياتهن اليومية، فيما تقول 26.96 بالمائة أنها راضية. تلاحظ الدراسة أن الزوجات القاصرات في المناطق القروية نادرا ما يشتكين.

بصفة عامة، تؤكد 76.05 بالمائة من الطفلات اللائي تم تزويجهن، أنهن ليست لديهن انشغالات أخرى غير المنزل، في حين صرحت 23.95 بالمائة منهن... أن لديهن انشغالات أخرى.

أقصى الطموح... الإنجاز المثالي للمهام المنزلية!

تمكنت 34 فتاة/طفلة من العينة المبحوثة من إحراز تقدم في تكوينهن بعد الزواج، إلا أن مستواهن الدراسي بقي كما هو. في حين تمكنت 9 فتيات من التقدم في دراستهن بعد الزواج، وذلك بمرورهن من سلك تكويني إلى آخر.

لأسباب متعددة، لا تتمكن القاصرات من متابعة دراستهن بعد تزويجهن.

أسباب تعددها الدراسة في المهام المنزلية، الأمراض، إعالة الأطفال، وأيضا استبداد بعض الأزواج الذين يمنعون زوجاتهم من متابعة دراستهن. في بعض المناطق القروية، يمنعونهن من مغادرة عتبة الباب حتى. ونظرا لكونها تزوجت في سن مبكرة، وغالبا تكون غير متعلمة، تعيش القاصر المتزوجة، وفقا للدراسة، في عالم مقيد بقدَرِ المنزل الذي تقضي فيه حياتها، حيث تقتصر طموحاتها على... الإنجاز المثالي للمهام المنزلية وتفقد كل رغبة في التعلم.

كالاتجار بالبشر أحيانا!

الجنس في المغرب من المواضيع المحرمة. كثيرون هم أولئك الذين يدافعون عن الحفاظ على العذرية قبل الزواج، وكذا منع ممارسة علاقات جنسية خارج إطار الزواج.

الدراسة تخلص إلى أن... خوف الآباء من فقدان ابنتهما عذريتها، وربما الحمل، يدفعهم إلى تزويج ابنتهم، حتى ولو كانت قاصرة وربما صغيرة جدا.

لكن الذي لا يعرفه هؤلاء الآباء، أو يغضون الطرف عنه، هو مآل الطفلة التي تم تزويجها... والذي يكون رديفا أحيانا، للعنف والاستغلال الجنسي.

ليست كل زيجات القاصرات تؤدي إلى العنف، تؤكد الدراسة، إلا أن الأبحاث بينت أن ذلك يحدث، وأحيانا يمكن أن يؤدي إلى حالات حقيقية من الاتجار في البشر. وفقا لهيئة الأمم المتحدة للمرأة، يقترب تزويج القاصرات أو الزواج القسري، في بعض الحالات، من تعريف الاتجار بالبشر. نشير في الأخير إلى أن 22.56 بالمائة من المبحوث معهن، قلن إن قرار الحمل وعدد الأطفال خارج عن سيطرتهن تماما. بالنسبة لـ12.24 بالمائة، يقرر الزوج لوحده، فيما بالنسبة لـ10.32 بالمائة، عائلته هي من تقرر!

مرايانا
نقاش ▪ حرية ▪ معرفة ▪
دون أدوات شرط... دون حروف استثناء
www.marayana.com

من حياة الفقر إلى عوالم السياسة في أعلى مستوياتها

قصة نجاح نجاة بلقاسم!

بإمكانات صغيرة وأحلام كبيرة، تمكنت هذه الشابة المغربية/الفرنسية من البصم على إحدى أشهر قصص النجاح السياسية في فرنسا القرن الواحد والعشرين... ولدت فقيرة في قرية مغربية، ثم التحقت في باكر العمر بأبيها في فرنسا. مع أنها لم تفكر في أن تصبح سياسية، وجدت نجاة بلقاسم نفسها بطريقة ما في معترك السياسة، تتسلق الدرجات... حتى أصبحت أصغر الوزيرات في تاريخ فرنسا، مسؤولة على قطاعات مهمة، كحقوق المرأة والتعليم. في هذا البورتريه... ننسج بعضا من فصول قصة نجاح نجاة بلقاسم!

ولدت نجاة بلقاسم في بني شيكر بإقليم الناظور، في الرابع من أكتوبر 1977. هناك نشأت في أسرة فقيرة، ربها يعمل عامل بناء في فرنسا، ترعى الغنم مع جدها في سن مبكرة، إلى أن أطفأت شمعتها الخامسة.

بعد ذلك، التحقت نجاة بوالدها في فرنسا رفقة أمها وشقيقتها الكبرى، فترعرعت بحي فقير في مدينة أبفيل، ثم بعد فترة انتقلت العائلة إلى مدينة أميان.

تقول في حوار مع صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية، إن والدتها كانت تشجعها وشقيقاتها على الدراسة حتى يستقلن ماديا، وتضيف: "كانت المدرسة دوما لاعبا كبيرا ومؤثرا في رحلتي الشخصية، فقد سمحت لي بالانفتاح على العالم، وبالحركية الاجتماعية كذلك. كما سمحت لي بإثراء ذاتي، وبالتعلم والإدراك".

حصلت نجاة عام 1995؛ أي مع بلوغها سن الرشد، على الجنسية الفرنسية، وفي ذات السنة، حصلت على الباكالوريا في علم الاجتماع الاقتصادي، ثم التحقت بجامعة بيكاردي في أميان، التي تخرجت فيها مجازة في الحقوق.

أملت نجاة كثيرا في الدراسة بالمدرسة الوطنية للإدارة، إحدى أعلى الجامعات الفرنسية شأنا، لكنها لم تتمكن من تحقيق ذلك، رغم محاولتيها الاثنتين. مع ذلك، سمح لها تفوقها بإتمام دراستها الجامعية في معهد الدراسات السياسية في باريس فنالت شهادته عام 2000.

في ذات المعهد، ستتعرف على زوجها المستقبلي، بوريس فالو، الذي ستتزوج به عام 2005، وسيصبح بذلك اسمها نجاة فالو بلقاسم، وقد أنجبت منه توأما. أما فالو هذا، فقد كان أحد المقربين للرئيس الفرنسي الأسبق، فرانسوا هولاند.

الصعود الأسطوري

بدأت نجاة بلقاسم مسارها المهني كمحامية في مكتب باريسي معتمد لدى مجلس الدولة ومحكمة النقض، وقد اشتغلت فيه لثلاثة أعوام. أما معترك السياسة، فقد ارتمت فيه من خلال الحزب الاشتراكي الذي انضمت إليه في 21 أبريل 2002.

انضمت إلى الحزب بعدما تمكن مرشح رئاسي للجبهة الوطنية اليمينية المتطرفة من الترشح إلى جولة الإعادة في الانتخابات الرئاسية. أثار الأمر حفيظتها، فقررت أن تتحرك لإحداث تغيير ما. أما قبل ذلك، فلم تكن لأسرتها أي اهتمامات سياسية.

تقول بلقاسم: "كنت خجولة ومتحفظة للغاية، الانخراط في العمل السياسي كان أمرا يتعارض مع شخصيتي. لكنني قررت أن أعلن التزامي مدى الحياة بمحاربة الظلم الاجتماعي ومناهضة عدم المساواة. كان ذلك هو السبب في كوني يسارية حتى النخاع". كان هذا الحدث مفصليا في حياة بلقاسم، وقد أبانت عن موهبة سياسية سرعان ما جعلتها تتسلق سلم السياسة، وتثير انتباه من حولها. بعد سنة التحقت بفريق عمدة ليون، ثم عينت مسؤولة عن السياسة الثقافية في منطقة رون ألب، عام 2004، المنصب الذي استقالت منه بعد أربع سنوات.

عام 2005، أصبحت عضوا في المجلس الوطني للحزب الاشتراكي، وبعد سنة اختيرت للانضمام إلى مؤسسة "القيادات الشابة" الفرنسية الأمريكية.

كان عام 2007، أول الأعوام صخبا في حياة نجاة بلقاسم السياسية، إذ أصبحت في فبراير المتحدثة الثالثة باسم المرشحة الرئاسية سيغولين رويال. كما خاضت غمار الانتخابات التشريعية في شهر يونيو بالدائرة الرابعة لمدينة رون، لكنها فشلت في انتزاع مقعد برلماني حينها. في نهاية السنة، وفي المغرب هذه المرة، عينت عضوا في مجلس الجالية المغربية بالخارج من قبل الملك محمد السادس، وذلك إلى غاية 2011.

عام 2008، انتخبت بلقاسم عضوا بمجلس مدينة رون خلال انتخابات الكنتونات، ثم حين انتخبت في لائحة الاتحاد اليساري في انتخابات بلدية ليون، وعينت كنائبة لرئيس البلدية والمكلفة بالأحداث والشباب والمجتمع، استقالت من منصبها في مجلس رون.

بعد ثلاث سنوات، عملت بلقاسم مرة أخرى ناطقة رسمية باسم المرشحة سيغولين رويال، في الانتخابات التمهيدية الاشتراكية للرئاسة. أبانت حينها نجاة عن مقدرات عالية جدا في التواصل وفن الخطابة. رويال، كما هو معلوم، لم تفز في تلك الانتخابات.

كان فرانسوا هولاند الفائز في هذه الانتخابات التمهيدية، فرشحه الحزب الاشتراكي للانتخابات الرئاسية لعام 2012. وخلال هذه الرئاسيات، عين هولاند بلقاسم متحدثة رسمية باسم حملته الانتخابية، وقد أسهمت بقسط وافر في نجاحه.

في بلاط النجاح

بعد فوز فرانسوا هولاند في الانتخابات الرئاسية عام 2012، فتح تاريخ فرنسا أبوابه الواسعة في وجه نجاة بلقاسم، إذ عينت وزيرة لحقوق المرأة ناطقة رسمية باسم حكومة جان مارك أيرولت، في عمر 35 سنة، لتكون بذلك أصغر وزيرة في الحكومة.

عملت بلقاسم على تحقيق المساواة بين الرجل والمرأة، وتقويم ما اعوج من الثقافة تجاه المرأة؛ وقد أنشأت، بغرض ذلك، المجلس الأعلى للمساواة بين الرجل والمرأة.

لكن تبني بلقاسم لقانون يجرم امتهان الجسم ويحمل المسؤولية القانونية للزبون وللشخص الذي يتاجر بأجساد النساء، أثار ضدها عنصرية كبيرة، باعتبار أصلها المغربي. هذه العنصرية لا شك أنها قد أسهمت بطريقة ما في زيادة شعبيتها في فرنسا.

في الفترة ذاتها، أرست نجاة بلقاسم، كمتحدثة باسم الحكومة، نمطا جديدا من التعامل مع هذه المهمة، إذ كانت تعمل على شبكات التواصل الاجتماعي على الإجابة شهريا عن أسئلة المواطنين.

بعد سنتين، لحقت بالحزب الاشتراكي خسارات كبيرة في الانتخابات المحلية، قام على إثرها الرئيس الفرنسي بتعديل وزاري، انتهى بمانويل فالس رئيسا للحكومة، ومرة أخرى عين الأخير بلقاسم وزيرة لحقوق المرأة، وهذه المرة للشباب والرياضة أيضا.

ظلت بلقاسم في منصبها هذا لأربعة أشهر، ثم أجري تعديل وزاري جديد، أصبحت بموجبه أول امرأة وزيرة للتربية والتعليم العالي في تاريخ فرنسا. منصب تبوأته لثلاث سنوات، وقد عانت فيه من مضايقات أحزاب المعارضة التي قابلتها بكثير من التنديد باعتبار أصولها مرة أخرى.

في غضون فتراتها الوزارية، عرفت بلقاسم بموقفها من المثلية الجنسية، إذ وقفت بجانب المثليين والمتحولين جنسيا، وعملت على مكافحة رهاب المثلية، كما قالت إن تأجير الأرحام يمكن أن يكون أداة إضافية ضد العقم، وعززت الحق في الإجهاض واعتبرته حقا أساسيا.

اليوم تعد نجاة بلقاسم، إحدى أكثر قصص النجاح في فرنسا. قصة نجاح جعلت صحيفة "الغارديان" البريطانية تصفها بـ"وجه فرنسا الجديد"، فبماذا يا ترى سيجود الزمن القادم على امرأة أحلامها تلامس السماء؟

سحابة الرحمانية... مؤسسة ازدهار الدولة السعدية!

عاش المغرب إبان حكم السلطان السعدي، أحمد المنصور الذهبي، إحدى أبرز محطاته التاريخية ازدهارا. لكن قبل ذلك، كان الصراع حول السلطة على أشده. بعض المراجع التاريخية تعتبر أنه، لولا امرأة اسمها سحابة الرحمانية، ما انفكت خيوط هذا الصراع.

كيف ذلك؟ تلك هي القصة التي نتعرف عليها ضمن هذا البورتريه عن سحابة الرحمانية.

بعد أن اغتال العثمانيون السلطان السعدي محمد الشيخ، عام 1557، شب بين أبنائه صراع شرس حول السلطة، انتهى بتولي عبد الله الغالب بالله، الحكم، وفرار أخيه عبد الملك إلى الجزائر. حين توفي السلطان عبد الله، عام 1574، كانت التقاليد تفترض أن يؤول الحكم من بعده إلى أخيه الأكبر سنا، وقد كان في هذه الحالة، عبد الملك. لكن ابنه محمد، الملقب بالمتوكل، استولى على الحكم حينذاك.

في هذه الفترة، ستظهر في المراجع التاريخية سحابة الرحمانية، وقيل في مراجع أخرى إن اسمها مسعودة الوزكيتية. أيا كان اسمها، ستلعب هذه المرأة دورا سياسيا بالغ الأثر في فترة حرجة من تاريخ المغرب.

لا تذكر هذه المراجع شيئا عن حياة سحابة الرحمانية، فلا إشارة إلى تاريخ ميلادها ولا وفاتها، ولا كيف شبت ولا شابت، عدا أنها من قبيلة الرحامنة.

لكنّ سحابة هذه، هي زوجة السلطان محمد الشيخ، وأم أبنائه، عبد الله الغالب وعبد الملك وغيرهم. أما المتوكل، ابن عبد الله، فقد كان ابنه من إحدى إمائه.

نظرا لفطنتها وما خبرته في دهاليز القصور، تمتعت سحابة بقراءة جيدة للحظة السياسية، فكانت على دراية بموقع المغرب في الخريطة السياسية الدولية، وحدوده فيها... كل هذا ستوظفه في مسعاها: مبايعة ابنها عبد الملك، سلطانا على المغرب.

هكذا، وبالرغم من أن العثمانيين قد ذبحوا زوجها محمد الشيخ، وعلقوا رأسه في قلعة بالقسطنطينية، إلا أنها لجأت إليهم قصد بلوغ غايتها.

يشير العلامة المغربي عبد الله كنون في كتابه "موسوعة رجال المغرب"، إلى أن عبد الملك بعدما كان فارا إلى الجزائر، التجأ وأمه إلى اسطنبول، واستقرا في كنف السلطان العثماني سليم الثاني.

أمل عبد الملك في أن يعينه السلطان العثماني في زحزحة أخيه عن العرش ولاحقا ابن أخيه، لكن عبد الله الغالب كان على صلة جيدة بالعثمانيين، فلم يجب السلطان العثماني طلبه.

ثم حدث ذات يوم، دائما وفق كنون، أن بلغ عيث الإسبان بتونس أشده، ففكر السلطان العثماني في توجيه حملة عسكرية لفتحها وطرد الإسبان منها، فانتدب عبد الملك لمرافقتها. انتصرت الحملة على الإسبان، فيما كان السلطان العثماني يترقب ليل نهار البحر لعل خبرا يصله عنها. حينها، كان الغزاة الأتراك قد جهزوا ثلاث مراكب بحرية لإبلاغ خبر الفتح إليه.

لكن عبد الملك، وفق ما يورده كنون، ذهب إلى أصحابه، وقال لهم: "اخرجوا في هذه الفرقاطة إلى اسطنبول واذهبوا بكتابي إلى أمي بدار السلطان وادفعوه لها إن سبقتم المراكب الثلاثة وإن سبقتكم فلا تدفعوه".

سارت الفرقاطة ليلا قبل سفر مراكب السلطان، فوصلت قبلها، ثم دفع أصحابها كتاب عبد الملك إلى سحابة، فقامت إلى السلطان مسرعة، فوجدته يراقب البحر، ثم بشرته بالفتح فيما اندهش بهذا السبق.

هذه الواقعة كانت سببا مباشرا في قبول السلطان العثماني طلب عبد الملك، فأصدر أمرا حملته سحابة إلى والي الجزائر ليساعد ابنها على استعادة ملك أبيه.

يقول كنون: "وهكذا أدت هذه السيدة مهمتها كما يجب وسجلت اسمها في تاريخ المغرب، وقد كانت من أهم العوامل على نجاح قضية ابنها".

سار الجيش العثماني حتى بلغ نواحي فاس دون صعوبة، وكان عبد الملك في الأثناء يراسل وجوه الدولة ورؤساء الجنود، وقد اتضح أن قلوبهم كانت معه على ابن أخيه، المتوكل، الذي اعتبرته كتب التاريخ، متعجرفا ومتكبرا لم يحظ بشعبية كبيرة.

حين تقابل عبد الملك والجيش العثماني مع المتوكل، مال معظم رجال الأخير إلى عمه، ففر إلى مراكش، ثم دخل عبد الملك فاس، فبايعه أهلها وأقام بها أياما، ثم ودع جيش العثمانيين واستصلح جيشه ثم قام لملاحقة المتوكل إلى مراكش.

فر المتوكل مرة أخرى إلى سوس، دون جدوى. ثم إلى بادس التي سلمها والده إلى الإسبان، طمعا في أن يعينوه، دون جدوى أيضا. بعدها، فر إلى سبتة ثم إلى طنجة، مستنجدا بملك البرتغال، وقد كانت طنجة حينذاك في حكمه... وهناك، أخيرا، وجد أحدا ينجده.

كان الاحتماء بالأجانب غير المسلمين، يقول كنون في كتابه "موسوعة رجال المغرب"، فعلا مذموما، لم يلاحظ كظاهرة سيئة في المغرب قبل هذا العهد. أحس المتوكل بشناعة فعلته، فراسل أعيان المغرب وأشرافه يبرر ما قام به، لكنهم قابلوه بإبطال كل حججه.

في الأخير، وقعت إحدى أشهر المعارك في تاريخ المغرب، معركة وادي المخازن، وقد سميت بمعركة الملوك الثلاث؛ ذلك أن ملك البرتغال والمتوكل وعبد الملك، راحوا ضحيتها جميعا.

بعد ذلك، تولى أحمد المنصور الذهبي، أخ عبد الملك وابن سحابة، الحُكمَ، وقد كان من أبرز سلاطين المغرب على امتداد تاريخه، ذلك أنه قد وسم عهده بالازدهار والرخاء.

هكذا، لولا سحابة، تقول كتب التاريخ، لسارت الأمور في منحى آخر.

التمييز بين الجنسين

فروق شاسعة يحاول القانون حظرها بينما يكرسها المجتمع!

نزع المجتمع الدولي منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي، إلى الاعتراف بضرورة المساواة بين الرجل والمرأة. أول مرة سيُنص فيها على مفهوم «التمييز بين الجنسين» بصريح العبارة، كانت في ميثاق الأمم المتحدة لسنة 1945. الميثاق نص في مادته الأولى على احترام حقوق الإنسان من غير تمييز للجنس أو اللغة أو الدين ولا تفريق بين الذكر والأنثى.

منذ ذلك الوقت والعالم يعمل على حظر جميع أشكال التمييز ضد المرأة، عمل تَوّجه باتفاقية سيداو لسنة 1979. صادق المغرب على الاتفاقية سنة 1993، ولم ينشر ذلك بالجريدة الرسمية إلا سنة 2001 مع كثير من التحفظات، رفع البعض منها سنة 2011.

ينص دستور المملكة المغربية الحالي، بمقتضى الفصل 19 منه، على تمتيع الرجل والمرأة، على قدم المساواة، بالحقوق والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، على أن تسعى الدولة إلى تحقيق مبدأ المناصفة بين الرجال والنساء، بجانب إحداث هيئة للمناصفة ومكافحة التمييز.

يتبين من خلال ذلك أن هناك إرادة في المغرب تنحو صوب تمتيع المرأة إسوة بالرجل بكل الحقوق والحريات على قدم المساواة. إلا أن الواقع معضدا بمجموعة من التقارير الرسمية وغير الرسمية، يفيد بأن صورة المساواة بين الجنسين في شتى المجالات، يغزوها السواد.

143 عالميا، من أصل 153 دولة في تقرير فجوة النوع!

تذيل المغرب ترتيب الدول في مؤشر المساواة بين الجنسين الصادر عن المنتدى الاقتصادي العالمي لسنة 2020، والذي يستند إلى أربعة مؤشرات، هي الفرص الاقتصادية والمشاركة في سوق العمل وإتاحة التعليم والصحة والتمكين السياسي.

المغرب، احتل المرتبة 143 من أصل 153 دولة شملها التصنيف العالمي الشهير، مسجلا تراجعا سلبيا بست مراتب بعدما حل في تقرير السنة السابقة... في المرتبة 137 عالمياً. ... وفي تقرير له صدر سنة 2015 بعنوان «وضعية المساواة والمناصفة في المغرب»، أكد المجلس الوطني لحقوق الإنسان أن تحقيق المساواة والمناصفة بين الرجال والنساء لا زال أمرا بعيد المنال، خاصة أن المغرب يصنف وفقا لتقرير فجوة النوع أو الفجوة الجندرية العالمية، في الرتبة 133.

يزداد القلق الذي تثيره هذه المرتبة الجد متدنية، إذا ما عرفنا أن المغرب في ذات التصنيف الذي يصدره المنتدى الاقتصادي العالمي، تراجع في نسخة 2016، محتلا الرتبة 137 عالميا، من أصل 144 دولة، مع الإشارة إلى أن التقرير يقدم تصنيفه بناءً على التمايز بين الذكور والإناث في أربعة مجالات رئيسية هي، الصحة والتعليم والاقتصاد والسياسة.

ويشير التقرير إلى أنه بالرغم من ارتفاع المستوى التعليمي لدى النساء اللواتي أضحين أكثر استقلالية مما كن عليه في الماضي، إلا أن المرأة لا تزال تعاني بموازاة ذلك من صعوبات جمة في ولوج وشغل الفضاء العام بكل حرية، فالاعتداء الجنسي والتحرش الجنسي ما فتئا يشكلان نمطا من أنماط التحكم في جسد المرأة وشكلا من أشكال التحكم في ظهورها في الأماكن العامة.

المجلس لفت في تقريره إلى أن الأحداث التي وقعت في وقت سابق بإنزكان وطنجة وآسفي[1]، أبعد ما تكون عن مجرد وقائع معزولة، إذ أن القيود والانتهاكات التي تطال حق النساء في التنقل وحريتهن في اختيار اللباس في الأماكن العامة تكشف عن عمق الأزمة التي يجتازها المجتمع المغربي.

وشددت المؤسسة الدستورية على أن هذه الفوارق خاصة بين الرجال والنساء، تكرس الفقر

والإقصاء وتشمل سائر الفئات العمرية والأوساط الجغرافية والاجتماعية ولها آثار سلبية كبيرة على تمتع المرأة بحقوقها التي بات يكرسها الدستور المغربي الجديد، وعلى المجتمع برمته.

عمل المرأة أصبح يقابل بـ«لامبالاة عدائية»

أبرز التقرير الذي قدمته لجنة تتبع الخطة الحكومية للمساواة سنة 2015 أن المرأة تعاني من الأمية والبطالة على نحو أكبر بكثير مقارنة بالرجل، إضافة إلى ضعف إدماجها في المجال الاقتصادي.

وفق ذات التقرير، نلاحظ انخفاضا على مستوى الإدماج الاقتصادي للنساء وتقلص قدرتهن على الاستقلال المالي؛ ذلك أن نسبة مشاركة المرأة في سوق العمل لم تتجاوز 25 بالمائة في 2012، في مقابل 30 بالمائة في 1999، على الرغم من تحسن مستوى وصول النساء إلى التعليم والانخفاض الواضح في معدلات الخصوبة.

في ذات السياق، خلص رأي عممه المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي[2]، سنة 2014، إلى أن وضعية النشاط الاقتصادي النسوي قد عرفت تراجعا واضحا ومثيرا للقلق، مؤكدا أن عمل النساء

> **المجلس لفت في تقريره إلى أن الأحداث التي وقعت في وقت سابق بإنزكان وطنجة وآسفي[1]، أبعد ما تكون عن مجرد وقائع معزولة، إذ أن القيود والانتهاكات التي تطال حق النساء في التنقل وحريتهن في اختيار اللباس في الأماكن العامة تكشف عن عمق الأزمة التي يجتازها المجتمع المغربي**

كان في الماضي مقبولا بكيفية إيجابية باعتباره عملية تحرر شخصي، ومصدر افتخار واعتزاز للأسر المغربية. لكن، في السنوات الأخيرة، ظهر نوع من اللامبالاة العدائية إزاء عمل النساء.

يتفق العديد من المراقبين على أن النساء متمركزات في الأنشطة ذات المردودية والقيمة الضعيفة في سوق الشغل، وأنهن ضحايا التمييز على مستوى الأجور، في حين أن من تابعن تعليمهن أكثر عرضة للبطالة، على حد تعبير رأي المجلس الاستشاري.

المجلس لفت أيضا إلى أن المقاولات الخصوصية لا تحترم في غالب الأحيان الالتزامات الواردة في قانون الشغل، فيما تظل الوظيفة العمومية غير مؤنثة بما يكفي على مستوى القيادة. أما وصول النساء إلى مراكز اتخاذ القرار، فيبقى محدودا جدا. ويرجع الرأي الاستشاري للمجلس الازدواجية في تصور عمل المرأة، إلى التناقضات المجتمعية والثقافية؛ ذلك أن قسما كبيرا من المغاربة يميلون إلى تأييد عمل النساء خارج البيت إذا كانت لديهن المؤهلات اللازمة، غير أن هذه المواقف العامة لا

تعني إعادة النظر في الأدوار الاجتماعية التي تُسند إلى النساء الأشغال المنزلية وتربية الأطفال، بينما تسند إلى الرجال مهام العمل خارج البيت وإنتاج الدخل العائلي.

التمييز الإيجابي لم يعط أكله والمناصفة حلم بعيد المنال

تعتبر الباحثة الأكاديمية في القانون الخاص، مليكة الهيلالي[3]، أن «مشاركة النساء في مراكز القيادة واتخاذ القرار ضعيفة، إذ يمكن ملاحظة ممارسات تمييزية في حقها في المجتمع وداخل الأحزاب من قبيل تهميش دورها السياسي»، مشيرة إلى أنها «حين تقدم في الواجهة، تقدم فقط كديكور لربح رهان انتخابي وليس دفاعا عن كينونتها وكفاءتها، وهو ما يمكن اعتباره استغلالا للمرأة سياسيا وإعلاميا».

الهيلالي تؤكد أن هذا الوضع يترجم الشرخ الشاسع بين التطور القانوني والتطور الاجتماعي الذي يستحيل معه تغيير المجتمع بموجب مراسيم قانونية؛ ذلك أن الترسانة القانونية التي تجرى مطابقتها أكثر فأكثر مع المعايير الدولية، على أهميتها، تتطلب آليات للتطبيق تؤثر في جيوب المقاومة ضد التغيير عبر سياسات اجتماعية واقتصادية ملائمة.

ذات الرأي ذهب فيه أستاذ القانون العام، عبد الحميد بن خطاب، في ندوة احتضنتها الرباط عام 2018 عن المشاركة السياسية للمرأة، إذ قال إنه «هناك ترسانة قانونية جد مهمة في المغرب تساعد بشكل أو بآخر على اقتحام السياسة، وبالرغم من ذلك نجد أننا لم نصل بعد إلى مستوى الثلث في تمثيلية النساء، 27 بالمائة بالنسبة للجماعات الترابية، 21 بالمائة بالنسبة لمجلس النواب، و39 امرأة من أصل 120 في مجلس المستشارين».

بن خطاب أكد أن «المناصفة فكرة الهدف منها سياسي، أكثر منه إعطاء تمثيلية حقيقية للمرأة داخل المؤسسات التمثيلية»، مضيفا أن «الهدف منها أساسا هو محاولة قلب ما يسمى بالهيمنة الذكورية وإحلال نوع من التوازن بين الجنسين، لكن هذا التوازن حتى الآن شكلي، صوري ونظري، أكثر منه عملي على أرض الواقع».

وتشير النائبة البرلمانية فاطمة الزهراء برصات، في تصريح سابق لها، إلى أن التمييز الإيجابي (الكوطا) أسهم في حضور المرأة داخل المؤسسة التشريعية ذلك أنه كان قبل ذلك هزيلا، مع أنه آلية انتقالية فقط سترفع يوما ما، والمفروض أنها جاءت ليرى المجتمع المرأة التي ألفها في البيت، كفاعلية سياسية وبرلمانية ووزيرة، من أجل تغيير تدريجي لهذه الصورة النمطية...

هوامش

[1] الاعتداء على شابات بدعوى اعتبار زيهن غير متوافق مع التقاليد الدينية والاجتماعية للبلد.

[2] بعنوان: "النهوض بالمساواة بين النساء والرجال في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية (أشكال التمييز ضد النساء في الحياة الاقتصادية: حقائق وتوصيات)".

[3] بحث بعنوان "تقرير حول حصيلة المساواة بين الرجل والمرأة".

فاطمة المرنيسي

أجنحة «واقع المرأة» الذي حلقت به إلى الحلم!

وهبت فاطمة المرنيسي نفسها لعلم الاجتماع، ولخدمة القضية النسائية. زاوجت بين قراءتها للواقع والتراث، لتسليط الضوء على عتمة ذكورية طمست فاعلية المرأة في المجتمعات العربية الإسلامية...
خمسة وسبعون عاما من النبض.
خمسة عشر كتابا بترجمات عالمية عدة، من بينها «الحريم السياسي»، «شهرزاد ترحل إلى الغرب»، «نساء على أجنحة الحلم».
واحدة من النساء المائة الأكثر تأثيرا في العالم وفق صحيفة الغارديان البريطانية لسنة 2011.

رأت فاطمة المرنيسي، النور، في مدينة فاس، سنة 1940. هناك نشأت وسط عائلة محافظة، ودرست في مدرسة وطنية خاصة، أُحدثت كي لا يدرس أبناء الوطنيين في المدارس الفرنسية، لتصبح مع توالي السنوات، عالمة اجتماع وكاتبة ذائعة الصيت في المغرب وفي العالم بأسره.

درّست المرنيسي العلوم السياسية بجامعة السوربون بفرنسا، ثم حصلت على شهادة دكتوراه في علم الاجتماع من جامعة براندیس كنتاكي في الولايات المتحدة الأمريكية، قبل أن تعود سنوات بعد ذلك، لتصبح أستاذة باحثة في علم الاجتماع بجامعة محمد الخامس بالرباط، عاصمة المغرب.

... والرباط بالنسبة لفاطمة، لم تكن فقط مجرد أفق علمي لتحقيق أهدافها وأحلامها، ففاطمة تسميها «مدينة النور». تقول في حوار مع قناة الجزيرة: «لم أر البحر إلا بعد أن بلغت 18 عاما، وحين كنا نجلس على ضفة «جنان السبيل» بفاس، كنا نسأل سيدة عن شكل البحر، فكانت تقول لنا: أرأيتن هذه البحيرة؟ البحر خَمس منها».

تضيف فاطمة، مفسرة دور البحر في حبها للرباط: «أول مرة رأيت فيها البحر حين قدمت إلى الرباط، أحسست بانبهار لا يوصف. منذئذ بدأ حبي لهذه المدينة. بالمناسبة، أحب جدا السباحة، ولم أتوقف عنها إلا حين جاوزت سن السبعين، وكدت أغرق مرتين. أضف إلى هذا أن جو المدينة، جنّة بينما هو في فاس بارد جدا، لكون المدينة محاطة بالجبال».

يقول أستاذ علم الاجتماع بجامعة محمد الخامس، يونس الوكيلي، في مقال نشرته مؤسسة «مؤمنون بلا حدود» إن فاطمة المرنيسي انتبهت مبكرا إلى أن تناول المشاكل الاجتماعية اليومية للنساء في مسارها العلمي، «سيتعذر دون قراءة نقدية تفكيكية للخلفيات الثقافية التي تؤسس لكل مظاهر معاناة المرأة، ومن هنا رأت أنه ينبغي عليها الاشتغال على الواقع والتراث».

تستشهد فاطمة على ذلك في حديثها مع قناة الجزيرة، بـابن سينا، فتقول إن الأخير في زمنه قال: «إننا بلينا بقوم يعتقدون أن الله لم يهد سواهم»، وهذا يعني أن المشاكل التي كانوا يعيشونها في تلك الفترة هي نفس المشاكل التي نواجهها في وقتنا هذا.

أما كيف يمكن مواجهة هؤلاء، فتقول على لسان ابن سينا أيضا: «العارف لا يعنيه التجسس والتحسس، لا يستهويه الغضب عند مشاهدة المنكر بل تعتريه الرحمة، أما إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصح لا بعنف معير»، ثم تتساءل بعدها: «كيف أمكننا أن ننسى هذا التراث؟».

الواقع أن الوكيلي يؤكد أن هذا الوعي ظهر عند المرنيسي منذ إنجاز أطروحتها لنيل الدكتوراه بالولايات المتحدة الأمريكية، سنة 1973، تحت عنوان «ما وراء الحجاب: الجنس كهندسة اجتماعية».

توالت فيما بعد كتابات المرنيسي التي تزاوج بين قراءتها للواقع والتراث، في محاولة لتشريح مشكلة المرأة في العالم الإسلامي وسبل تحريرها. مثال ذلك، «الإسلام والديمقراطية»، «الحريم السياسي»، شهرزاد ترحل إلى الغرب»، «نساء على أجنحة الحلم»، وغيرها كثير من الكتب، التي

ترجمت إلى لغات عالمية عديدة.

«حينما أذهب إلى الغرب، يظهر لي جليا أنهم لا يعرفون شيئا عما يقع في العالم العربي، فأكثر من دافع هنا عن المرأة هم رجال، مثل قاسم أمين وكمال آتاتورك وعلال الفاسي وغيرهم كثير»، تقول فاطمة. وتضيف موضحة دور الإسلام في ذلك: «هذا المعطى انبثق عن الإسلام، فهذا الدين جاء ليبني العلاقات بين الرجال والنساء، على الحوار والتفاهم والرحمة. اليوم إذ تتحدث عن قضية المرأة، يقولون إنها قضية قادمة من الغرب، أنا أتفاجأ جدا من هذا القول، كيف أمكن أن ننسى ذاكرتنا؟».

يقول أستاذ علم الاجتماع بجامعة محمد الخامس، يونس الوكيلي، في مقال نشرته مؤسسة "مؤمنون بلا حدود"، إن فاطمة المرنيسي فاجأت الباحثين، حينما بينت في كتابها "شهرزاد ترحل إلى الغرب" أن مفهوم الحريم لا يصلح وحسب لقراءة التراث الإسلامي فقط، بل أيضا يفيد في قراءة تراث الفكر الغربي حول النساء.

هكذا، لم تتردد المرنيسي في القول بناءً على نتائج أبحاثها، إن مفهوم الحريم في الغرب أشد احتقارا للمرأة من مفهوم الحريم في الشرق، فـ"إذا كان الحريم في الشرق يحيل على واقع تاريخي ومتخيل للنساء قوة فيه، وأبعد ما يكون عن الشهوانية والفراغ والعري، فإنه في المخيال الغربي يحيل على نساء خاضعات ومستسلمات، يشكلن مرتعا للهو".

بين حريم الغرب والقوافل المدنية... واسمها المستعار

فاطمة المرنيسي وفق كتاباتها، لم تخالف ما ينبع عن الإسلام كديانة، فهي رأت في الحجاب مثلا، وسيلة لتبخيس المرأة جاءت من طرف مَن تناول النص الديني بالتفسير؛ أما موقف الإسلام من المرأة، فهي قد دافعت عليه قطعا، حسب بعض الباحثين.

بل وتؤكد المرنيسي أن النساء لعبن دورا مؤثرا وإيجابيا في التاريخ العربي الإسلامي وتقلدن أحيانا أدوارا سلطوية، غير أنه تم إقصاؤهن من كتب الوصف التاريخي البطولي للحضارة العربية الإسلامية، بمقابل حصر هذه الإنجازات على الرجال.

المنع الذي حيطت به كتب المرنيسي عربيا، بسبب جرأة أفكارها وتناولها لمواضيع عدت من الطابوهات، ساعد في الحقيقة كثيرا على انتشارها، حسب بعض الباحثين. بل إن ما لا يعرفه الكثيرون عنها أنها أصدرت أول كتبها باسم مستعار وهو "فاطنة آيت الصباح". الكتاب كان "المرأة في المخيال المسلم"، وقد صدر في فرنسا (باللغة الفرنسية) سنة 1982، قبل أن تبدأ المرنيسي بنشر كتبها باسمها الحقيقي.

تعرضت المرنيسي لوابل من الانتقادات، خصوصا من طرف زملائها في الجامعة، الذين كانوا يعتبرون أنها ليست سوسيولوجية حقيقية مادامت، في مختلف أعمالها، لا تحترم الشروط الأكاديمية بحذافيرها. ولعل هؤلاء لم يعترفوا بها إلا بعد بروز نجمها في العالم وترجمة كتبها لمختلف اللغات.

في السنوات الأخيرة من عمرها، توقفت فاطمة عن التعاطي المباشر مع القضايا النسائية، ذلك أنها رأت أن المرأة قد بدأت أخيرا تخطو في الطريق الذي كانت تحلم به.

تقدم فاطمة مثالين، يفسران حسب رأيها هذا التراجع. أولا، لأن المرأة قد بدأت تخرج اليوم للشارع، بعدما كانت فيما قبل، مثلا، تعجن الخبز ولا تخرج لبيعه. تقول فاطمة: "نرى أن جل الباعة المتجولين نساء، ومن ثم فالمرأة لم تعد حبيسة بيتها، إنما صارت هي أيضا تخرج إلى الشارع، وهذه بالنسبة لي ثورة اقتصادية باهرة".

أما المثال الثاني، فتقدمه عن ولوج النساء إلى القنوات الفضائية العربية، إذ تقول أن هذا الأمر غيّر تماما من عقلية وتفكير منطقتنا، وتضيف: "نجد في هذه القنوات حوارات تجمع بين النساء والرجال، وهذا الحوار حوار رمزي أساسا، وهذا الأمر بالنسبة لي يعد ثورة أيضا، فالإسلام في الأصل، حوار، حوار بين الجنسين".

لكن فاطمة، استمرت في إطار نضالها من أجل المساواة وحقوق المرأة، إذ أسست ما سمي بالقوافل المدنية. هذه القوافل قادتها إلى جبال الأطلس بغية إشراك المرأة القروية في خضم أسئلة المجتمع. ويُعرف عن فاطمة حوارها الدائم مع الشرائح المهمشة في المجتمع، إذ تعتبرها شرائح خلاقة ولها قدرة فائقة على الابتكار.

تقول كاشفة عن سر ذلك: "ولدت في مدينة فاس، في شارع يوجد قبالة جامعة القرويين، وهذه الجامعة لديها 17 بابا. وهكذا كانت جامعة مفتوحة، فالبائع المتجول بعد أن يبيع ما يبيعه، كان يدخل بعد العصر إلى الجامعة ليستمع إلى المحاضرات التي يلقيها الأساتذة هناك".

وتضيف: "هكذا، ولدت في عالم ليست فيه أي قطيعة بين الشارع والنخبة المثقفة، الشهادة فيما قبل لم تكن تباع، وكانت أبواب العلم والمعرفة مفتوحة للجميع، لكن ما حصل للأسف في العالم العربي أن هناك قطيعة بين النخبة المثقفة والشارع".

لقاء ما قدمته لعلم الاجتماع، للمرأة وللمجتمع كافة، ستحصل فاطمة المرنيسي سنة 2003 على جائزة أستورياس الإسبانية للأدب، وسنة 2004، على جائزة إراسموس الهولندية عن محور "الدين والحداثة"، بل وصنفت حسب صحيفة الغارديان البريطانية، ضمن النساء المائة الأكثر تأثيرا في العالم سنة 2011.

...عن عمر يناهز 75 عاما، تحديدا، في 30 نونبر 2015، ستفارق فاطمة المرنيسي الحياة، والعالم في غمرة حديث عن أعمالها وعن أفكارها، لتشكل بذلك، أحد أبرز علماء الاجتماع في تاريخ المغرب.

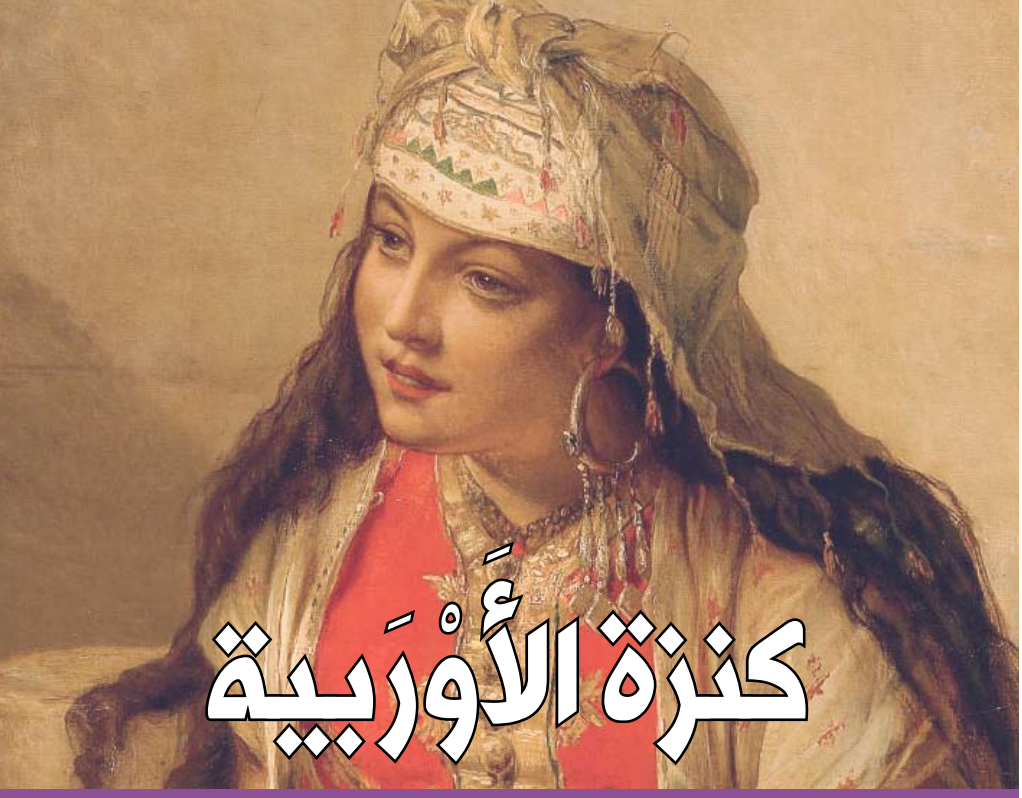

كنزة الأَوْرَبية

المرأة التي دعّمت أركان أول دولة إسلامية في تاريخ المغرب!

صحيح أن حكم الأدارسة في المغرب ناهز القرنين من الزمن، لكن بدايات هذا الحكم مرت بتعقيدات كثيرة، فإدريس الأول مات مسموما دون ذرية... إلا ما تركه جنينا في رحم زوجته.

الجنين كان بعد طول انتظار ذكرا، حكم في شبابه ومات وهو في مقتبل الحياة، مخلفا هذه المرة عددا من الأبناء، كان يمكن أن يطمع كل منهم في السلطة، لكن ذلك لم يحدث ومر بسلاسة...

في خضم كل هذه الأحداث، برزت امرأة لعبت دورا مهما في تدعيم أركان دولة الأدارسة، فهي ابنة أمير وزوجة ادريس الأول، وأم ولي عهده ادريس الثاني، وجدة السلطان الثالث...

امرأة، اسمها كنزة الأَوْرَبِية، وفي هذا البورتريه، نخوض في بعض من سيرتها.

اسمها كنزة الأوربية، البرنوسية التازية المغربية. تاريخ ولادتها ضائع، بيد أن المراجع التاريخية تفيد بأنها عاشت في القرنين الثاني والثالث للهجرة/ الثامن والتاسع للميلاد. هي ابنة إسحاق بن محمد ابن عبد الحميد الأوْرَبي، أمير قبيلة أَوْرَبة، أهم وأشد قبائل المغرب آنذاك. لكن رواية أخرى، تنسبها إلى قبيلة نفزة الأمازيغية.

الحديث عن هذه الفترة من تاريخ المغرب، والحديث عن كنزة الأوربية بالذات، هو حديث بالضرورة عن إدريس الأول، أو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الذي فر من العباسيين في الشرق بعد موقعة فخ، إلى أرض المغرب، تحديدا إلى قبيلة أوربة التي احتضنته.

احتضنته لكونه "شريفا"، سليل آل البيت، فراح ينشر في المغرب الإسلام، ثم التف حوله عدد من القبائل، فبويع عام 172 للهجرة في وليلي، من قبل قبائل زناتة، غمارة، مكناسة وغيرها؛ ثم ما فتئ يحقق انتصاراته على قبائل أخرى كتامسنا وتادلة، ففرض نفسه وسيطرته كقائد بارز، وسلطانا على المغرب.

من هنا، ستنتزع كنزة الأوربية مكانا لها في سطور التاريخ، فقبيلة أوربة قررت توطيد علاقتها بالقائد إدريس بن عبد الله، ولم يكن ذلك سوى عن طريق مصاهرته، فزوجوه ابنة أمير قبيلتهم، كنزة، بمهر 600 دينار، وكان ذلك عام 174 للهجرة.

هكذا أصبحت كنزة زوجة إدريس الأول، وكانت، كما تقول الروايات، ذات جمال وحياء، ورأي ودين. لكن تمدد سيطرة زوجها على المغرب سيمثل تهديدا قويا لهارون الرشيد في الشرق، حتى إنه قرر قتله، فأرسل له رجلا يدعى عبد الله بن جرير، ويلقب بـ"الشماخ"، فتحايل عليه حتى سممه، فمات ولم يمض على ملكه، كما على زواجه، زمن طويل.

انتهت دولة الأدارسة، وانتهى نسلهم، أو هكذا ظن الجميع. ثم، مع توالي الأيام، بدأت بطن الأميرة كنزة الأوربية تنتفخ. إنها حامل في أشهرها الأولى. حينها، برزت في الواجهة مرة أخرى، فالمُلك للجنين، ووجب الحفاظ عليه.

أشهر من الانتظار مرت (تختلف الروايات هنا بشأن مدة الانتظار هذه، حيث اعتبرت بعض الروايات أن الانتظار دام أكثر من سنة، وبعضها أكثر من سنتين... وهذه حكاية أخرى سنعود لها مستقبلا في مرايانا)، لا انتظارا لولي العهد، إنما انتظارا لجنس الوليد، أذكر هو أم أنثى؟

في هذه الفترة، أبانت كنزة الأوربية، حسب بعض المراجع، على رأي راجح، وقوة وشجاعة بالغتين، فحافظت على الحكم والتفت حولها القبائل إلى حين، بدعم من والدها.

ظروف كثيرة، ساعدت على استمرار دولة الأدارسة ونسلهم حينها. هكذا، حين وضعت كنزة وليدها، كان ذكرا، فتحملت عبء تربيته وتنشئته، وإعداده لتحمل الملك. بل وكانت قد اتعطت مما حدث لزوجها، فعكفت لسنوات، وحدها، على إطعام ابنها حتى لا يلحق به سوء.

وحين مقتل والدها، كان الابن الذي أطلقوا عليه اسم والده تيمنا به (إدريس بن إدريس؛ أو إدريس الثاني) يبلغ من العمر 11 عاما، فسارعت تحشد له دعم القبائل وتأخذ له البيعة، فتم تنصيبه وهو حديث عهد بالحياة، سلطانا، بدعم من والدته، كنزة الأوربية.

هكذا... أصبح إدريس الثاني سلطانا على المغرب، وراح يتم ما بدأه إدريس الأول، فأتم بناء مدينة فاس كعاصمة لدولته، وتوسع فيها، وتوسعت دولته، حتى بلغ الخبر علم العباسيين مرة أخرى، فتهيبوا من تهديد دولته، وقرروا قتله هو أيضا، ثم ترصدوا تحركاته.

لكن العباسيين لم يحتاجوا هذه المرة إلى قاتل، فالموت ستسترجع روح إدريس الثاني، إذ وافى أجله وهو بعد في مقتبل الحياة عن عمر يناهز 36 عاما، وكان ذلك عام 213 للهجرة.

مات إدريس الثاني، وكان قد تزوج عن عمر 16 سنة. هكذا، خلف السلطان هذه المرة 12 ابنا ذكرا، وكان يمكن أن تتناسل أطماعهم على السلطة، فتذهب دولة الأدارسة أدراج الرياح. لكن، مرة أخرى، كان لكنزة الأوربية دور في استمرار حكم الأدارسة.

محمد بن إدريس كان الابن الأكبر، وكان حفيد كنزة الأوربية، فبويع سلطانا على المغرب بعد وفاة والده.

وحتى لا ينازع الطمع في الملك نفوس إخوته، أشارت عليه جدته بتعيين ثمانية إخوة له ولاة على المناطق التي سيطر عليها إدريس الثاني، حفاظا عليها من الغزو أو التمرد.

لا شك أن تأثير كنزة الأوربية في الواقع، كان أكبر بكثير مما تذكره الكتابات التاريخية. لكن، إلى هنا، سينتهي ذكر كنزة الأوربية، حتى إن تاريخ وفاتها لا أثر له. يكفي أن هذه الكتابات سجلت أن كنزة لعبت دورا بارزا في تدعيم أركان دولة الأدارسة في المغرب، ويكفي أيضا أن اسمها ما زال شاخصا إلى اليوم.

القـــوّة
أصلا مـؤنـث.
#نـربّـحـو الـريّـاضـة
MDJS
المغربية للألعاب والرياضة
نـربـحـو الـريـاضـة
-18
نلعب
بمسؤولية

أخوات الصفا

حكاية أول منظمة نسائية مغربية بمطالب متقدمة

كلما ورد الحديث عن الحركات النسائية، إلا واعتقد الكثيرون أن هذه الحركات وليدة الاتفاقيات الدولية، وأنها غالبا ما تأتي بدعم غربي، في إطار حملة التغريب والاستلاب والاستعمار الجديد... يمكن أن نجد عددا من هذه الاتهامات عند حركات الإسلام السياسي التي ما فتئت ترفع شعار التغريب – إن لم يكن التخوين أو التكفير أحيانا، وإن بصيغ مبطنة- في وجه الحركات النسائية، لكن...

كثير منهم يجهلون أو يتجاهلون أن أول تنظيم نسائي مغربي، حمل مطالب جد متقدمة، يعود إلى فترة المقاومة، وأن الحركة النسائية لعبت دورا مهما في مكافحة الاستعمار. إضافة إلى ذلك، ضمت وطنيين ورجال دين مخلصين.

في هذا الملف، تعود مرايانا لتسلط الضوء على أول منظمة نسائية في تاريخ المغرب المعاصر، والتي حملت اسم «أخوات الصفا»، وكانت تابعة لحزب الشورى والاستقلال، وتميزت برؤية متقدمة مقارنة مع تلك الفترة التاريخية، كما كان لها امتداد كبير، لم ينل حقه من البحث والدراسة؛ إذ أن هذا التنظيم ورغم أهميته وريادته، تكاد تنعدم حوله الأبحاث.

في إعداد هذه المادة، اعتمدنا على مقال مطول للمؤرخ محمد معروف الدفالي، منشور في مجلة أمل (العدد المزدوج 13-14)، وبعض المقالات الصحفية، وبعض الأعداد من أرشيف جريدة الرأي العام الناطقة بلسان حزب الشورى والاستقلال آنذاك، إضافة لبعض المقالات الصحفية المتناثرة، وبعض اللقاءات الشفوية التي أجريناها مع عدد ممن عايش المرحلة.

منظمة نسائية بدعم من وطنيين وفقهاء

يمكن الوقوف على ثلاثة عوامل رئيسية وراء ظهور حركة أخوات الصفا:

– أولا، السياق الدولي والإقليمي: بعد الحرب العالمية الثانية، تميز هذا الأخير بتنامي حركات التحرر وظهور الحركات النسائية في عدد من البقاع، خاصة في مصر، التي كان لها إشعاع حضاري قوي آنذاك، والتي تطورت فيها الحركة النسائية بشكل ملفت، بدءا بدعوات رفاعة الطهطاوي، مرورا بقاسم أمين، حفني ناصيف... وصولا لهدى شعراوي وأمينة السعيد وفاطمة نعمت راشد، التي كانت أول امرأة مصرية تتولى رئاسة تحرير مجلة المصرية.

– ثانيا، ليبرالية حزب الشورى والاستقلال: كان التوجه العام لحزب الشورى والاستقلال ليبراليا، وكان يعتبر أن تحرير المرأة وتحديث المجتمع، جزء من أدوات توفير الحريات الديمقراطية. محمد بن الحسن الوزاني كان يعتبر مثلا أن المرأة شريكة الرجل في الحياة الاجتماعية، وقد جاء في أحد نصوصه: « نهضة الأمة برجالها ونسائها لا بفريق من أعضائها دون فريق؛ فكل نهضة تقوم على الرجل دون المرأة، إنما هي نصف نهضة. إنها لتكون ناقصة بتراء متخلفة عقيمة بقدر ما يكون في الأمة من نساء جاهلات». لهذا كان من المطالبين بتعليم الفتيات، وفسح المجال للنساء للمساهمة في الحياة العامة.

هذه الدعوة لم يحملها الوزاني وحده، فقد تواجد إلى جانبه عدد من منظري وقياديي حزب الشورى والاستقلال، كالفقيه محمد بن عبد الله، الذي كان من أعمدة تأسيس المدارس الحرة، والذي أدمج أقسام تعليم البنات بها، إضافة لعبد القادر بنجلون وعبد الواحد العراقي وأحمد معنينو، وعبد الهادي بوطالب، وأحمد بن سودة.

– ثالثا وأخيرا، التطور التنظيمي لحزب الشورى والاستقلال: كان حزب الشورى والاستقلال يربط بين مسألتي الديمقراطية والاستقلال، ويحرص على تطوير هياكله.

في هذا السياق إذن، جاءت فكرة تأسيس تنظيم نسائي موازي للحزب، يمكن من خلق امتدادات أوسع للحزب، ويلامس شرائح أخرى لا تصلها أفكاره.

إقبال لافت على التأسيس وتنامي متزايد

يوم الجمعة 23 ماي 1947، ستعرف فاس حدثا استثنائيا، تجلى في عقد المؤتمر التأسيسي لمنظمة «أخوات الصفا»، والذي حضرته وفود نسائية من شتى مناطق المغرب ومن مختلف الطبقات الاجتماعية، وقد قدرت بعض المصادر الشورية عدد المشاركات بثلاثة آلاف مشاركة، وهو رقم له دلالاته، بالنظر إلى طبيعة المرحلة التاريخية التي تم فيها التأسيس.

خلف المؤتمر التأسيسي ضجة حقيقية، تجاوزت المغرب إلى إفريقيا وآسيا والمنطقة العربية، وهو ما دفع المنظمة إلى الاستمرارية، خاصة في ظل الدعم الذي لاقته من عدد من الفعاليات السياسية والثقافية، فعقدت مؤتمرها الثاني بتاريخ 12-13 دجنبر 1948. على غرار

مؤتمرها الأول، كان الحضور كثيفا، وصدرت عن المؤتمر عدة توصيات اعتبرت آنذاك متقدمة.

في يونيو 1951، عقدت المنظمة مؤتمرها الثالث الذي اهتم بالتطوير التنظيمي للمنظمة، مركزيا وعلى مستوى الفروع التي توسعت لأنحاء أخرى من المغرب، كما انفتحت على التنظيمات النسائية التي أخذت في الظهور آنذاك.

تنامي المنظمة المطرد سيجعلها تحظى بتشجيع من السلطان محمد الخامس وابنته الأميرة عائشة، اللذين حرصا على دعوة المنظمة مرارا إلى القصر للمشاركة في بعض الاحتفالات، وعقد بعض المهرجانات الأدبية النسائية، كما حصلت على منح لتنفيذ بعض برامجها.

على المستوى الخارجي، حرصت المنظمة على ربط علاقات مع جمعية «نهضة المرأة المسلمة»، التي كانت تتخذ من تلمسان مقرا لها، كما تبادلت مراسلات مع فاطمة نعمت راشد، رئيسة الحزب النسائي الوطني بمصر.

أخوات الصفا: مواقف جريئة من قضايا الزواج والتحرش والحجاب في خمسينيات القرن الماضي

اعتبرت المنظمة نفسها ممثلة للنهضة النسوية بالمغرب، باعتبارها جزء من الحركة الوطنية؛ ذلك أن المرأة المغربية في عهد الحماية، بحسب المنظمة، كانت تعيش عيشة بدائية بلا حقوق ولا حرمة، و»أن وضعيتها تخالف العصر، وتتناقض معه، بإقصائها عن ميادين العمل النافع، وإقصاء رأيها، وجعلها أداة صماء في يد الرجل يديرها كيفما شاء أنى أراد».

أرجعت أخوات الصفا السبب في هذا الوضع إلى «ثالوث: الجهل والخرافات والأوهام، العسف والإرهاق، إضافة إلى مجموعة من الآفات التي نتجت عن انحراف المسلمين عن دينهم»، واعتبرت أن المرأة، عماد وركيزة النهوض والتقدم، مقياس رقي الأمم، وأن تطور المغرب، لن يتم إلا بمشاركتها وعملها لجانب الرجل في كل الميادين».

من هنا، جاءت دعوة المنظمة المرأة إلى إصلاح نفسها والانعتاق من أغلال الماضي، والتخلص من الانحصار في بوتقة المهام المنزلية و»تجاوز ذلك نحو إبراز الشخصية، ومسايرة الزوج في كل مهام الحياة، والمشاركة في الكفاح من أجل الوطن، الذي ينتظر تضحيات النساء في ميدان القومية وطي المراحل والتخلص من كابوس الظلم والاستبداد».

التعليم... الركيزة الأساسية

كان من بين ما اتجهت إليه المنظمة، مجال التعليم، الذي ركزت عليه في كل مقرراتها، واعتبرته الركيزة الأساسية للقيام بأي نهضة نسائية، لتساهم بذلك في تدريس الفتيات من كل

الطبقات وفي المدن والقرى، رافعة شعار مكافحة الجهل والأمية عند المرأة، والذي يتجاوز معرفة القراءة والكتابة، إلى منح المرأة تعليما يجعلها عضوا فاعلا في المجتمع.

في هذا السياق، جاء انتقاد المنظمة للنظام التعليمي الذي كان يحصر تعليم الفتيات في المرحلة الابتدائية، معتبرة إياه غير مفيد، مطالبة بمتابعة برنامج الباكالوريا، ثم التخصص في نوع من أنواع العلم. كما اقترحت المنظمة لغير الراغبات أو القادرات على المواصلة إلى ما بعد الباكالوريا، والمكتفيات بدور ربات البيوت، نظاما دراسيا مدته أربع سنوات بعد الحصول على الشهادة الابتدائية، تخصص السنتان الأولتان منه للثقافة العامة، والسنتان الأخيرتان لمبادئ علم النفس وفن التربية والتعليم وقواعد الصحة العامة وتدبير المنزل وتربية الأطفال والأشغال اليدوية، مع إضافة المواد التي تتعلق بالفوارق بين الجهات وخصوصية كل منطقة. طبقت المنظمة مبادئها هذه من خلال

منع التعدد، منع تزويج الصغيرات، إلغاء المهور، فتح أبواب الجيش الملكي للنساء:

هذه بعض مطالب "أخوات الصفا"

مباشرة بعد الإعلان عن استقلال المغرب، وتشكيل أول حكومة مغربية، سارعت المنظمة إلى عقد مؤتمرها الخامس الذي صدرت عنه وثيقة اعتبرت بمثابة مذكرة مطلبية وجهتها أخوات الصفا، إلى السلطان محمد الخامس والحكومة المغربية بتاريخ 25 شتنبر 1956. هذه الوثيقة تضمنت نقاطا جد متقدمة، نسوقها هنا كما وردت آنذاك، لأهميتها:

– منع التعدد، ما لم يكن ضروريا، وذلك نظرا للمشاكل العائلية المترتبة عنه.

– منع الزواج المبكر، وذلك لإضراره بالفتاة وبصحتها الإنجابية وبالمصلحة الاجتماعية.

– إلغاء المهور لأن تفاحشه أصبح يقف عقبة في وجوه تشكيل الأسر.

– منع زواج الفتيات الصغيرات من الكهول إلا برضاهن، وفي ظروف استثنائية.

– تخصيص الحكومة لإعانات مالية لمساعدة الأسر متعددة الأفراد قصد المساعدة على ضمان التعليم والتغذية في أحسن الظروف.

– فتح ملاجئ لجميع اللواتي لا قدرة لهن على العمل، ومآوي للمشردات.

– إعداد مراكز في جميع أنحاء المغرب لإيواء العاطلات المغربيات.

– إصدار قانون يقضي باحترام شخصية المرأة ويحفظ كرامتها، ويمنع إهانتها بأي نوع من الإهانات، مع تحديد نوع العقاب للمخالفين.

– فتح الأبواب أمام المرأة لمشاركتها في الجيش الملكي، وإعداد أقسام لها بالمدارس العسكرية، وإرسال بعثات منها إلى الخارج لدراسة الشؤون العسكرية.

– مشاركة المرأة في المجالس الاستشارية والانتخابات البرلمانية، ومراعاة حقها في التصويت.

– تعيين لجان محلية نسوية ببعض المحاكم الشرعية تبث في الخصومات العائلية، وتدافع عن حق المرأة.

– التعجيل بتحويل السجون النسوية إلى مدارس التربية الدينية والأخلاقية والمنزلية.

المدارس الحرة التي كان يشرف عليها رجال الحركة الوطنية المنتمين لحزب الشورى والاستقلال، وعرفت الأقسام الخاصة بالفتيات إقبالا كثيفا، ومعارضة في الآن نفسه، من عدد غير قليل من الأسر والعلماء وغيرهم، ممن رأوا في دعوات أخوات الصفا انحلالا وتفسخا.

لكن الشوريات واجهن الحملة بالاستمرار، وقمن بدروس محاربة الأمية، وتقديم مساعدات مادية للأسر لتشجيع فتياتهن على التمدرس، وخضن معركة شرسة ضد رجال الدين التقليديين، إذ خصصوا عددا كبيرا من المقالات على جريدة الرأي العام لمهاجمتهم، وإبراز عدم تناقض تعليم الفتيات مع النصوص الدينية.

نبذ التقاليد من أجل التحرر

معارك المنظمة لم تتجه لرجال الدين فقط، ولكنها ألقت بسهامها صوب العادات والتقاليد التي اعتبرتها العائق الأبرز أمام تحرر المرأة المغربية، وربطت تحررها بتنظيف أفكار المرأة وتحديثها، والقطيعة مع الماضي، ومحاربة المعتقدات الخرافية التي لصقت بالإسلام من المشعوذين والدجالين. كما دعت المنظمة إلى نبذ عدد من السلوكات والقيم الاجتماعية التقليدية كمظاهر الإسراف والترف، إذ منعت مقررات أخوات الصفا على المنتمين إليها التحلي ببعض المجوهرات وأصناف باذخة من اللباس أثناء المناسبات، والامتناع عن تقديم الهدايا الغالية، وإلغاء أو الحد من المهور، وتنظيم كل أشكال الاحتفالات.

على صعيد آخر، حرصت المنظمة على العمل الخيري والإحساني. لقد تميزت مقاربة المنظمة بالتمييز بين العمل الإحساني الذي يهدف إلى تلبية حاجات المحتاجين، وبين الإحسان الذي يسعى إلى الرفع من مستوى الشخص ومحيطه. لذا حرصت الجمعية على تحسين ظروف الفتيات في وضعية صعبة والاعتناء بهن تعليما وتثقيفا.

معركة من أجل الحجاب

في مقال منشور في جريدة الرأي العام بتاريخ 31 دجنبر 1948، يقدم نموذجا للمرأة العصرية إذ جاء فيه: «الآنسة فاطمة التهامي مثل حي للفتاة المغربية العصرية، تخرج سافرة، لابسة الزي الأوربي، تركب الدراجة، وتقود السيارة، تتقن اللغة الفرنسية، والإيطالية، وتتفاهم بالإنجليزية».

تعكس هذه الفقرة تصور المنظمة للمرأة، والتي خاضت بدورها معركة حقيقية ضد حجاب المرأة، منتقدة إياه باعتباره يشكل انحرافا عن جوهر الدين يجعل المرأة مجرد متاع، ويعطل قدراتها ومواهبها، لذا طالبت بإلغائه أو التخفيف منه، والاقتباس عن الزي الأوروبي دون وقوع في الابتذال.

واجتهدت عضوات الجمعية من خلال مقالاتهن في جريدة الرأي العام أو المقابلات واللقاءات في تقديم مفهومهن للباس، وهو ما بدأ يلاقي صداه عند عدد من الفتيات.

لكن... ما كان لهذه الدعوة أن تمر دون استفزازات، إذ كثيرا ما تم التعرض «للمتبرجات»، من طرف الرجال بالعنف اللفظي والمادي أحيانا. هذا الأمر دفع المنظمة إلى رفع تقرير خاص للسلطان محمد الخامس وإلى باشوات المدن، وذلك بهدف حماية المرأة وردع المتحرشين، والمطالبة بتأسيس حرس خاص في الشوارع يسهر على حماية المرأة من التعرض لأي شكل من أشكال العنف المادي أو المعنوي.

كما اهتمت المنظمة بترسيم الزواج لضمان حقوق المرأة والأطفال، وراسلت وزارة العدل من أجل تنصيب عدلين في كل قرية ومدينة لتولي عقود الزواج، ومنع تزويج الفتيات قبل سن السادسة عشرة، ومنع تعدد الزوجات إلا في حالات استثنائية، وتنظيم قوانين الطلاق والحضانة بما يكفل كرامة المرأة المغربية.

لجنة ملكية وخيبة أمل

أعلن السلطان محمد الخامس عن تشكيل لجنة لوضع مدونة للأحوال الشخصية، وأسند رئاستها لزعيم حزب الاستقلال علال الفاسي، والتي رفعت تصورها لمحمد الخامس ليصدر مدونة الأحوال الشخصية في 19 غشت 1957.

أصيبت منظمة أخوات الصفا بخيبة أمل تجاه مدونة الأحوال الشخصية، إذ رأت فيها تكريسا لدونية المرأة، خاصة من خلال اشتراط الوصاية على المرأة لعقد الزواج، والترخيص بالتطليق وتعدد الزوجات، وغيرها من المواد التي رأت فيها المنظمة هيمنة للروح التقليدية المحافظة.

كان رد فعل أخوات الصفا قويا على المدونة، حيث رفضنها ووضعن موادها وفصولها موضع نقاش، وتساءلن عن دور الإسلام والنصوص الدينية والفقهية في هذا الوضع، وإلى أي حد يعتبر مسؤولا عن تأخير نهضة المرأة. هذا الأمر الذي جلب عليهن نقمة وهجوم شرائح مختلفة من المجتمع بسبب ما اعتبر مسا بالدين الإسلامي.

كانت الفترة آنذاك تشهد تشاحنا أو تطاحنا سياسيا، خاصة بين حزبي "الاستقلال" و"الشورى والاستقلال" وصل إلى استعمال جميع الأساليب، بما فيها الاختطافات والاغتيالات. كما جرى توظيف موقف أخوات الصفا في محاولة لإضعاف الشوريين، وتصويرهن على أنهن تستهدفن المغرب والإسلام.

رغم حدة الهجوم عليهن، اتخذت أخوات الصفا من جريدة الرأي العام منبرا لهن، وخضن صراعا مريرا من أجل توضيح وجهة نظرهن، حيث عملن على التمييز بين الإسلام كنص ديني، وبين القراءات الذكورية للنص الديني، وأن النقد يجب أن يتوجه أيضا إلى منهج التشريع الفقهي وإعادة النظر في أسسه.

مع تصاعد وتيرة الصراع السياسي، خبا صوت أخوات الصفا رغم كل محاولاتهن الاستمرار. لكن غياب الدعم من القوى السياسية، وضيق مناخ الحريات العامة وتنامي سلطة رجال الدين التقليديين، إضافة إلى رفع المتنورين من المثقفين والسياسيين لشعار مفاده أن معالجة القضية النسائية يجب أن تأتي بعد تصفية الأجواء السياسية، وأن النقاش الحقوقي في شقه المرتبط بالمرأة نقاش مؤجل... كل هذا ساهم في إطفاء شعلة حركة أخوات الصفا.

اختفت حركة أخوات الصفا من الحياة السياسية والمدنية، لتطوى بذلك صفحة من مسار تنظيم تميز بأفكار تقدمية مقارنة مع الفترة التي كان فيها، ولم يكتب له أن ينصفه التاريخ، ولا أن تدرس تجربته بالشكل الذي ينبغي أن تدرس به.

العنف الاقتصادي

الوجه الآخر لاستبداد الرجل بالمرأة!

تشير المعطيات الرسمية التي أعلنتها وزارة الأسرة والتضامن، ماي 2019، إلى أن 54.4 بالمائة من نساء المغرب تعرضن للعنف اللفظي أو الجسدي خلال الـ12 شهرا الماضية.
يظهر إذن أن نسبة العنف ضد النساء في المغرب ما زالت مرتفعة، وأحد أوجهه، كما جاء في تعريف القانون المتعلق بمحاربة العنف ضد النساء، العنف الاقتصادي.

المادة الأولى من هذا القانون، التي تعرف بأنواع العنف، تقول إن العنف الاقتصادي يعني "كل فعل أو امتناع عن فعل ذي طبيعة اقتصادية أو مالية يضر، أو من شأنه أن يضر، بالحقوق الاجتماعية والاقتصادية للمرأة".

المشرع لم يسهب في توضيح المقصود بالعنف الاقتصادي، كما يظهر، فما المقصود به؟

بحسب "نظرة للدراسات النسوية"، يشمل العنف الاقتصادي ضد المرأة: "حرمان المرأة من التصرف في الموارد اقتصاديا أو المساهمة في اتخاذ القرارات المالية التي تهمها وتؤثر في مستقبلها والتي تجعلها معتمدة كليا على غيرها".

ومن ثم، يضيف التعريف، "الحرمان من التصرف في ممتلكاتها أو الإنفاق على حاجاتها الأساسية أو حرمانها من الميراث أو التملك وتعريضها لاستغلال اقتصادي".

لتستقصي مظاهر العنف الاقتصادي ضد المرأة، انعكاساته عليها، أسبابه وكذا سبل الوقوف في وجهه، توجهت "مرايانا" إلى عالمة الاجتماع المغربية، سمية نعمان جسوس.

مظاهر عدة تحمل وسم العنف الاقتصادي ضد المرأة!

تقول جسوس لـ"مرايانا" إننا حين نتحدث عن العنف الاقتصادي ضد المرأة، نتحدث في نطاق الزواج، بحيث إن الزوج يمارس على زوجته هذا العنف، الذي يتجلى في مظاهر عديدة.

مظاهر من بينها، أن يراقب الزوج مصاريف زوجته أو أن يستبد بمداخيلها دون اتفاق معها، تقول جسوس مضيفة:

يمكن أيضا أن يمنعها من نشاط مهني معين، كأن تكون مشتغلة في التدليك مثلا، وأن يمنعها من ذلك بسبب لمسها لأجسام الآخرين. يمكن مثلا أن يمنعها من التداوي إذا مرضت. يمكن للزوج كذلك أن يهدد زوجته، إذا رفضت الممارسة الجنسية مثلا لسبب ما، بمنعها من المال...".

توجد مظاهر أخرى عديدة، تؤكد جسوس، ففي فرنسا مثلا، يشمل الأمر استغلال الزوج لبطاقة زوجته الائتمانية، أو أن يأخذ قرضا باسمها دون موافقتها. لكن، رغم هذا التحديد، يمكن أن يمارس هذا العنف وفق جسوس، من طرف الأب أيضا، إذا وسعنا المصطلح؛ حين تشتغل ابنته ويأخذ كل مالها حين الحصول على راتبها، أو حين يأخذ الأخ راتب أخته رغما عنها تحت تهديد ألا يدعها تخرج للعمل مرة أخرى.

يمس المرأة في كرامتها، ويمكن أن يتطور إلى أنواع أخرى من العنف...

تؤكد جسوس أن المرأة حين تكون محرومة من حقوقها، ومن المال وكل ما يتعلق بحاجياتها، يمكن أن تمس في شخصيتها وكرامتها، وهذا يمكن أن يؤدي إلى التهميش والإقصاء، ومن ثم ألا تكون لديها استقلالية.

والحال هذه، يمكن أن تصبح عرضة لأشكال أخرى من العنف، تضيف جسوس، لأن شخصيتها تضعف، ويمكن أن تتصرف هي ذاتها بعنف تجاه زوجها، فيتطور الأمر إلى أنواع أخرى من العنف.

ما زال الرجل يعتقد أن سلطته مستمدة من النفقة...

ترجع جسوس الأسباب إلى عدم وجود حوار، أو موافقة متبادلة بين الزوجين؛ لأن الزواج أولا انسجام، وللزوجة فيه حريتها الخاصة بها ثانيا... يمكن للزوج والزوجة أن يتحاورا وأن يصلا لاتفاق، لكن في سياقنا هذا، لا يوجد اتفاق، إنما تكون السلطة في يد الزوج.

"في الزمن الذي مضى، كان الرجل ينفق على زوجته. لكن، في ظرف السنوات الأخيرة، المرأة أيضا باتت لديها مداخيل... المشكل يكمن في أن الرجل ما زال يعتقد بأن سلطته تكمن في النفقة"، تؤكد جسوس.

الذي حدث أن تحولات مجتمعية كثيرة وقعت في زمن قصير، تضيف جسوس... هكذا، ولو أن المرأة صارت عصرية، عاملة كانت أو لا، يظل الرجل يعتقد بأنه يستمد سلطته من النفقة. "الراجل هو الجيب" كما درج القول. التحولات موجودة إذن، لكن الوقت لم يسمح لها بعد بالاندثار... ومن ثم، فتصوراتنا ما زالت تحكم تصرفاتنا تؤكد جسوس.

جسوس تضيف أنه عادة ما يستغل الرجل سلطته، بخاصة أن المرأة قديما كانت خاضعة، أو كما يقول المغاربة "تحني رأسها"، إذ لم يكن لديها غير زوجها... بينما، اليوم، أصبحت لها استقلالية مادية، ولم تعد تخاف الطلاق. لذا، علاقتها مع الرجل لم تعد تنبني على علاقة سلطوية، إنما على الانسجام والتبادل.

مشكلة القانون عدم تطبيقه، والحل يكمن في التربية...

إذا عُنفت المرأة، فالقانون موجود، إنما المشكلة، تكمن في تطبيقه توضح جسوس. المشكلة تطال أيضا النظام التربوي، بخصوص احترام المرأة، واحترام المرأة للرجل أيضا. جسوس أشارت إلى أن هذا الموضوع لا يطرق إطلاقا في وسائل الإعلام الجماهيري، والأدهى أن المسلسلات ترسخ هذا النوع من العنف. إجمالا، ترى الباحثة في علم الاجتماع أن الأهم من حملات التوعية، هو التربية، والتربية، ثم التربية.

عن التعليم والشغل والعنف... تقرير رسمي يرسم صورة عن "تطور" مكانة النساء في المغرب!

زخمٌ من المعطيات الإحصائية المهمة حول وضعية النساء المغربيات، تقدّمها المندوبية السامية للتخطيط، في دراسة رسمية بعنوان: "المرأة المغربية في أرقام: عشرون سنة من التطور".

في هذه الدراسة، تحاول المندوبية السامية للتخطيط أن ترسم صورة كاشفة عن تطوّر الوضعية السوسيو–اقتصادية للنساء.

المرأة... الولوج إلى المدرسة!

من المعطيات المهمة التي يرفع عنها التقرير النقاب، أنّ ولوج النساء إلى التعليم، ارتفع بشكل ملحوظ خلال العام 2020/2019، إذ بلغت نسبة التمدرس 90،5% في صفوف النساء البالغات من العمر بين 15 و17 سنة، في المجال حضري؛ بالمقارنة مع 75،3% سنة 2010، و56،3% لسنة 2000.

هناك تطوّر ملحوظ، أيضاً، فيما يخصّ ممارسة نساء المجال القروي لحقّهن في التعليم، إذ تكشف الدراسة أنه، بعد ولوج نسبة 6،1 في المائة سنة 2000، و14،1% سنة 2010، بلغت النسبة حوالي 39،2 في المائة خلال العام الدراسي 2020\2019.

أما نسبة المستوى الدراسي للبالغات 25 سنة فأكثر عند متمّ سنة 2020، فإن الأرقام الواردة في التّقرير، تشيرُ إلى أنّ 53% من النساء بدون مستوى دراسي؛ بينما 18% منهن، تمّ تحديد مستواهن الدراسي في التعليم الأولي أو المسيد أو الكتاتيب القرآنية. ثم نسبة 11%، حُدد مستواهن الدراسي في الإعدادي، و10% في الثانوي التأهيلي، لتبقى نسبة 8% للتعليم العالي.

وعن محو الأمّية، فقد ناهزت نسبة النساء البالغات من العمر بين 15 سنة و24، ويعرفن القراءة والكتابة، 90،5 في المائة سنة 2019، بالمقارنة مع 60،4% سنة 2004، و85،2 في المائة، سنة 2014.

النّساء في الشغل...

من جهة أخرى، أشارت أرقام المندوبية إلى حدوث انخفاض في معدل النشاط عند حاملي الشواهد البالغين من العمر ما بين 25 و59 سنة، خاصة في صفوف النساء، إذ بلغ هذا المعدل 33،7 في المائة سنة 2020، مقابل 38،7 في المائة في 2010.

نسبة البطالة كذلك مذكورة في التقرير. خلال سنة 2020، عرفت هذه النسبة ارتفاعا فيما يتعلق بالنساء، إذ بلغت 16،2 في المائة، مقابل 9،6 في المائة في 2010، فيما بلغت نسبة البطالة 10،7 في المائة خلال سنة 2020 في صفوف الذكور، مقابل 8،9 في المائة سنة 2010.

كما بلغ معدل النشاط لدى السكان البالغين 15 سنة فما فوق حسب الشواهد، 43،2 في المائة في صفوف النساء، بالنسبة للمستوى العالي، و14،0 في المائة فيما يخصّ المُستوى المتوسّط، ثمّ 17،7 في المائة، فيما يتّصل بالنّساء بدون شهادة.

بخصوص نسبة الإناث ضمن الفئة النشيطة المشتغلة، حسب قطاعات النشاط الاقتصادي، فقد بلغت 21،4 في المائة في مجال الخدمات، و1،5% في البناء والأشغال العمومية، و26 في الصناعة، بما في ذلك الصناعة التقليدية، و17% في الفلاحة والغابات والصيد البحري.

التّقرير قدم معطيات تخصّ دور النّساء في الحياة العامة وصُنع القرار، فمثلاً، نسبة النساء الوزيرات في حكومة 2021، بلغت 29،1%، مسجلة ارتفاعاً بالنظر إلى نسبة 16،7 خلال 2019، و12،8 في 2011.

هذا بالإضافة إلى تطوّر نسبة المقاعد المحصل عليها من طرف النساء بالبرلمان المغربي، إذ ناهزت 24،3 خلال هذه السنة الجارية، مقارنة مع 20.5% في 2016، و17،0% في 2011.

وعن تواجد النساء في الهيئات الدبلوماسية، فإنّ التقرير يفيدُ أنّ نسبة الجنس النسوي في القنصليات وصل إلى 35،5% سنة 2018، خلافاً لـ 5،8% لسنة 2009. كما بلغت نسبة حضور النساء في السفارات حوالي 25،1% سنة 2018، مقابل 12،0% لسنة 2009.

العنف... نسب متباينة!

ضمن نسبة انتشار العنف ضد النساء البالغات بين 18 و64 سنة، خلال الفترة الزمنية بين 2009 و2019، أكّد التّقرير أنّ العنف المنزلي عرف ارتفاعاً، لينتقل من 51.0 في المائة، ليسجّل 52.1 في المائة.

العنف ضد النساء في فضاء العمل سجّل نسبة 15.4 في المائة خلال سنة 2019 بعدما كان 16.0 في المائة عام 2009. فضلاً عن العنف في فضاء الدراسة والتكوين الذي انتقل من 24،2% إلى 18،9%. ناهيك عن الفضاء العمومي الذي دنا فيه العنف الممارس على النساء إلى 12،6، على خلاف بيّن مع نسبة 32،9% المسجّلة في 2009.

الأشكال التي اتخذها العنف ضد النساء، حسب التقرير، يمكن إجمالها في:

– المس بالحرية الفردية، الذي لامس نسبة 34،6 في المائة سنة 2019، مقارنة بـ31،3 في المائة لسنة 2009.

– العنف النفسي، الذي سجل تراجعاً إلى نسبة 49،1 في المائة سنة 2019، بعدما كان 57،7 في المائة عام 2009.

– العنف الجسدي، الذي انخفض إلى 13،3 في المائة سنة 2019، بعدما احتلّ نسبة 15،2 في المائة سنة 2009.

– العنف الجنسي، الذي وصل 14،0 في المائة سنة 2019، مرتفعاً عن نسبة 8،7 في المائة المسجلة سنة 2009.

– العنف الاقتصادي، الذي بلغ 15،1 في المائة سنة 2019، خلافا لـ8،2 في المائة المسجلة سنة 2009.

المثير في التقرير أنه ذكر أنّ عدد عقود الزواج مع فتيات دون سن الأهلية انخفض ليصل إلى 12600 سنة 2020، وهو الذي كان يناهز 34777 عقداً سنة 2010.

ماذا عن الطلاق؟

لم يغفل التقرير الإشارة إلى استفحال الطلاق في صفوف النساء البالغات ما بين 45 و49 سنة بالمغرب، بالمقارنة مع الرجال، في العالمين القروي أو الحضري.

عدد المطلقات مثّل 77،0 في المائة من إجمالي المطلقين سنة 2014، مسجلاً تدنّيا من 79،1 في المائة المسجلة سنة 2004؛ في حين نسبة الرجال من المطلقين ناهزت 23،0 في المائة، غداة أن حُدّدت في 20،9 في المائة سنة 2004.

نسبة الطلاق في صفوف الجنسين لا تتباين كثيراً في العالمين القروي والحضري، بحيث في سنة 2014، تمّ تحديد نسبة 77،6 في المائة بالنسبة للنساء المطلقات بالمجال الحضري، بينما وصلت النسبة إلى 74،5 في المائة في المجال القروي.

في صفوف الرجال بلغت النسبة 22،4 في المائة في العالم الحضري، مقابل 25،5 في المائة في المجال القروي.

العنف الجنسي... الظاهرة الخفية!

رغم الاعتراف به كظاهرة عالمية، لا يعرفها المغرب وحده، إلا أن العنف الجنسي يواصل تسجيل نسب منخفضة في الأرقام التي تتناول العنف بشتى أنواعه ضد النساء.

قراءة أولية تجعل المرء يظن أن حالات العنف الجنسي معدودة، بيد أن الأمر ليس كذلك كما سنرى.

بالمقابل، ثمة جهود لمكافحة نوع العنف هذا، إلا أن بعض التقارير تؤكد أن المشرع ما زال لا يلمس مكمن العطب مباشرة.

الحكاية الأولى

تعرفت عليه وظلت تتواصل معه لثلاثة أشهر. طلب منها لقاء في طنجة، دون إشعار والدتها، فوافقت. استقبلها بمنزل في مدينة مرتيل؛ ثم، لما رغبا في الخلود إلى النوم مساء، جرّدها من ملابسها. رفضت فقام بضربها بطريقة وحشية. صاحت، طلبت النجدة، لكن دون جدوى. فض غشاء بكارتها، ثم طمأنها بخطبتها، فظلت عنده 4 أشهر

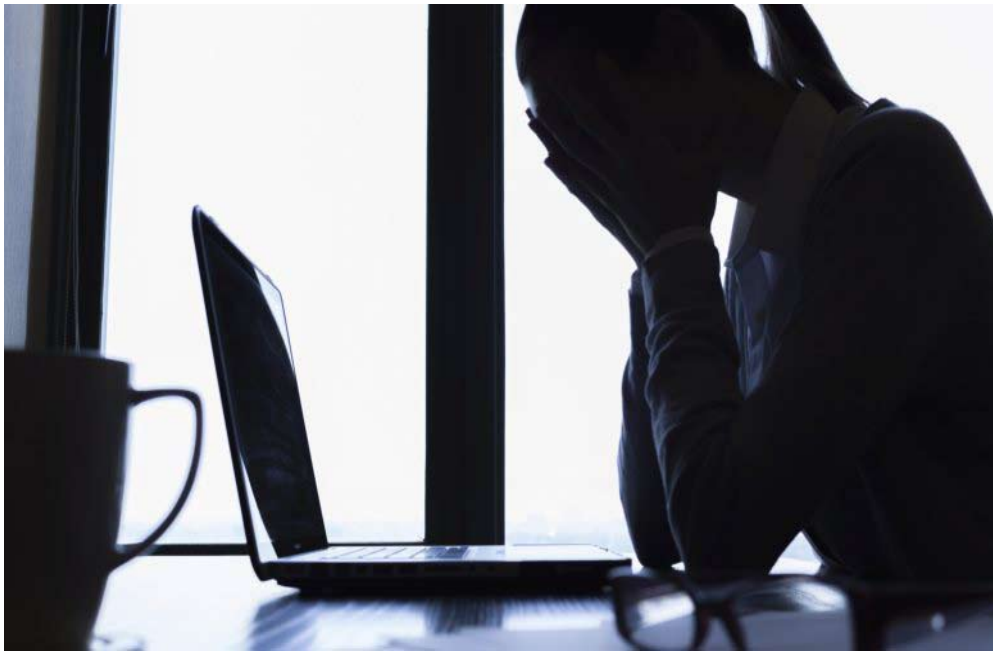

يمارس معها الجنس بشكل طبيعي.

في مرحلة البحث التمهيدي، اعترف المتهم بأنه كان يحرضها للقائه بوعد زواج وإرسال النقود.

الحكاية الثانية

متزوجان منذ 11 عاما، ولديهما 3 أطفال. في الأعوام الأربعة الأخيرة، قبل تقديمها شكوى به، بدأ يسيء معاملتها ويعتدي عليها بدنيا مستخدما عصا وحزاما جلديا. ولتحمي وحدة أسرتها، تحملت الضرب. لكنه ذات يوم، اعتدى عليها جسديا أمام أطفالهما، وقام بإيلاج عضوه في شرجها وفمها دون موافقتها، فقامت حينذاك بمغادرة منزل الأسرة ثم مكثت مع جدتها.

الحكاية الثالثة

قالت إنه عذبها وضربها وألحق بها الأذى، وأودعت رفقة شكواها، شهادة طبية توثق عجزها لمدة تتجاوز 25 يوما.

الذي حدث، كما صرحت، أن زوجها قام، في ليلة الدخلة، بفض غشاء بكارتها بعنف. واستمر يعطيها المهلوسات حتى فقدت وعيها، ثم قام، وبقسوة، بإيلاج عضوه في شرجها.

أقل أنواع العنف ضد المرأة انتشارا؟

كانت هذه عينة من الشكاوى المقدمة لدى المحاكم المغربية، لنساء تعرضن للعنف الجنسي. عينة لمن أفصحن... أما من لم يفعلن، فيدخلن في عداد الرقم الأسود (الجرائم المقترفة، التي لا تشملها الإحصائيات الرسمية، لأن لا أحد علم بها).

في بحث ميداني حول العنف ضد النساء بالمغرب، كشفت المندوبية السامية للتخطيط عن نتائجه في دجنبر 2019، توصلت المؤسسة إلى أن 57 بالمائة من المغربيات تعرضن للعنف، أيا كان شكله أو نطاقه.

رقم تؤكده دراسة لجمعية عدالة، نشرتها في ماي 2019، خلصت فيها إلى أن نسبة العنف ضد المرأة بالمغرب عن ذات السنة، بلغت 54.4 بالمائة.

في نتائج الدراستين معا، يتذيل العنف الجنسي قائمة أنواع العنف الممارس ضد المرأة، ولوهلة، يظن المرء أن الحالات المتعلقة به في المغرب معدودة، لكن...

توضح المندوبية أن 10.5 بالمائة فقط من ضحايا العنف (أقل من 3 بالمائة بالنسبة للعنف الجنسي) قمن بتقديم شكاية إلى الشرطة أو سلطات مختصة أخرى. هذه النسبة ذاتها لا تتجاوز 8 بالمائة إذا تعلق الأمر بعنف زوجي.

ثم... في أحدث استطلاعات "الباروميتر العربي" عن العنف ضد النساء في شمال إفريقيا والشرق الأوسط (نونبر 2019)، نجد أن 9 بالمائة من المغربيات، قلن إنهن إذا تعرضن للعنف، سيلجأن إلى الشرطة، فيما 60 بالمائة قلن إنهن سيلجأن إلى الأقارب، الذكور منهم تحديدا.

حل النزاع بالتسوية أو التدخل الأسري، والخوف من انتقام الجاني، وأيضا مشاعر الخجل أو الحرج، خاصة في العنف الجنسي، كلها أسباب من بين أخرى، تحول وفق المندوبية السامية للتخطيط، دون تقديم الضحايا لشكايات لدى الجهات المختصة.

ذات الملاحظة يوردها تقرير أممي صدر أواخر عام 2019، بعنوان "العدالة والمساواة بين الجنسين أمام القانون"، مؤكدا أن الوصول إلى نظام المحاكم لا يزال متواضع المستوى بالنسبة للنساء الناجيات من العنف.

مع ذلك، يبدو أن هناك نجاحا طفيفا في حث النساء المعنفات على التبليغ، ذلك أن النسبة التي تصل أعلاه إلى 10.5 بالمائة، كانت سنة 2009 تبلغ 3 بالمائة فقط.

نحو التجريم

ترى منظمة الصحة العالمية أن العنف الجنسي، ظاهرةٌ تشكل خطرا على صحة المرأة وتحد من فرص مشاركتها في المجتمع، كما تتسبب لها بمعاناة إنسانية كبرى.

تقرير كانت اللجنة الدولية للحقوقيين قد أصدرته عام 2019، بعنوان "معيقات ولوج النساء والفتيات إلى العدالة في قضايا العنف المبني على النوع الاجتماعي في المغرب"، أكد أنه بالرغم من غياب وثيقة دولية تتناول قضايا العنف الجنسي، إلا أنه لاقى انتشارا كقضية آنية، بما جعل طبيعتها غير المشروعة تنشأ كمبدأ من مبادئ القانون الدولي العرفي.

العنف الجنسي، بحسب المادة الأولى من القانون رقم 103.13 المتعلق بمحاربة العنف ضد النساء، والذي دخل حيز التنفيذ في شتنبر 2018، هو كل قول أو فعل أو استغلال من شأنه المساس بحرمة جسد المرأة لأغراض جنسية أو تجارية، أيا كانت الوسيلة المستعملة في ذلك.

هذا القانون، تقول وزيرة الأسرة والتضامن والمساواة سابقا، بسيمة الحقاوي، في تصريح لموقع "أخبار الأمم المتحدة"، جاء بحزمة من المقتضيات غير المسبوقة... مثل تجريم التحرش الجنسي.

الحقاوي قالت إن الكثيرين لا يعترفون بالتحرش الجنسي كعنف، ويتذرعون بأن الكلام الجميل والطيب والغزل للمرأة لا يضايقها.

لكن...

قانون "قاصر"

ما زالت جرائم العنف الجنسي في المغرب محل جدل. التقرير الأممي أعلاه، الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وصف تصنيف هذه الجرائم في القانون الجنائي المغربي بـ"التمييزي".

مرد ذلك إلى أن هذا القانون لا يعتبر جرائم مثل الاغتصاب وهتك العرض، جرائم ضد الأشخاص، مثلها مثل الاعتداء أو الضرب، إنما ما زال يدخلها في خانة الجرائم ضد النظام الأسري والأخلاق.

التقرير لفت أيضا إلى أنه، بالرغم من تشديد العقوبات على جريمة الاغتصاب، التي تعرّف بـ"مواقعة رجل لامرأة دون رضاها"، ما زال القانون لا يشير إلى الاغتصاب الزوجي كجريمة.

العينة التي تابعناها في البداية، مثلا، عاب تقرير اللجنة الدولية للحقوقيين الأحكام الصادرة فيها، ذلك أنها لم تكيف كجرائم اغتصاب بموجب الفصل 486 من القانون الجنائي.

هكذا، دعت اللجنةُ الحكومةَ إلى تعديل القانون 103.13 لضمان حسن امتثاله للقانون الدولي لحقوق الإنسان والمعايير الدولية.

من ذلك، اعتماد تدابير تشريعية وإجرائية من أجل تمكين القضاء من منح أوامر الحماية وتطبيقها بسرعة ودون أي كلفة لضحايا العنف الجنسي، وأيضا تيسير إجراءات الإجهاض الآمن والقانوني ودون موافقة الزوج، وكذا توفير دعم اجتماعي للضحايا من أجل مساعدتهن على تحقيق استقلاليتهن.

الشعيبية طلال

حلم عصامي امتطى صهوة التشكيل المغربي إلى العالمية

في هذا البورتريه، تتذكر «مرايانا» امرأة صنعت نفسها من لا شيء لتحلق بعد ذلك بالفن التشكيلي المغربي إلى العالمية، وتصبح إحدى أشهر الفنانين التشكيليين، لا في المغرب وحده، بل في العالم أيضا... امرأة اسمها الشعيبية طلال.

بسيطة. عصامية. يرتوي وشم أخضر أسفل ثغرها من بسمتها. لا تتخلى عن عصابة رأسها، ولا عن لباسها التقليدي المغربي. فتاةً صغيرةً تزوجت. أنجبت فنانا، ثم مات الزوج لتبدأ رحلة الأم الأرملة وهي تطرق باب شبابها خادمة في البيوت نهارا، ثم فيما بعد، رسامة في بيتها ليلا.

الحلم، قد تحققه صدفة، لكن أيضا، الإيمان والالتزام والتصميم.

صحيح أن هذا الحلم عصامي، لكنه بأجنحتها امتطى صهوة الفن التشكيلي المغربي إلى العالمية. في هذا البورتريه، نكتشف بعضا من سيرة امرأة المعجزات. امرأة أصبحت شيئا من لا شيء. امرأة اسمها الشعيبية طلال.

طفولة بألوان الفرح والقسوة

بـ «اشتوكة» نواحي أزمور، فتحت الشعيبية طلال عينيها أول مرة، في يوم ما من سنة 1929. وأزمور هذه حينذاك، قرية تضج بالألوان. ألوان ستطبع ذاكرة وشعور الشعيبية إلى سنوات بعيدة.

ككل فتاة من بنات جيلها، لم تحظ الشعيبية بفرصة التعلم أو التمدرس. لم تكد تبلغ الشعيبية سن السابعة، حتى غادرت منزل الأسرة بأزمور للعيش عند عم لها بالدار البيضاء. ثم مع بلوغها سن الثالثة عشر، سرقت منها طفولتها، إذ زوجت برجل طاعن في السن من ورزازات، أنجبت منه وحيدها، الحسين طلال.

الزوج سيتوفى بعد سنتين ليترك الشعيبية أما وأرملة منذ باكر العمر؛ ما اضطرت معه إلى العمل خادمة في البيوت من أجل تربية ابنها والإنفاق عليه... ابنها الذي، منذ دخوله إلى المدرسة، بدأ الرسم يشغف قلبه، فصار هو أيضا مع تعاقب السنين، فنانا تشكيليا.

تتحدث الشعيبية عن طفولتها في حوار لها مع عالمة الاجتماع المغربية، فاطمة المرنيسي، فتقول: «اعلمي أني منذ الطفولة كنت غريبة الأطوار. لقد كنت أصنع من الزهور تيجانا أضعها فوق رأسي، وهذا ما لم يتعود على فعله أطفال «اشتوكة»، فكانوا ينعتونني بـ»المصطية» (المجنونة). كنت فعلا مجنونة بشقائق النعمان والأقحوان».

تضيف الشعيبية تتحدث عن طفولتها النزقة: «كنت أبدو لهم غريبة، لكن هذا لم يمنعني من الاستمرار في أن أغطي معظم جسمي بالزهور. (...) حاولت أسرتي أن توقف هذا الأمر فكانوا يضربونني وكنت أهرب منهم وأختبئ داخل كوم التبن. لعلك لا تعرفين ماذا يعني أن تختبئي داخل التبن عندما تمطر السماء، كل هذا تجدينه في لوحاتي».

الحلم قد تحققه صدفة أيضا

رأت الشعيبية حلما وهي في سن الـ25. رأت فيه نفسها تحت زرقة السماء بأشرعة تدور وبغرباء يقتربون منها يقدمون لها أوراقا وفرشاة. لم تنتظر كثيرا، مع باكر الصباح سارعت الشعيبية إلى شراء دهان أزرق يستخدم لطلاء الأبواب الخشبية، وراحت ترسم ما يجود به خيالها.

اشترت بعد ذلك صبغات مائية ولوحات، فصارت خادمة بيوت في النهار، ورسامة في بيتها الصغير ليلا. في هذا الجو سينشأ ابنها الحسين طلال، ليصير تشكيليا هو الآخر، وربما أيضا، ليفتح باب الصدف لأمه!

في يوم من الأيام، كما جرى أن تبدأ الحكايات، جاء ناقد فرنسي اسمه بيير غوديبير، رفقة التشكيليين المغربيين، أحمد الشرقاوي وأندريه الباز، إلى منزل الشعيبية. جاء في الواقع للاطلاع

على أعمال الابن، الحسين طلال، الذي كان قد شق طريقه فنانا تشكيليا.

لمرح وخفة روح الشعيبية وربما للصدفة التي شاءت أن تعلن بداية مسارها، أخبرت الناقد الفرنسي بأنها ترسم أيضا!

لم تكن خربشات الشعيبية مألوفة، ولم تكن متأكدة من أنها لوحات نفاذة إلى القلوب. حين كشفت عنها للناقد الفرنسي، انبهر أيما انبهار إذ اكتشف أنه يقف أمام فنانة «نابغة». منذ تلك اللحظة، آمن بموهبتها وقدم لها يد العون، فانقلبت حياة الشعيبية رأسا على عقب، لتنظم معرضها الأول سنة 1966 بالدار البيضاء.

مع ذلك، رُفضت الشعيبية طلال من طرف تشكيليين مغاربة. فلماذا كافؤوا لوحاتها بكثير من التقليل؟

وكيف استطاعت أن تتجاوزهم إلى العالمية حد أن تهرب البعض من إقامة معارض مشتركة رفقتها؟.

الشعيبية طلال... لاموني اللي غاروا مني؟

قوبلت تجربة الشعيبية طلال، إلى جانب بعض الفنانين الفطريين الآخرين، بالرفض من قبل المؤسسين الأوائل لحداثة التشكيل المغربي، مثل فريد بلكاهية ومحمد القاسمي ومحمد شبعة وغيرهم.

هؤلاء كانوا ينضوون تحت لواء مجموعة «الدار البيضاء 65»، وانتقدوا الاهتمام المفرط بالفن الفطري ومحاباته من قبل الغرب، كما اعتبروا أن عقلية استعمارية تقف وراء ذلك، تريد أن تجعل من المغرب منتجا للبدائي والساذج، بل وعاجزا عن تأسيس تجربة حداثية تعبر عن هويته وخصوصيته.

يوضح التشكيلي المغربي محمد شبعة هذا الرفض، فيقول: «إن الرفض الذي كنا نطرحه بخصوص الفن الفطري، كنا نسعى من خلاله إلى الحفاظ على الخصوصية الثقافية المحلية والإفريقي [1]».

بجانبه، رأى التشكيلي المغربي فريد بلكاهية، أن الفن الفطري، «شكل من أشكال التعبير العاجز عن التطور والنمو على المستويين الجمالي والروحي، وهو بهذا لا يمكن أن يغير أو يعمق بحثه، لعدم وجود معاناة فنية وهم يحملانه ويعاني منهما [2]».

بالمقابل، رأى آخرون أن هذا الرفض يعد انزياحا عن المعقول، ذلك أن الشعيبية أسهمت بفرشاتها في تأسيس حداثة الفن التشكيلي المغربي هي الأخرى، وإن على نحو مختلف عن المدارس السائدة، ثم إنها، على الأقل، اعتمدت على موهبتها الفطرية وعلى خيالها الدافق، بينما استمدوا هم تجاربهم من مدارس الفن الأوروبية.

تقول عالمة الاجتماع فاطمة المرنيسي في رسالة تودع فيها الشعيبية طلال بعد وفاتها: «مثلك عزيزتي الشعيبية ومثل أمي أو ابنة خالتي، وجدتن أنفسكن ممنوعات من الإقامة في فضاءات الإبداع، غير أنك، عزيزتي الشعيبية، اخترت هذه الرحلة بالذات لتدخلي المشهد، مخلخلة السيناريوهات وأصحابها، مزعجة الممثلين والملقنين، ومعيدة إظهار سراب الجمال طبقا لقانونك الخاص، قانون الموهبة اللامعة».

رغم ذلك... عانقت العالمية

عصامية الشعيبية لا تعني أنها لم تكن تعرف ماذا تفعل. يقول التشكيلي المغربي، أحمد جاريد إن الشعيبية كانت على دراية تامة بشخوص

رسومها، مضيفا: «كانت تلقائية في أعمالها التعبيرية التي تتميز بخيال متدفق وخلاق، وميلها للطفولة جعلها تتخذ الرسم مثل لعبة، فالوجوه الفرحة أو الحزينة تملأ لوحاتها، وإن كنا لا نعرف من هم أصحابها، فإن الشعيبية تعرف جيدا من هم [3]».

في الواقع، تؤكد الشعيبية ذلك، بقولها: «أنا أكرر ولكن هذا مهم مثل رسوماتي وألواني. أنا ملونة في الأصل، وألواني ترمز للحياة والطبيعة. أنا أرسم مشاهد من الحياة العادية وكذلك مواقف غريبة، ورسوماتي تجعلني سعيدة».

تعد الشعيبية بحسب عدد من النقاد، رائدة للفن التشكيلي المعاصر بالمغرب، بل ومدخلا أساسا له، ثم إنها من أوائل من اقتحموا المتاحف الدولية وصالات العرض في العالم. الشعيبية منذ أول معرض لها سنة 1966، عكفت على عرض لوحاتها في مدن عالمية عدة، مثل كوبنهاغن عام 1969، وإيبيزا عام 1974، وباريس في العام ذاته. وهذا غيض من فيض.

أعمال هذه المرأة البسيطة التي يزين وشم بدوي أخضر أسفل ذقنها، والتي لم تتخلّ للحظة عن عصابة رأسها ولباسها التقليدي ولو أثناء عرض لوحاتها، توجد حاليا ضمن المجموعات الفنية لدى عدد كبير من المنظمات الدولية والمتاحف الشهيرة وكبار مقتني اللوحات في العالم.

لعل بعض التشكيليين المغاربة كانوا في الحقيقة يهابون ما بلغته الشعيبية من عالمية ومن نفوذ إلى قلوب الناس، فكانوا لا يرحبون بفكرة القيام بمعارض جماعية تجمع بين لوحاتهم ولوحاتها؛ فالشعيبية، بكلمة، كانت لا تُزاحَم.

في ذلك يقول التشكيلي المغربي، عبد الله الحريري: «كانت بحال السبع كاتبيع كل لوحاتها، وكانبقاو حنا نتفرجو [4]».

نظير ما قدمته للفن التشكيلي، حصلت الشعيبية على الميدالية الذهبية للجمعية الأكاديمية الفرنسية للتربية عام 2003. في غضون ذلك، أدرج قاموس «لاروس الفن بالعالم» اسمها في طياته، كما خصص قاموس أكسفورد الدولي للأعلام، مادة تعريفية بالشعيبية طلال عرفانا بفنها وتاريخه.

في الثاني من أبريل 2004، سيفقد المغرب إحدى نساءه البارزات. امرأة بصمت تاريخ الفن التشكيلي المغربي، بموهبتها الفطرية وعصاميتها، ذلك أنها أخذته على صهوة حلمها، إلى آفاق بعيدة، أو بصياغة أبسط، إلى العالمية.

هوامش

[1] عن بورتريه بعنوان «الشعيبية طلال... فنانة حققت العالمية ورفض حداثيّو المغرب الاعتراف بها»، منشور بجريدة الاتحاد الإماراتية في 2017/01/19.

[2] المصدر نفسه.

[3] عن بورتريه بعنوان «المغربية الشعيبية طلال... طفولة رسم»، منشور بموقع الجزيرة.نت بتاريخ 2014/04/10.

[4] عن بورتريه بعنوان «شخابيط الشعيبية طلال»، منشور بجريدة هسبريس الإلكترونية بتاريخ 2009/04/07.

خناثة بنونة، آمنة اللوه، ثريا السقاط، ليلى أبو زيد وزينب فهمي:

نساء بصمن تاريخ الكتابة الأدبية في المغرب

الكتابة الأدبية النسائية -مع كامل التحفظ على هذا التصنيف؛ لأننا في مرايانا نؤمن بأن الكتابة هي إبداع خارج أي انتماء جنساني-، بدأت تشق طريقها في المغرب منذ زمن طويل، تحديدا إبان سنوات الاستعمار.
ومع أن الحديث عن امرأة تكتب في هذه المرحلة كان يعد ضربا من الخيال، إلا أن هناك نساءً بالفعل، اخترن الكتابة والنشر كوسيلة للتعبير عن أصواتهن، نضالا ضد المستعمر من جهة، وإفصاحا عن هموم المرأة ودفاعا عن حقوقها من جهة أخرى.
ككل تجربة في طور النمو، برزت أسماء عدة منذ ذلك الحين، شكلت محطات بارزة في تاريخ الكتابة النسائية بالمغرب، وإن كانت قلة منهن حظين بالاهتمام والنقد والدراسة، لذلك قد نجد أسماء «مهملة» قلّت في حقها الشهادات التاريخية، أو لنقل انعدمت حتى.
في هذا الملف، نكتشف بعضا فقط من نساء كثيرات، بصمن بدايات الكتابة الأدبية في المغرب!

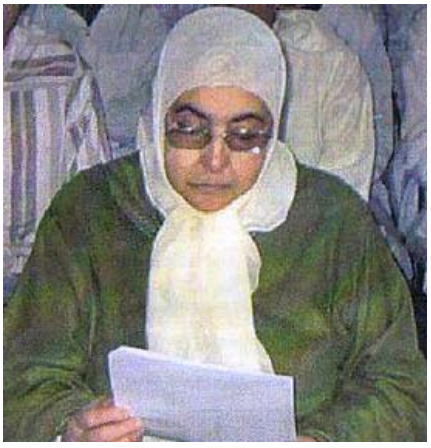

خناثة بنونة

أبصرت خناثة بنونة النور يوم 24 سبتمبر 1940 بمدينة فاس. كأي بنت ولدت في أسرة محافظة تلك الفترة، أراد أبوها أن يزوجها وهي بعد صبية. لكن تدخل علال الفاسي لديه حال دون ذلك، إذ رأى الأخير ضرورة إكمال دراستها، لكونه يتنبأ بنبوغها الأدبي، بل ونجده يصفها بـ: "ابنة المغرب التي لم يلد مثلها من قبل".

وإذ تعترف بنونة بفضل علال الفاسي عليها، فإنها لم تخيب نبوءته، ذلك أنها ستصبح إحدى أشهر أعلام الأدب "النسائي" في المغرب، مع أنها لا تتفق مع هذا التصنيف.

تقول خناثة بنونة في حوار لها مع جريدة "الشرق الأوسط": "أنا ضد هذا المصطلح، لأنه إما أن يكون هناك إبداع أو لا يكون، حيث لا نقول قانون رجالي أو قانون نسائي. الرهان هو النص الحقيقي، أنا ضد كتابة التسطيح، فهي بالنسبة لي ليست أدبا، وللأسف فقد سقط الشعر هو أيضاً في هذا المطب".

كتبت خناثة بنونة عديدا من المؤلفات توزعت بين روايات ومجموعات قصصية. من بين ذلك، "ليسقط الصمت" وهي أول مجموعة قصصية "نسائية" في المغرب وقد كتبتها سنة 1967. نجد أيضا "النار والاختيار"، التي حازت على الجائزة الأدبية الأولى بالمغرب، وقد كتبتها سنة 1969.

مع توالي السنوات، كتبت مؤلفات كثيرة أخرى، مثل المجموعة القصصية التي نشرتها سنة 1975 بعنوان "الصورة والصوت"، ورواية "الغد والغضب" التي نشرتها سنة 1984.

تصف خناثة بنونة تجربتها الأدبية في حوار مع يومية "المساء"، فتقول: "أنا نخلة مغربية طالعة من تراب هذه الأرض، سامقة لا أستطل لا بظل أوروبا ولا أميركا، مع أني أعترف بأني تلميذة للفكر والإبداع الإنساني أينما كان"، وتضيف: "قضيتي ليست قضية التحدي وإثبات الذات، أنا امرأة عادية، صادقة في اختياراتي، متبنية قضايا وطني وهذه الأمة".

وقد ألف اتحاد كتاب المغرب قبل سنوات كتابا بعنوان "خناثة بنونة: في المرايا المنعكسة"، ضمنه

مجموعة من الدراسات والـقـراءات، وشهادات مجموعة من كبار الكتاب والأدباء والنقاد من المغرب وخارجه، بحق تجربة خنائة بنونة الأدبية.

آمنة اللوه

ولدت آمنة اللوه في مدينة الحسيمة سنة 1929، قبل أن تلجأ وعائلتها إلى مدينة تطوان خلال حملة بوشتة البغدادي على قبيلة بقيوة وهي في عمر

> **ولدت ليلى أبو زيد سنة 1950 نواحي مدينة بني ملال، ثم انتقلت إلى الرباط في فترة لاحقة من عمرها لتدرس الأدب الإنجليزي بجامعة محمد الخامس، التي حصلت فيها على الإجازة، قبل أن تسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أتمت دراستها في جامعة تكساس، واشتغلت هناك أيضا في حقلي، الترجمة والتأليف**

صغير، فأكملت هناك دراستها الثانوية ثم سافرت إلى إسبانيا فيما بعد لتتم دراستها الجامعية، خاتمة مسارها الجامعي بدكتوراه في الآداب من جامعة مدريد سنة 1978.

للكاتبة الإسبانية ترينا ميركادير، رئيسة تحرير مجلة "المعتمد" آنذاك، فضل كبير في ولوج اللوه إلى ميدان النشر. فحين بلغها أن اللوه تقيم في تطوان، دفعت الشاعر إبراهيم الإلغي شقيق العلامة المختار السوسي، إلى الاتصال بها للتعاون مع المجلة. نتيجة لهذا اللقاء، ستصبح اللوه زوجة الإلغي فيما بعد.

تعد الرواية التاريخية القصيرة "الملكة خنائة قرينة المولى اسماعيل" أول ظهور للرواية النسائية في المغرب، حسب البعض، وبفضلها حصلت آمنة اللوه على جائزة المغرب للآداب سنة 1954، تنويها بمؤلفها هذا.

آمنة اللوه اشتغلت طوال حياتها في التدريس، وفضلت فيما بعد الانزواء والتواري عن الأنظار، حتى لبت نداء أجلها سنة 2015، لترحل في صمت دون أن يعرف عنها الكثير.

ثريا السقاط

ولدت ثريا السقاط بمدينة فاس يوم 10 أكتوبر 1935، في جو وطني محتقن عقب إصدار المستعمر للظهير البربري. وكان لأسرتها دور كبير في شق طريقها الإبداعي، فأخوها مثلا، عبد الرحيم السقاط، كان من كبار ملحني البلاد آنذاك.

تزوجت السقاط بعد قصة حب قصيرة بالشاعر والمقاوم محمد الوديع الآسفي، وأنجبا أبناء عدة أشهرهم الشاعر صلاح الوديع والناشطة الاجتماعية آسية الوديع.

وقد كتبت ثريا الشاعرة عددا من القصائد انتقت قبل رحيلها عددا منها ونشرتها في ديوان يحمل اسم "أغنيات خارج الزمن". أما ثريا القاصة، فكتبت قصصا كثيرة موجهة للأطفال من بينها "اللبؤة البيضاء"، "فاطمة الموجوعة"، "حوار مع الأمواج"، وغيرها كثير.

بجانب ذلك، كانت للسقاط مساهمة تندرج ضمن أدب السجون، إثر تجارب السجن التي خاضها زوجها وعدد من أبنائها وما عايشته من معاناة معهم، عنونتها بـ"مناديل وقضبان"، وتعد أولى المؤلفات التي تؤرخ للاعتقال السياسي في المغرب.

أصبحت ثريا السقاط عضوا في اتحاد كتاب المغرب سنة 1990، ثم وافت أجلها بعد سنتين. تخليدا لتجربتها الأدبية، أطلق اسمها على مركب ثقافي بالدار البيضاء.

ليلى أبو زيد

ولدت ليلى أبو زيد سنة 1950 نواحي مدينة بني ملال، ثم انتقلت إلى الرباط في فترة لاحقة من عمرها لتدرس الأدب الإنجليزي بجامعة محمد الخامس، التي حصلت فيها على الإجازة، قبل أن تسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أتمت دراستها في جامعة تكساس، واشتغلت هناك أيضا في حقلي، الترجمة والتأليف.

بعيد عودتها إلى المغرب، اشتغلت أبو زيد في الصحافة، ثم عملت بعد ذلك في دواوين وزارية عدة. بجانب ذلـك، كان الأدب قد شغفها، فأصدرت، مجموعتين قصصيتين بعنوان "الغريب"، و"المدير"، إضافة إلى عملين في أدب الرحلة بعنوان "أمريكا، الوجه الآخر"، و"بضع سنبلات خضر".

أول رواية أصدرتها أبو زيد، الكاتبة العصامية كما يلقبها البعض، كانت "عام الفيل"، وذلك سنة 1982، وتعتبر إحدى أشهر رواياتها إذ لاقت إقبالا كبيرا لدى قراء اللغة الإنجليزية حين ترجمت ودرست في بعض الجامعات الأمريكية.

إحدى أهم أعمال أبو زيد غير المسبوقة أيضا، سيرتها الذاتية "رجوع إلى الطفولة"، التي كتبتها سنة 1993، ففاجأت بها عددا من النقاد المغاربة باعتبار أن الكاتبات في المغرب لا يكتبن سيرا ذاتية.

تناولت أبو زيد في "رجوع إلى الطفولة" المعاناة التي عاشها المغاربة في ظل الاستعمار الفرنسي، فيما كانت تقص حكاية طفولتها وما عاشته بعد دخول والدها السجن ومعاناة والدتها في صراعها مع عائلة زوجها.

الحقيقة أن ليلى أبو زيد من المدافعات عن الكتابة عن الواقع المعيش، وتنتقد بالمقابل الكتابات التاريخية. وقد عبرت عن هذا الـرأي في حوار تلفزيوني قائلة: "ما يهمني أنا هو الكتابة عن الواقع الحالي... لا فائدة ترجى من الرجوع إلى الخرافة والتاريخ؛ فبين أيدينا واقع زاخر بالوقائع المعيشية".

زينب فهمي

تعد زينب فهمي الملقبة بـ"رفيقة الطبيعة"، إحدى أبرز الوجوه التي أسست لفعل الكتابة النسائية في المغرب. ولدت زينب بالدار البيضاء سنة 1941 وانضمت إلى اتحاد كتاب المغرب سنة 1968. ونشرت عدة مجموعات قصصية، مثل "رجل وامرأة"، "تحت القنطرة"، و"ريح السموم".

الناقدة المغربية زهور كرام، تؤكد في مقال لها بعنوان "الكتابة النسائية المغربية أفق مفتوح على التنوع"، أن تجربة زينب فهمي، بجانب من سبق ذكرهن، شكلت تأسيسا فعليا للشكل الإبداعي السردي والشعري، اعتبارا لتوظيفهن للكتابة الإبداعية كمجال للتعبير عن قضايا وطنية وقومية واجتماعية ونقابية.

ختاما، يهمنا في "مرايانا" أن نؤكد أن التذكير بمسار هؤلاء الست أديبات، لا ينفي القيمة الأدبية لكاتبات وشاعرات مغربيات أخريات من جيلهن ومن الأجيال اللاحقة.

> **كتبت خنائة بنونة عديدا من المؤلفات توزعت بين روايات ومجموعات قصصية. من بين ذلك، "ليسقط الصمت" وهي أول مجموعة قصصية "نسائية" في المغرب وقد كتبتها سنة 1967. نجد أيضا "النار والاختيار"، التي حازت على الجائزة الأدبية الأولى بالمغرب، وقد كتبتها سنة 1969**

كم يكلّف اقتصاد البلد؟

انعدام المُساواة الجندرية في سوق الشّغل بالمغرب...

لأكثر من عقدين من الزمن، بدأ المغرب ديناميةً لتعزيز المساواة بين الجنسين، قادت البلد إلى جمْلة من الإصلاحات المؤسساتية، كُلّلَتْ بإدماج النساء في المنظومة الاقتصادية والسياسية والثّقافية، إلخ.

لكن...

على غرار الكثير من الدول النامية، فإنّ المغرب لازال يواجه الكثير من التحديات، فيما يتعلّق بالمساواة الجندرية؛ لاسيما تلك المتعلقة بضعف وصول المرأة إلى الفرص الاقتصادية وتفويت فرصِ النّمو، إزاء "نقص" في الإمكانات البشرية المتاحة للمغرب.

للوقوف على معالم هذا "الحيف"، مرايانا تحاول استقراء دراسة بعنوان: "الكُلفة الاقتصادية لانعدام المساواة بين الجنسين في سوق الشغل بالمغرب". صادرة في فبراير 2021، عن هيئة الأمم المتحدة للمرأة ووزارة الاقتصاد والمالية وإصلاح الإدارة، وبتمويل من الاتحاد الأوروبي والوكالة الفرنسية للتنمية.

نشاط المرأة في المغرب... نسب متباينة!

في الفترة الممتدّة بين 1999 و2019، بقيَ معدّل نشَاط المرأة وانخراطها في عالم الشّغل منخفضاً جدّا، حيثُ كانَ يتراوحُ بين 21٪ و30٪. وذلكَ على عكس معدل نشاط الرّجل الذي كان بين 71٪ و 79٪.

لقد لوحظ، بالموازاة، وجود اتجاه تنازلي للتشغيل بالبلاد، يشملُ النّساء والرّجال على حدّ سواء. تذهبُ التفسيرات إلى اعتباره ناجماً عن عوامل عدّة، على غرار تأثير التّقدم التقني وغزو المكننة والتحول العام للطّلب على العمل، ناهيكَ عن التطور الديموغرافي الذي يشهده المغربُ والعالم وانتشار البطالة، فضلاً عن تغيّر دور المَرأة كفاعل اقتِصادي في المجتمع المغربي.

جدير بالذكر أنّ تحليل توزيع السّاكنة النّشيطة والعاملين، حسب الجنس والبيئة وقطاعات النشاط الرئيسية، يكشفُ عن عدّة نتائج.

مثلاً، في المناطق الريفية، فإن حصة الفلاحة في عمل الإناث سائدة ومستقرة، رغم مرور الوقت، عند حوالي 93 ٪.

أمّا من ناحية أخرى، فقد سجّلت حصة الفِلاحة في العمل بالأرياف بالنّسبة للرّجال انخفاضاً، حيث تحوّلت النسبةُ من 75٪ في سنة 1999 إلى 62٪ إبّان سنةِ 2019.

كنتيجة لذلك، فإنّ هذه الاتجاهات تؤثر بقوّة على سلوك إجمالي السّاكنة النّشيطة، حيثُ تحصُل الفلاحة على حصّة الأسد من نشاط المرأة بنسبة 47٪. مصحوبةً، بالمقابل، بانخفاض في حِصة الفلاحة بالنسبة للرّجل، من 40.6٪ في عام 1999 إلى 28.3٪ سنة 2019 لفائدة الخَدمات.

في المَناطق الحضرية، عملُ المرأة يتميّزُ بزيادة حادة في نصيب الخدمَات، التي ارتفعت من 54٪ في عام 1999 إلى 71٪ في عام 2019، على حساب الصّناعة. بالنسبة للذّكور، تزداد حصة الخدمات زيادة طفيفة في المناطق الحضرية، حسب الدّراسة.

على ما يبدو، فالنّسب متباينة بخصوص إدماج المرأة في القطاعات الاقتصادية الحيوية بالبلاد؛ بيد أنّها، على كلّ حال، تبقى ضعيفة مقارنةً مع الفرص المتاحة للرّجل، رغم كلّ شعارات المساواة في العمل التي رفعها المغرب.

من بين العوامل التي ساهمت في ضمور دور المرأة اقتصادياً، هناك الحالة الاجتماعية للمرأة: عازبة أم مطلّقة أم أرملة. إلى جانِب الوضع الاجتماعي والاقتِصادي للزّوج، والذي يحدّد بشكل حاسم القرار المتعلق بمشاركة المرأة في سوق العمل.

هذا دون إغفال القيود العائلية، كعدد الأطفال الذين يعهد للمرأة مهمّة التكفل بهم، والتي تشكّل أيضاً عقبةً رئيسَةً فيما يخصّ ولوج المرأة لسوق الشّغل. كما أنّ هذه القيود، عينُها، تلعبُ إلى حد كبير دوراً في لجوء المرأة إلى النشاط الاقتصادي، بغيةَ تحصيل مصادر دخل إضافية.

المغرب... أي تموقع في المنطقة؟

يكشفُ تحليل إجمالي توظيف الإناث والذكور في المغرب، في قطاعات الفلاحة والصناعة والخدمات، وبالمقارنة مع البلدان الأخرى في منطقتي شمال أفريقيا والشرق الأوسط، عن عدة ملاحظات مهمّة.

النساء المغربيات يعملن في الغالب في الفلاحة، بينما يعمل الرجال في الغالب في قطاع الخدمات.

يختلفُ هذا التوزيع القطاعي للعمل عن نظيره المعتمد في بلدان شمال أفريقيا والشّرق الأوسط (MENA).

في الواقع، فإن نسبة توظيف النساء في قطاع الخدمات أعلى، بشكل عام، في البلدان القريبة من المغرب، كتونس ومصر مثلاً. ممّا يعني أن الخدمات تُشكل القطاع الرئيسي لتوظيف النساء على نطاق واسع في هذه البلدان.

تحليل نسبة النساء والرجال في التوظيف القطاعي في المغرب، مقارنة ببلدان المنطقة، يشير إلى أن المغرب لازال يعاني، إلى اليوم، من مشاركة منخفضة

للمرأة في سوق الشّغل، بمعدل مشاركة يقدّرُ بـ27.5٪ في 2018، وفق مؤشّر التنمية العالمي WDI.

البلد يشكو، أيضاً، من نسبة منخفضة من توظيف الإناث في الخدمات بنسبة 29.5٪ من إجمالي اليد العاملة في القطاع، وهو ما يوضّحُ أن 8.1٪ فقط من الإناث في سن العمل، يعملن في الخدمات مقابل 34٪ للرجال. فضلاً عن أن نسبة 5.1٪ فقط من النساء

في سن الشّغل يعملن في الصناعة، مقابل 14.3٪ في الفلاحة. ولربما "الكارثة" أنّ 72.5٪ من النساء في سن الشّغل، لا يعمَلن في أي نشاط اقتصادي منتج من القطاعات الثّلاث!

تبقى، إذن، معدّلات مشاركة المرأة المغربية في الأنشطة الاقتصادية متدنّية وهزيلة... وتظلّ نسبة النّساء العاملات في قِطاع الخدمات منخفضة في المغرب مقارنة مع دول المِنطقة وضعيفة جدا بالنّظر إلى وضعِ الدول المتقدّمة...

انعدام المساواة بين الجنسين في قطاع الخدمات بالمغرب، ينبغي النظر إليه انطلاقا من حرمان المرأة من حقها في التعليم، كعامل يؤثر بشكل مباشر على تعميق اختلال التوازن بين المرأة والرجل، من حيث الوصول إلى القطاع، وبالتالي إلى سوق العمل.

بهذا، تكون الدّراسة قد بيّنت مكاسب كبيرة يمكن اللّجوء إليها لخلق النمو، من خلال بلورة تدابير تجمع بين الحد من انعدام المساواة بين الرجل والمرأة في الحصول على التعليم من جهة، وكذلك فيما يتعلّق بالوصول إلى النشاط الاقتصادي من جهة ثانية.

المساواة في العمل... نحو قِيمة مضافة!

بالاعتماد على معطيات مؤشرات التنمية العالمية WDI، فإن الزيادة في تشغيل الإناث، النّاتجة عن تقليص الفجوة المُنتصبَة بين عمل الإناث والذكور في قطاعات الخدمات والصناعة والفلاحة، تُساهمُ بشكل مفصليّ في ارتفاع القيمة المضافة للقطاعات المعنية. هكذا، فإن تقليص الهُوة بين توظيف النّساء والرجال في الخدمات، بنسبةِ 25%، سيؤدي إلى زيادة القيمة المضافة للقطاع، بشكل يتراوحُ بين 8 و13٪.

أكثر من ذلك، فإن التّقليل من حدة التفاوتات الجندرية في القطاع، بنفس النسبة، أي 25٪، من شأنِه أن يُساهم في الرّفع من إجمالي النّاتج الداخلي الخام للبلد، بمعدّل 5.5٪. فضلاً عن الزيادة في نصيب الفرد من النّاتج المحلي الإجمالي، بنسبة تتراوح ما بين 5.7 إلى 9.9 في المائة.

كما يمكِن لتقليصٍ مماثل في الفجوة بين توظيف الجنسين، في مجالي الفلاحة والصناعة، أن يقود نحوَ زيــادةٍ بنسبة 6-7٪ في النّاتج الإجمالي لهذه القطاعات.

عندما يتساوى تشغيل الإناث مع توظيف الذكور في الخدمات، بمعنى تقليص الفجوة بنسبة 100٪، فإنّ ذلك، حتماً، سيمكّن من تحقيق زيادة في القيمة المُضافة للقطاع تتراوحُ من 29٪ إلى 37٪، وتزدادُ، بالتّبع، حصّة النّساء العامِلات في الخدمات من 9٪ إلى 28٪.

وحين تتكافؤُ الفرص بين الجنسين في الولوج إلى الشّغل في قطاعي الصناعة والفلاحة كذلك، فإنّ نسبة النّساء العاملات في الصناعة والفلاحة ستتحوّل من 21٪ إلى 43٪. وهذا، عملياً، يمكن أن يساهم في زيادة القيمة المضافة للقطاعين بشكل يتراوحُ بين 22٪ و25٪.

مما لا شكّ فيه، وفق الدّراسة، أن تقليص الفوارق بين الجنسين بنسبة 100٪ من حيث الوصول إلى العمل في قطاع الخدمات، سيؤدّي إلى زيادة بنسبة 32٪ إلى 45٪ من قيمته المُضافة.

وبالمثل، فإن القَضاء التّام على فجوة التّوظِيف بين النساء والرجال في القطاعين الصناعي الفلاحي سيولد نمواً بنسبة 24٪ إلى 28٪ في النّاتج الإجمالي لهذه المجالات.

في النهاية... فإن غياب المساواة الحقيقية في سوق الشّغل هو بمثابة خسارة كبيرة للاقتصاد الوطني، لأنّ إنصاف النساء اقتصادياً من المسارات التي يجب اتّباعها لخلق أسس نموّ شامل وتنمية مستدامة، لا يمكن إغفال الدور الذي يمكن للمرأة أن تقوم به في صناعتهما.

إنها عامل من عوامل الإنتاج وخلق الثروة، ولكنها تحتاجُ فقط إلى ضمان حقها في الشّغل وتعزيز رأس مالها البشري، لبناء مجتمع مندمج يثمّن كافّة أفراده...

سعيدة المنبهي

ثورية لم يقتلها الموت

«سبق لي أن شرحت لك
يا صغيرتي
ـ ليس كما شرحت لك ذلك المعلمة ـ
إنهم لا يضعون في السجن اللصوص فقط
إنهم يسجنون أيضا الذين يرفضون
الرشوة
السرقة والعهارة
أولئك الذين يصرخون
كي تصبح الأرض
لمن يحرثونها».

هذه الكلمات، بعض من قصيدة كُتبت بين أسوار السجن المدني بالدار البيضاء سنة 1977.

هذا الشعر، البسيط الواضح الرنان، المترجم إلى العربية، كان لامرأة لم تبصم على حياة عادية، مع أن حياتها كانت قصيرة (25 سنة).

امرأة تنفست الحرية، ودافعت مثلما ليس له نظير، عن «عـرق سواعد تنشر الخيرات، ثم تبترها أنياب آلات الرأسمال».

امرأة اسمها سعيدة المنبهي، اسمها قد يكون محفورا في ذاكرة الكثيرين، وإن لم يكن، فسعيدة أول امرأة عربية ماتت/»استشهدت» إضرابا عن الطعام، دفاعا عن حقوق شعبها من المظلومين.

ميلاد ونشأة مناضلة

في حي شعبي اسمه رياض الزيتون، بمدينة مراكش، صرخت سعيدة المنبهي سنة 1952 لأول مرة، معلنة عن ولادة امرأة، لن تبصم على حياة عادية.

ومع ذلك، كانت طفولتها ونشأتها عادية، تقول عنها والدتها: «لم أجد صعوبة في تربيتها. كانت متواضعة، مجتهدة، تطالع باستمرار، تحب الأطفال، وكانت دائما وهي في طريقها إلى البيت، تصحب معها الأطفال الرعاة قصد إطعامهم، وبدورهم كانوا يعترضون طريقها ليقدموا لها الزهور».

في ثانوية أبي العباس السبتي مراكش، ستنال سعيدة المنبهي سنة 1971 شهادة البكالوريا، لتسافر بعد ذلك إلى العاصمة الرباط، لتتم دراستها الجامعية، ثم ستحصل بعد ذلك على إجازة في الدراسات الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة محمد الخامس. لم تتأخر كثيرا حتى التحقت بالمركز الجهوي للتربية والتكوين بذات المدينة، فأصبحت أستاذة بالسلك الأول، تدرس اللغة الفرنسية بإعدادية الخوارزمي في الرباط.

في غضون ذلك، كانت سعيدة المنبهي ناشطة في صفوف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، ثم التحقت بالاتحاد المغربي للشغل، ليستقر بها شغفها النضالي في الأخير، بمنظمة «إلى الأمام».

الواقع أن أسرة المنبهي لم تقدم مناضلا واحدا وحسب، فسعيدة هي أخت عبد العزيز المنبهي، الذي كان رئيسا للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بعد مؤتمره لسنة 1972. هذا الأخير كان أول من أقر في الاتحاد بأن القضية الفلسطينية هي قضية وطنية، كما أنه اختطف سنة بعد ذلك وعذب وسجن، وبعد أربع سنوات أفرج عنه وغادر المغرب ولم يعد إليه إلا سنة 1994.

سعيدة المنبهي: «تذكروني بفرح»

قاد النضال السري في منظمة إلى الأمام جل نشطائها إلى المعتقل السري درب مولاي الشريف بالدار البيضاء. سعيدة المنبهي كانت واحدة منهم. بمعية ثلاث مناضلات بالمنظمة، «اختطفن» يوم 16 يناير 1976، وتمت قيادتهن إلى درب مولاي الشريف، ثم مكثن هناك لثلاثة أشهر حسب بعض الشهادات، تعرضن خلالها لأبشع أنواع التعذيب النفسي والجسدي، ثم نقلن بعد ذلك إلى السجن المدني بالدار البيضاء.

حُكم على سعيدة المنبهي بخمس سنوات حبسا نافذة بتهمة الضلوع في أنشطة معادية للدولة، إضافة إلى سنتين بتهمة الإساءة للقضاء الجالس. أثناء محاكمتها، لم تتوان عن الدفاع عن حق تقرير المصير، كما أدانت الوضع المأساوي للمرأة في المغرب.

تروي والدة سعيدة المنبهي، عن فترة حبس ابنتها: «خلال زياراتي لها بالسجن، كانت سعيدة تردد رغم كل الحواجز المفروضة، إنني هنا يا أمي من أجل العيش الكريم لشعبي. إن معنوياتي عالية باستمرار. إن المستقبل لضحايا الاضطهاد الطبقي والاستبداد السياسي. إنني لا أخاف القمع. إنني أؤمن بقضيتي، قضية كل الجماهير».

بعد مجموعة من «المعارك النضالية»، خرجت منها سالمة، دخلت سعيدة المنبهي مع رفاقها في إضراب غير محدود عن الطعام، في 8 نونبر 1977، وذلك للاعتراف بهم كمعتقلين سياسيين وأيضا لتحسين ظروف سجنهم وفك العزلة عنهم.

هذا الإضراب بلغ جهد جسد سعيدة المنبهي فيه، 34 يوما، وبعد ذلك لم يعد قادرا على التحمل أكثر، فنقلت إلى مستشفى ابن رشد في الدار البيضاء في 11 دجنبر 1977. كان اليوم يتزامن مع عيد الأضحى، وبسبب الإهمال، انسل الموت إلى سعيدة المنبهي، لتفارق الحياة في عمر الزهور، عن سن لا يربو عن 25 ربيعا.

تاريخ المحنة... يوثقه الشعر أيضا

يقول الأديب المغربي عبد اللطيف اللعبي عن تجربة سعيدة المنبهي في كتابة الشعر: «بدأت سعيدة تكتب الشعر بأظافرها على حائط الزنزانة. كان ذلك في سنة 1976 بالسجن المدني بالبيضاء. كانت تكتب ولا تنقح لأنها لم تكن تفكر في أضواء الشهرة ولا في المخبرين وجواسيس اللغة».

كتابة الشعر لم تكن فعلا تفريغيا بالنسبة لسعيدة، بل أكثر من ذلك بكثير، فهو في عينيها، تأريخ للمرحلة. يضيف عبد اللطيف اللعبي في تقديمه لأشعار سعيدة، بعدما قام بترجمتها إلى العربية، ونشرها بمجلة البديل سنة 1982:

«كانت تؤرخ المحنة العادية وتفتح قلبها على مصراعيه للطيور المطاردة، للأطفال الموشومين بالفاجعة، للنساء الثكالى اللواتي جردهن الاستغلال والقهر من أثداء العطاء، لرفيق العمر المفصول عنها بكيلومترات الأسوار والعسس، للأنجم المسافرة من قلعة منفى على طول وعرض الوطن الكبير».

بجانب ذلك، لم تستطع فترة السجن التي قضتها سعيدة أن تنسيها هموم وقضايا شعبها، إنما دخلت في علاقات مع سجناء وسجينات، استطاعت من خلال استجوابهم، ووفاءً لدربها النضالي، كتابة مجموعة من المقالات تعالج فيها مواضيع إنسانية واجتماعية، مثل مقالها الشهير «حول العاهرات بالمغرب»، والذي تناولت فيه شهادات سجينات عن وضعهن المأساوي كبائعات للجنس.

ترى الباحثة في العلوم السياسية، هند عروب، أن للحب حضور ملفت على مدار قصائد سعيدة ورسائلها، فبه قاومت وتماسكت إلى أن رحلت. فحبها لعائلتها فردا فردا، كان متفجرا في الرسائل وتفاصيل أحاديث هذه الرسائل.

أما عن رسائل سعيدة لعائلتها، تقول عروب: «لا ننكر أن دور العائلة جلي في مد جسور الرسالة، الشيء الوحيد الذي يصبر المعتقلين ويشد أزرهم. كانت سعيدة تتحدث مع أخواتها عن كيفية تربية الأولاد ومعاملتهم، عن ذكرياتها مع إخوتها ووالديها، عن أحوالها داخل السجن، حنينها واشتياقها لتقبيلهم. والجميل في رسائلها أنها هي من كانت تطمئنهم عليها».

كلما حلت ذكرى رحيل سعيدة المنبهي، ظل اسمها يتردد في آذان وقلوب وعلى لسان رفاقها الذين لم ينسوها... كيف لا، وهكذا تكلمت سعيدة، قبل رحيلها:

«تذكروني بفرح، فأنا وإن كان جسدي بين القضبان الموحشة فإن روحي العاتية مخترقة لأسوار السجن العالية وبواباته الموصدة وأصفاده وسياط الجلادين الذين أهدوني إلى الموت. أما جراحي، فباسمة، محلقة بحرية، بحب متناه، تضحية فريدة، وبذل مستميت».

أجيال AJIAL

لحماية حقوق الإنسان والنهوض بها

ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⴰⵊⵉⵢⵍ ⵏ ⵜⵣⵔⴰ ⴷ ⵜⵙⵙⵓⵖⵓⵔⵉ ⵏ ⵜⵣⵔⴰ ⵏ ⵜⵎⵓⵔⵉ

FONDATION POUR LA PROTECTION
ET LA PROMOTION DES DROITS DE L'HOMME

مؤسسة أجيال تساهم

في حماية حقوق الإنسان والنهوض بها
ونشر ثقافة حقوق الإنسان

www.fondationajial.ma

الزهراء الكوش... حمامة مراكش!

لم تكن الزهراء الكوش تعلم، إذ رفضت الزواج من السلطان، وآثرت لقب أمة الله، أن شهرتها بين الناس ستزداد، بعدما اشتهرت في البدء بكونها ناسكة متعبدة، تكثر من الصلاة والذكر والصدقة...

الزائر لجامع الكتبية بمراكش، سيلحظ دون شك بجانبه، ضريحا صغيرا مغلقا ذا قبة بيضاء... ولا شك أيضا أن الكثير من هؤلاء قد يتساءل: من يرقد في هذا الضريح؟

من ووري ثرى هذا الضريح، امرأة عاشت في العصر السعدي، واسمها الزهراء الكوش... ناسكة متعبدة، آثرت أن تلقب بأمة الله العذراء، وبلغت في ذلك حد رفض عرض زواج من... السلطان نفسه.

في هذا البورتريه... نقص بعضا من حكاية الزهراء الكوش، المرأة المغربية التي لقبت بـ «حمامة مراكش».

نشأة ولية

هي ابنة أم ذات أصول فاسية، وشيخ اسمه عبد الله الكوش، عرف بمواجهته للبرتغاليين في تخوم أزمور، في عهد السلطان زيدان بن أحمد المنصور. تدعى الزهراء، الزهراء الكوش، ولدت نهايات القرن السادس عشر للميلاد.

كانت لعبد الله، والد الزهراء، زاوية في مراكش، تفرعت عن الزوايا الجزولية التي تنتمي لمحمد بن سليمان الجزولي، أحد أقطاب التصوف المغربي.

في هذه الزاوية نشأت الزهراء، حيث لقنها والدها وشيخها في الآن ذاته، تربية روحية وصوفية، وعلمها أصول الفقه والشريعة الإسلامية.

لم يكن الوحيد في ذلك... عبد الله كان ذا عقل راجح، واشتهر بين الناس بالصلاح، وبلغ مبلغا مشهودا بين أولياء الزوايا. لذلك، كان بيته، ومن ثم محيط الزهراء، يعج بالعلماء والفقهاء، والأولياء.

بعض المصادر التاريخية، تشير إلى أن جمال الزهراء كان باهرا لكنها تقابله بِوَرَع استثنائي، فكانت بذلك أشهر متصوفات زمانها. ومع ما كانت عليه من جمال، رفضت مطلقا الزواج، لذلك اشتهرت باسم العذراء.

لن أتزوج... ولو كان الخاطب السلطان نفسه!

صيت والد الزهراء ذاع بين أهل مراكش، أيضا، بكرمه وسخائه. كان يطعم وفق بعض الروايات ألفي ومائتي شخص. ما بلغه من حب في نفوس المدينة، جعل سلطان الدولة السعدية آنذاك، زيدان بن أحمد المنصور، يتوجس منه. في أثناء ذلك، مجالس عدة كانت تقيمها الزهراء للنساء، للحديث عن مزايا الجهاد. بلغ ذلك إلى علم القصر، فرأى السلطان بعد تفكير أن يطلب المصاهرة، كوسيلة ليأمن جانبه من الكوشيين.

تقدم السلطان لخطبة الزهراء... كان يفترض أن تقبل، فمن هذه التي سترفض عرض زواج من طرف السلطان نفسه؟ من هذه التي سترفض العيش في القصور المخملية؟

لكن الزهراء... رفضت!

هنا...انقلب السؤال: من هذه حتى تتجاسر على رفض الزواج من السلطان؟ هكذا، بلا شك، تساءل زيدان، فكان للأمر عواقب على الزهراء.

اعتقل السلطان الزهراء وسجنها... محنةٌ لم تنته إلا بتدخل مجموعة من الفقهاء والأعيان لدى السلطان، حتى يطلق سراحها.

أفرج السلطان عن الزهراء، لكنه دبر مكيدة للإجهاز على أملاك والدها تحت ذريعة التهرب من دفع ضرائب جديدة فرضها على الزوايا، فقام بنفيه إلى مدينة فاس.

تصوف امرأة

في ذكر الزهراء، يقول العلامة محمد بن أحمد الحضيكي، في كتابه "طبقات الحضيكي":

"السيدة الفاضلة، الناسكة الصالحة، المباركة الزكية، الطاهرة الفالحة، السالكة مسلك الأخيار، المعمرة أوقاتها بالصلوات والأذكار، العارفة الكبيرة، التقية الشهيرة، كانت من أهل القدم الراسخ في العرفان، ومن أهل الولاية الظاهرة، كانت رضي الله عنها من أولياء الله المتبعين، والنساك الصادقين، العارفين، ولها قدم راسخة في ذلك". تقول بعض الروايات، إن النساء كن ذات يوم في موسم يقام بزاوية والد الزهراء بحومة الكتبيين، فإذا بصبي أراد أن يمتع ناظريه برؤيتهن، فما جاء في عقله إلا أن يلتحف ما التحفته النساء فيدخل بينهن.

ثم لما دخل الزاوية، عميت عيناه من حيث لم يحتسب، فصار لا يرى شيئا، ورجع خائبا فاقدا للبصر، حتى تاب عن ذلك، فرد إليه بصره، بذلك، تقول بعض المصادر التي تؤرخ الواقعة، اعتقد بكمال الزهراء.

يقول الباحث الأنثربولوجي المغربي فريد الزاهي: "تقدم لنا التجربة الصوفية صورة أخرى من صورة هذه الثنائية التي نحاول اكتناه مدلولاتها. فالتصوف تجربة للتعالي والتجرد من الوسائط الطبيعية. لذا ليس من

الغريب أن تتحول المرأة إلى كيان مقدس بدخولها التجربة الصوفية، التي من خلالها تتجاوز وضعيتها الدونية في التراتبية الوجودية".

الزاهي يضيف أنه "يكفي في هذا المضمار النظر إلى القيمة التي اكتسبتها المتصوفة الأولى "رابعة العدوية" في الحقل الثقافي العربي لكي يتبدى لنا أن المستوى الرمزي كفيل بتحرير الاجتماعي من مقدماته ونتائجه، وقد عرف المجتمع العربي الكثير من المتصوفات اللواتي كن يتحولن إلى كيانات مجاوزة للذكورة والأنوثة زهدا وتعبدا ومجاهدة في النفس".

المثال الذي تذكره المصادر على ذلك في المغرب هو: "الزهراء بنت الولي سيدي عبد الله الكوش".

حمامة مراكش

لم تكن الزهراء تعلم، إذ رفضت الزواج من السلطان، وآثرت لقب أمة الله، أن شهرتها بين الناس ستزداد، بعدما اشتهرت في البدء بكونها ناسكة متعبدة، تكثر من الصلاة والذكر والصدقة.

كعادة سير حياة مثل هذه، سيتخلل ذكر الناس للزهراء بعض الأسطورة. المخيلة الشعبية في هذا الصدد كانت جامحة، فكثيرا ما تردد بأن الزهراء تتحول ليلا إلى حمامة تنشر السلام في مراكش وما جاورها.

رواية أخرى شفهية، تفيد بأن أولى كراماتها، حدثت إذ أرغمت على الزواج من السلطان، فتحولت يوم عرسها إلى حمامة، وأصيب السلطان بالعمى. وحتى يستعيد بصره، أتوا له بريشة من جناحها. هذا، طبعا، أمر تنكره المراجع التاريخية، إذ تؤكد أنها رفضت الزواج منه أصلا، كما ذكرنا سابقا.

العذراء، الزهراء الكوش، توفيت عام 1027 للهجرة، ووريت ثرى زاوية والدها حيث يشخص اليوم ضريحها، ذو القبة البيضاء، بجوار مسجد الكتبية، بيد أنه مغلق... ليس بمزار لأحد، مع أنه يثير كثيرا من الأسئلة في نفوس العابرين، حول هوية صاحب أو صاحبة ذاك الضريح.

نجاة مختار... ابنة تاونات، أول إفريقية وعربية تتولى منصب نائب المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية

في الـ1 من يناير/كانون الثاني 2019، عُينت المغربية نجاة مختار نائبةً للمدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية ورئيسةً لمديرية العلوم والتطبيقات النووية بالوكالة.

سليلة إقليم تاونات، قرية أبامحمد بالتحديد، تعد اليوم أول امرأة إفريقية وعربية تتولى المنصب داخل الوكالة الأممية.

مؤخرا، وبمناسبة يوم المغترب العربي بالنمسا، كَرّمت بعثة جامعة الدول العربية بفيينا نجاة مختار عرفانا بمسارها المهني "الحافل".

تكريم عدّته نجاة تجسيدا لثقافة الاعتراف ودعوة إلى مزيد من الجهد والعطاء، وأضافت: "يضع على عاتقي مسؤولية كبيرة لتمثيل بلدي خير تمثيل بالوكالة الدولية للطاقة الذرية وخارجها".

بفضل مثابرتها، استطاعت نجاة أن تتبوأ مركزا مهما بالوكالة الأممية، أبرز السفير الممثل الدائم للمغرب لدى المنظمات الدولية بفيينا، عز الدين فرحان، في كلمة بالمناسبة، مضيفا أن اختيارها للتكريم "اعتراف بمسارها المهني المتميز داخل المنظومة الأممية".

نجاة حاصلةٌ على دكتوراه في التغذية وعلم الغدد الصماء من جامعة لافال في كندا، ودكتوراه في علوم الأغذية من جامعة ديجون في فرنسا، كما أتمت تدريب ما بعد الدكتوراه في إطار زمالة مؤسسة فولبرايت في جامعة جونز هوبكنز في الولايات المتحدة.

عملت أستاذة جامعية ومديرة للبحوث في جامعة ابن طفيل بالقنيطرة لأكثر من 20 عاما، وبالموازاة، مسؤولةً تقنية في الوكالة الدولية للطاقة الذرية في الفترة ما بين عامي 2001 و2007.

ثم منذ عام 2010، شغلت لمدة عامين منصب مديرة العلوم والتقنيات في أكاديمية الحسن الثاني للعلوم والتقنيات، حيث تولت مهمة تنسيق الإستراتيجية الوطنية للتعليم والبحوث.

بعد ذاك، وإلى غاية عام 2014، شغلت منصب رئيسة قسم الدراسات البيئية المتعلقة بالتغذية والصحية، في شعبة الصحة البشرية بذات الأكاديمية.

ولاحقا، عُينت في منصب مديرة شعبة آسيا والمحيط الهادئ في إدارة التعاون التقني، قبل أن تلتحق بمنصبها الجديد في الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

... الوكالة التي تشيد نجاة مختار بتشجيعها للاستعمال السلمي للطاقة والتكنولوجيا والتطبيقات النووية لتحقيق الأهداف التنموية، قصد جعل الذرة في خدمة السلام والتنمية.

كان تحديا أن تلتحق نجاة، مع زوجها وأبنائها إلى فيينا لتشغل منصبها الجديد، لكنها تقول في حوار لها، أنّ تشغل المنصب هذا؛ يعد الأمر فرصة حقيقية للتطور في مجال العلوم والتكنولوجيا.

وأيا يكن، تضيفُ، بالنسبة للنساء، الأهم أن يعرفن كيف يحققن ذلك التوازن. لا ينبغي، بحسبها، أن يختزن بين المسار المهني أو الأسرة؛ إنما أن يجدن منطقة وسطى ذلك أن دعم الأسرة مهم جدا.

مع الأسف، تقول نجاة، الحياة الأسرية دائما ما تعتمد على المرأة، في حين تعد حياتها المهنية كإضافة اختيارية. هذا هو التحدي الرئيسي، ولن يتغير بحسبها، إلا إذا تغير المحيط الاجتماعي للنساء، لا فقط محيطهن الأسري.

مختار ترى أيضا أننا بحاجة إلى تغيير في العقليات حتى تتاح للمرأة نفس الشروط التي تتاح للرجل بالنسبة للولوج إلى مواقع المسؤولية.

وللعمل على ذلك، تضيف، من المهم جدا أن نتيح لهن فرص الولوج إلى المعلومة، وتشجيعهن على التقديم إلى مثل هذا النوع من المناصب. بحسب مختار، إذا امرأةٌ ما تملك مستوى جيدا، فيمكن أن تقبل لتقلد أي منصب دون أي صعوبة.

وتضيف: "أنا أيضا لدي أسرة، ومسؤوليات تتعلق بأبواي، إنما لم أهمل يوما دوري كعالمة. بالعكس أنا شغوفة، ودائما ما أجد طريقة للعودة إلى أبنائي وأسرتي".

بالنسبة لنائبة المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، فللنساء مسؤولية؛ ليس فقط كأم، إنما كعضو في المجتمع ينبغي أن يسهم هو أيضا في التنمية. لذا، تقول، ينبغي للمرأة أن تضع عنها دور الضحية، وأن تعي مسؤولياتها وتتحملها مهما كان ثمنها.

مليكة الفاسي

المرأة الوحيدة الموقعة على عريضة المطالبة بالاستقلال

بدأت مالكة الفاسي حياتها كاتبة وصحفية، فناضلت بقلمها لتحرير المرأة ونيلها حقوقها، وكانت سببا مباشرا لتخصيص فرع بجامعة القرويين للطالبات. بعد الاستقلال، طالبت بحق التصويت للمرأة في الانتخابات، والتنصيص على المساواة في أول دستور للمملكة.
مالكة رفضت أيضا حقيبة وزارة الشؤون الاجتماعية في أول حكومة للمغرب المستقل، وفضلت أن تشتغل عبر مسار طويل، من خلال جمعيتها "مواساة"، على محاربة الأمية ودعم الأيتام والنساء المحتاجات.
في هذا البورتريه، نكتشف وإياكم بعضا من مسار وشخصية "مالكة الفاسي".

ولدت مالكة الفاسي، أو «لالة مليكة» كما كانت تحب أن تُنادى، في 19 يناير سنة 1919، بمدينة فاس، لأب كان قاضيا واسمه المهدي الفاسي، وأم اسمها طهور بن الشيخ. ضمن هذه الأسرة المنتمية إلى عائلة فاسية «عريقة»، ستنشأ مالكة في جو تسوده الثقافة، ومنخرط في الدفاع عن قضايا الوطن المستعمَر.

حرص الأب، المهدي الفاسي، على تعليم ابنته إسوة بأبنائه الذكور، وعيا منه بضرورة المساواة بين الذكر والأنثى، فدرست بكتاب خاص بالفتيات بين سنتي 1928 و1930، ثم سرعان ما خصص لها أساتذة يدرسونها بالمنزل.

يقول المقاوم أبو بكر القادري، في كتابه «مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية»: «كنت أقرأ مقالات موقعة باسم «باحثة الحاضرة» في ملحق مجلة «المغرب»، وتساءلت كثيرا عمن تكون هذه المرأة التي اقتحمت المجال الصحفي، فزاد فضولي للتعرف إليها، بعدما لمست أنها تشير في كتاباتها إلى أن الصحافة ميدان لا ينبغي أن يظل حكرا على الرجال، إنما الدعوة إلى الإصلاح والتطور هي للرجال والنساء معا».

«باحثة الحاضرة»، «الفتاة»، كانا اسمان توقع بهما

مالكة الفاسي مقالاتها آنذاك المنشورة بمجلة «المغرب»، وجريدة «العلم»، كان ذلك ابتداءً من سنة 1934. وقد تناولت مقالاتها أوضاع المرأة المغربية، ورامت عبرها نشر الوعي حول القضايا التي تعتبرها عائقا أمام تحرير المرأة، كانتشار الجهل والخرافة. هكذا، يمكن اعتبار مالكة الفاسي من أوائل الصحفيات في تاريخ المغرب.

في غضون ذلك، ستسجل مالكة نفسها من أوائل الأديبات أيضا، فقد كتبت مسرحيات وقصص قصيرة عدة، أبرزها قصة «الضحية» المنشورة سنة 1941 بمجلة «الثقافة المغربية»، والتي تعالج موضوع الزواج التقليدي. وأيضا نص «دار الفقيه»، المنشور سنة 1938، والذي اعتبر بمثابة سيرة ذاتية.

تقول الأديبة المغربية زهور كرام إن «باحثة الحاضرة»، إذ كتبت «دار الفقيه» بضمير المتكلم المفرد، فكأنما أنها تؤسس لتحرير ضميرها خارج وصايا ضمير الغائب الذي كان سائداً في تلك الفترة. وعندما كتبت قصة «الضحية»، فقد كانت تهيئ، وأخريات، المجتمع

المغربي إلى تقبل التحولات الاجتماعية».

خط الوصل بين الملك والحركة الوطنية

في بيت أسرة مالكة الرحب، سينشأ ابن عمها محمد الفاسي بعد فقدانه لوالديه. هذا التلاقي اليومي سيتحول، بتعاقب السنوات، إلى علاقة حب

> **ستسجل مالكة نفسها من أوائل الأديبات أيضا، فقد كتبت مسرحيات وقصص قصيرة عدة، أبرزها قصة «الضحية» المنشورة سنة 1941 بمجلة «الثقافة المغربية»، والتي تعالج موضوع الزواج التقليدي. وأيضا نص «دار الفقيه»، المنشور سنة 1938، والذي اعتبر بمثابة سيرة ذاتية**

ستتوج بالزواج. محمد الفاسي هذا، عينه الملك محمد الخامس على رأس جامعة القرويين، ثم كان أستاذا بالمدرسة المولوية، ليصبح بعد الاستقلال أول وزير للتعليم في المغرب.

تعيين زوجها أستاذا بالمدرسة المولوية بالقصر، سيفتح للالة مليكة الباب على مصراعيه للولوج إليه، بل وصارت صديقة لزوجة الملك محمد الخامس، لالة عبلة. ثم سنة 1936، بدعم من زوجها، ستكون أول امرأة تنتمي إلى النواة الأولى للحركة الوطنية.

بيت مالكة الفاسي الذي يقع بحسان في العاصمة الرباط، سيكون موقع عقد اجتماعات الحركة الوطنية السرية؛ وكان الملك محمد الخامس يزوره متخفيا للتنسيق مع أعضاء الحركة وحزب الاستقلال.

يقول أبو بكر القادري في مذكراته: «كانت مالكة موضع ثقة من حزب الاستقلال، ولذلك دونا عن غيرها، خصت بالالتحاق بالجناح السري للحزب بعدما أقسمت على القرآن بكتمان الأسرار الوطنية السياسية، مثل التواصل السري والمنظم مع محمد الخامس».

لقربها من الملك وزوجته، ولعدم تخيل الفرنسيين لما يمكن أن تقوم به امرأة مغربية، كان ينتدبها أعضاء الحركة الوطنية لتلتقي بمحمد الخامس لاستقصاء أخباره، وكذا لإخباره بما ينوي الوطنيون القيام به. هذا بجانب قيامها بمهام أخرى كإسعاف الجرحى ودعم أسر «الشهداء».

لالة مليكة كانت آخر من التقى بمحمد الخامس قبل نفيه يوم 19 غشت من سنة 1953. يحكي بعض المؤرخين كيف أنها لبست ملابس رثة وذهبت إلى القصر الملكي لعدم لفت انتباه الفرنسيين الذين يطوقون المكان. دخلت القصر، صافحت الملك، وتعاهدا بأن المقاومة ستستمر في المغرب حتى موت آخر مغربي. بعد عودة الملك من المنفى، كانت أول من التقاه أيضا بعيد هبوطه من الطائرة، فصافحها وشكرها على حفظ العهد.

المرأة الوحيدة الموقع على وثيقة المطالبة بالاستقلال

في كنف عائلة تنتمي كلها إلى حزب الاستقلال، لم يكن من المستبعد ألا تتشرب مالكة الفاسي أفكار هذا الحزب. هكذا، وعند توقيع وثيقة المطالبة

بالاستقلال، كانت الاسم النسائي الوحيد المرشح للتوقيع على العريضة.

الحقيقة أن إدراج اسم امرأة بين 64 مُوقّع رجل، لم يكن بالشيء الهين، خاصة وأن اللائحة شملت علماء دين وطلبة في جامعة «القرويين». رغم ذلك، كانت رغبة لالة مليكة في التوقيع غالبة. وتشهد بعض المعطيات التاريخية المتوفرة أن لا أحد ممن سبقوا إلى التوقيع، عارض فكرة وجود امرأة بينهم، ذلك أنها كانت من القلة المتعلمة من نساء العائلة آنذاك. وقعت مليكة الفاسي إذن كأول وآخر امرأة على وثيقة المطالبة بالاستقلال، التي قدمت نسخة منها إلى الملك، وإلى المقيم العام الفرنسي وممثلي عدد من الدول، في 11 من يناير 1944.

رفض الوزارة، وخدمتها للأعمال الاجتماعية

لم تفوت لالة مليكة فرصة تعيين زوجها محمد الفاسي كمدير لجامعة القرويين، فاغتنمتها وتوجهت إلى الملك محمد الخامس برسالة تطالب فيها بفتح فرع خاص بالطالبات بالجامعة يسمح لهن بمتابعة دراستهن العليا، وهو ما تم فعلا إذ لم يتردد الملك في ذلك، وأمر بفتح فرع للجامعة مخصص للطالبات.

بعيد نيل المغرب لاستقلاله، كانت أول من دافع على حق النساء في المشاركة بالانتخابات، خلال المؤتمر الاستثنائي الذي عقده حزب الاستقلال، وهو ما حظي بإجماع الحزب وترحيب الملك. بل وطالبت بالتنصيص في الدستور الأول على المساواة بين المرأة والرجل، وهو ما جاء صريحا بنص الفصل الثامن من دستور 1962.

قبيل تعيين أول حكومة في مغرب الاستقلال، اقترح عليها الملك أن تنال حقيبة وزارة الشؤون الاجتماعية، لكنها رفضت ذلك، بالقول إن زوجها سيكون وزيرا أيضا وإن لأبنائهما عليها حق؛ ثم اعتذرت موضحة أنها تفضل العمل على محاربة الأمية والاهتمام بالأطفال المحتاجين، بكل حرية دون التزامات وزارية.

كذلك كان، فأسست جمعية «مواساة» التي تشتغل في هذا الإطار إلى حدود اليوم، بإدارة من ابنتها فاطمة الزهراء.

تجدر الإشارة إلى أن مالكة الفاسي شاركت في ندوات ومؤتمرات عديدة، وطنية ودولية، وحصلت على ميدالية من اليونسكو من أجل محاربتها الأمية. ومُنحت ميدالية من العصبة المغربية للتعليم الأساسي ومكافحة الأمية، وميدالية من الحكومة الروسية لمساهمتها في الصداقة المغربية السوفياتية فيما قبل.

كل هذا العرفان، توج بوسام العرش العلوي من الدرجة الأولى، الذي منحه إياها الملك محمد السادس سنة 2005، في الذكرى السنوية الـ61 لتقديم عريضة المطالبة بالاستقلال، بمدينة ورزازات.

سنتان بعد ذلك، تحديدا في 11 ماي 2007، ستلبي لالة مليكة نداء أجلها، وسيودع الثرى جثمانها بضريح الحسن الأول بالرباط، بجانب مرقد زوجها محمد الفاسي، مخلفة وراءها تاريخا طويلا من النضال السياسي والنسائي.

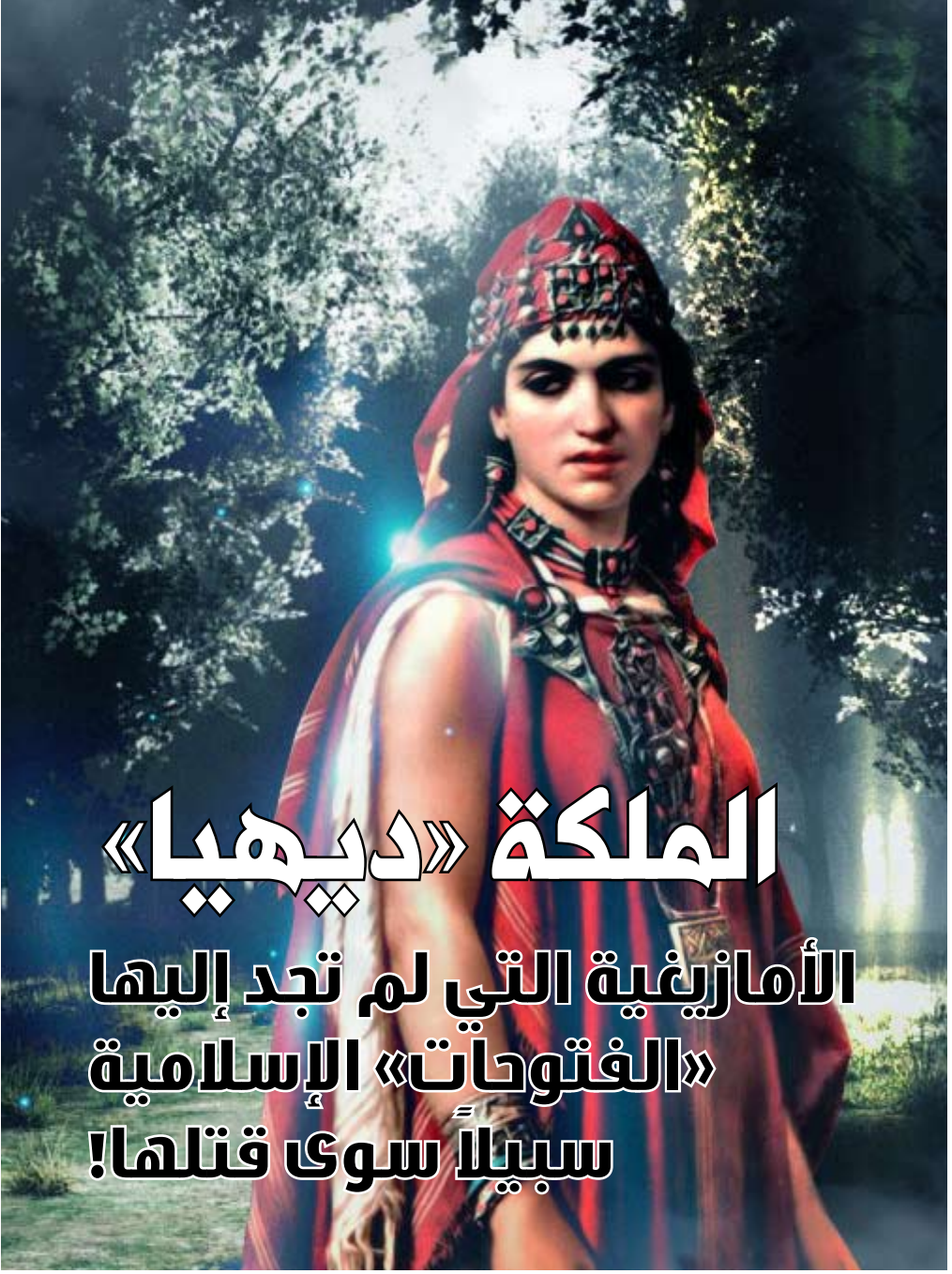

الملكة «ديهيا»
الأمازيغية التي لم تجد إليها «الفتوحات» الإسلامية سبيلاً سوى قتلها!

«العرب يسمّونني الكاهنة، أي الساحرة، يعرفون أنني أكلّمكم وأنكم تستمعون إليّ، يندهشون لرؤية امرأةٍ تحكمكم، لأن النساء كنّ يُبَعن في أسواق الجواري. بالنسبة لهم، أجمل فتاة ليست إلّا سلعة، ليس لها الحقّ في أن تتكلّم أو يستمع إليها أحد. المرأة الحرّة تخيفهم، وأنا في نظرهم هي الشيطان».

... كانت هذه كلماتُ للكاتب الجزائري كاتب ياسين، على لسان الملكة ديهيا. وردت في روايته «نجمة» الصّادرة سنة 1956.

خضعت شخصية ديهيا للكثير من التّجاذبات الأيديُولوجية، حيثُ شيطَنها العربُ وصوّروها على أنّها ساحِرة تستخدمُ الجنّ في حرُوبها؛ وأنّها حاربت الإسلام والمسلمين. كما قام بعضُ الأمازيغ بأدلجة هذه الشّخصية وأسطرتها، فضلاً عن المُبالغات الجمّة التي طوّقُوا بها هذا "الرّمز" الأمازيغي والإنساني المشترك.

لا، لم تكن ديهيا ملكةً فحسب، بل، أيضاً، قائدة عسكرية خلفت الملكَ أكسيل، وحكمت الأمازيغ وشمال إفريقيا. حفرت اسم المرأة الأمازيغية بآهات السّيوف وأوردتها، غصباً عن التاريخ، في سجل النجاح والتّخليد. كما انتزعت إجماع الرّواة على أنّها... كانت من أشد النّساء بأساً عبر العُصور.

رأت ديهيا، أو تيهيا أو ديا، النّور في عام 585م. في الوقتِ الذي وُلِدت فيه، لم تكن هناك حدود في شمالَ أفريقيا، بل كانت المنطقة عبارة عن حفنة من القبائل، كصنهاجة وزناتة ومصمودة، يجمعُها قاسم مشترك هو الأمازيغية. "قبائلُ لم تعرف هدوءً ولا استقراراً إلّا في فتراتٍ قليلة. لذلك، امتدّ تحرّكها المستمرّ حتى دخول العرب إلى شمال إفريقيا، ولذلك أيضاً كانت قبائل محاربةً بطبعها"، وفق ما جاء في تقرير لصحيفة TRT عربي عن ديهيا.

حسب التقرير، فإنّه ليست ثمّة مصادر تاريخية تنقل صوراً دقيقة من طُفولة ديهيا، بيد أن جملةً من الباحثين في التاريخ والثقافة الأمازيغية، ذهبوا إلى أنّ كلّ ما وجد... أنّ "الكاهنة تلقّت تكويناً خاصّاً بأبنَاء الزّعماء والقَادة. تكوين عسكري وثقافي"، أهّلها لترِث حكم "جراوة" عن والدِها لاحقاً.

تضاربت الآراء بخصوص ديانتها، فثمّة من اعتبرها يهودية، وهناك من قال إنها وثنية، بذريعة أنّ الديانة اليهودية، وقتئذٍ، كانت محصورة بين التجار اليهود في المدن الرومانية، ونظرا أيضا للطوق والحصار الـذي فرض على تحركات ومعابد اليهود.

خَلَفَتْ الملك "كُسَيلة" في حكم الأمازيغ بشمال أفريقيا سنة 680م، أي عندما كانت تبلغُ من العمر 95 عاما. وظلّت عاصمتها طيلة فترة حُكمها، هي مدينة خنشلة في جبال الأوراس، بالجزائر حالياً.

ورد في رِوايات المؤرّخين أنّ القبائل الأمَازيغية أجمعت على تولية "ديهيا" أمرها، غداة أن خطفت الموتُ ملكهم "كسيلة". إذ التّقاليد الأمازيغية القديمة، كانت تقتضي أن يقوم مجلس القبائل بالتصويت عند وفاة الحاكم لاختيار حاكم جديد.

يقول ابن خلدون في كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر": "اضطرمت إفريقية ناراً وافترق أمرُ البربر وتعدّد سلطانهم في رؤسائهم وكان أعظمهم شأناً يومئذٍ ديهيا بنت ماتيا بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر وزعماؤهم."

مكّنتها حنكتُها، قوتها، كارزميتها وكذلك شَجاعتُها، من توحيد القبائل الأمازيغية تحت ظلّها لمواجهة الرّومان ومن بعدهم العرب المسلمين.

حسب بعض المراجع التاريخية، قادَت الملكة

ديهيا عدّة حملاتٍ ومعارك ضدّ الرّومان والعرب والبيزنطيين، بغيةَ استعادة الأراضي الأمازيغية التي استولوا عليها في أواخر القرن السادس ميلادي.

المثير أنّ حُكمَ ديهيا تزامنَ مع حكم الخَليفة عبد الملك ابـن مـروان، الـذي أراد استئناف خطّة "الفُتوحات" الإسلامية والغزوات العربية، لتطويع المزيد من الشّعوب غير المسلمة.

تمّ اختيار حسان بن النعمان لقيادة "فتح" شمَال أفريقيا. بعد أن تمكّن من "غزو" مدينة القيروان و"احتلالها"، وطرد بقايا البيزنطيين من قرطاج، حاول أن ينتقِل إلى القبائل التي تخضعُ لحُكم الملكة ديهيا الملقّبة بالكاهنة!

حين سَمعتْ ديهيا بخبر تقدّم جيش حسان نحوها،

> **تميّزت بحسّ إنساني وسلُوك حضاري تمثّل، وفق المُؤرخين، في إفراجها عن جميع الأسرى، الذين بلغ عددهم الثّمانين أسيراً، دون تعذيبهم. بيد أنّها قرّرت الاحتفاظَ بأسير عربي واحد، فكان خالد بن يزيد القيسي، الذي تبنته وأقام عندها وعاش مع أبنائها الآخرين، والذي تتهمه بعض الرّويات بأنّه هو الذي كان يزوّد الأمويين بمعلومات استخباراتية عن الكاهنة**

سارعت إلى تحرير مدينة خنشلة من الاحتلال الروماني، وطردت منها الروم، ثم هدمت حصونها لكي لا يحتمي بها جيش حسّان.

في سنة 693م، واجهت ديهيا جيش ابن النعمان في معركة بجاية، واستطاعت أن تهزمه، مجبرةً إياه على الخروج من تونس وطرابلس، ليستقر في برقة الليبية منتظراً المَدَد من الخليفة الأموي.

مع ذلك، لم تسعَ الملكة ديهيا إلى تخريب أرض المسلمين، ولم تلمس القيروان بسوء ولم تقتل المسلمين المتواجدين بها ولا قامت بالتنكيل بهم ثأراً وانتقاما من ما "يكِيدهُ" العربُ لأرضها!

بعدها، سيطرت ديهيا على شمال أفريقيا زهاء خمس سنوات، وهناك روايـات تشير إلى كون مملكتها، تشكّل، اليوم، جزءاً من الجزائر وتونس والمغرب وليبيا.

تميّزت بحسّ إنساني وسلُوك حضاري تمثّل، وفق المُؤرخين، في إفراجها عن جميع الأسرى، الذين بلغ عددهم الثّمانين أسيراً، دون تعذيبهم.

بيد أنّها قرّرت الاحتفاظَ بأسير عربي واحد، فكان خالد بن يزيد القيسي، الذي تبنته وأقام عندها وعاش مع أبنائها الآخرين، والذي تتهمه بعض الرّويات بأنّه هو الذي كان يزوّد الأمويين بمعلومات استخباراتية عن الكاهنة.

تمكنت ديهيا من إفشال "الفتح" الإسلامي، بالأحرى تأجيله؛ إذ بعد خمس سنواتٍ تأكّدت أن الزحف العربي قادم من جديد، وأدركت حينئذٍ، أنه ليس بمقدورِها صدّه كما السّابق، فلجأت لسياسة "الأرض المحروقة".

كانت "الأرض المحروقة"، استراتيجيةً لتخريب جميع المُدن والضِّياع، لأنها كانت تؤمنُ أن "الفُتوحات" لها غاية "استنزاف" ثروات شمال أفريقيا و"السّطو" على خيراتها.

لم تكن ديهيا تقبلُ فكرة أن "الفُتُوحات" لها غَاية نشر الدّين الإسلامي في كُل الأقطار، ولذلك تُنسبُ لها مقولة: "إن كنتم تزعمون أنكم جئتم برسالة من الله، فأعطونا إياها وارحلوا".

أمرت ديهيا بقطع الأشجار وهدم الحصون وحرق المحاصيل من طرابلس إلى طنجة، الأمر الذي أثَار حفيظة الأفارقة، الذين بدأوا يعتقدون أن الملكة قد جُنّت، فانفضّوا من حولها، وهاجر كثيرون للأندلس.

أسفرت هذه السّياسة أيضا على تشرذم الأمازيغ، ما أدّى، بالتّبعة، إلى إضعاف ديهيا، وبالتالي إلى انهزامها في المعركة الثانية ضدّ حسّان بن النّعمان.

علّقت على ذلك الباحثة نضار الأندلسي، قائلةً: "إذا ما كان في وُسعنا أن نصِف مسار الكاهنة الحَربي في صراعها مع الفاتحين، فإننا نقول إنها ملكة وفي الوقت نفسه تخطط للمعارك وتنفذ استراتيجيتها وتتولى القيادة العسكرية. ويبدو أنها دافعت حتى النفس الأخير عن وطنها بالحديد والنار، وفرضت حُكمها بالقوة جعلتها تتمتع بهيبة، وانتهى بها الحال إلى إحراق كل الموارد الطبيعية التي كانت مطمع العرب، لكن قَتلها شكّل هزيمة منكرة لأتباعها، فقُتل من قُتل وهرب من هرب".

قُتلت ديهيا بمعركة "بئر الكاهنة"، سنة 82 هـ الموافقة لـ 701م، بعد أن خاضت المعركة ضد الجيوش الإسلامية بشجاعة ، رافضةً دعوات الهرب والاختباء خلفَ التّضاريس الوعرة.

كيف قُتلت ديهيا؟

... لقد تـمّ قطعُ رأسها وأُرسـل إلى المشرق. وكان هذا الإسراف في التمثيل بجثتها، رغبةً في الانتقام من صوت امرأة قالت لا وجَرّعت "الفاتحين" مرارة الهزيمة، كما أنه إشارة قوية لشتى أشكال المقاومة التي يمكن أن تطفو إلى السّطح في المستقبل!

"الحروبُ التي خاضتها النّساء عبر التاريخ لم تكن من أجل الاستعمار، بل من أجل المقاومة، وديهيا لم تخض الحرب من أجل الحرب، بل من أجل الدفاع عن أرضها"، يقول أحمد عصيد في وثائقيّ عن الكاهنة.

مُضيفاً، أنّ الملكة ديهيا ترمُز أيضاً للحب والحنان، وقصتها ملهمة ومؤثّرة جداً وغنيّة دراميا..."وصورتها هي صورة المرأة في المجتمع الأمازيغي القديم."

عرفانا لما قدّمته هذه المرأة للتاريخ والنّضال والموت من أجل الأرض والوطن، قامت جمعية أوراس الكاهنة بتنصيب تمثال طوله 1.80 سنتمتر لبطلتهم القومية وسط بلدية بغاي بالجزائر، سنة 2003.

وفي المغرب، فقد زيّنتْ، بدء من الأسبوع الأول من مارس 2021، جدارية ضخمة للملكة الأمازيغية "ديهيا"، شوارع آيت وربر.

بين «الحشومة» والعقوبات القانونية التي لا تكبح جماح الجناة!

جريمة الاغتصاب

هي... من بين الجرائم التي يستنكرها الرأي العام كلما علم بوقوعها، وكما يؤكد ذلك القانون المغربي؛ جريمة تمس بـ «الآداب العامة». جريمة الاغتصاب، كما تعرف عن نفسها وعن شناعتها، وفق المجتمع والمهتمين، باتت في الآونة الأخيرة تطفو إلى سطح المعلوم بعدما ظلت سنوات طوال في الدائرة المعتمة؛ فكان الجاني ينعم بخوف المجتمع من إشاعة ما أتاه، وكانت الضحية تعيش عذابا نفسيا واجتماعيا طويل الأمد، مع أن للقانون المغربي قوله الفصل، وللدولة جهودها في حماية المرأة من العنف.

في هذا الملف، نحاول أن نحيط بجريمة الاغتصاب والإجابة عن عدد من الأسئلة حيالها. فماذا يقصد بجريمة الاغتصاب؟ لماذا ظلت ترزح في عتمة «الحشومة»؟ ما الأسباب المؤدية لها؟ ما العواقب النفسية والاجتماعية التي تطال المغتصَبة؟ ماذا يقول القانون المغربي في هذه الجريمة؟ ماذا يرتب عنها من جزاءات؟ وماذا يقول الفقه أيضا؟ ثم ما جهود الدولة الحمائية للمرأة؟ أكثر من أي وقت مضى، صارت بين الفينة والأخرى، تطالعنا الصحف الوطنية ومواقع التواصل الاجتماعي، بأخبار عن حدوث جرائم اغتصاب.

طفت الظاهرة إلى السطح في السنوات الأخيرة، على الأرجح لوجود معدات كاشفة، مثل آلات التصوير التي تحتويها الهواتف، توثق الحالات التي تتعرض للجريمة؛ الأمر الذي كان في السابق نـادرا، ذلك أنه كان ينظر إلى جريمة الاغتصاب كالفضيحة التي لا يجب أن تشيع.

عقب انتشار مقطع يوثق لمحاولة اغتصاب جماعية لفتاة مختلة عقليا على متن حافلة للنقل العمومي بالدار البيضاء، ذكر موقع مجلة «جون أفريك» الفرنسية وفق إحصائيات كشف عنها تقرير حكومي نشر سنة 2015، أعدته وزارة العدل والحريات بالمغرب، أنه تم تسجيل 1114 حالة اغتصاب سنة 2015 (رقم أقل من الواقع بكثير، حسب المهتمين، وذلك إذا احتسبنا الحالات الكثيرة للاغتصاب، التي لا يتم التبليغ عنها). الأرقام الخاصة بسنة 2008، تتجاوز الـ300 حالة بقليل. بالمقارنة مع الرقم أعلاه نستنتج إذن أن النساء أصبحن يقبلن أكثر فأكثر على الكشف عما تعرضن له والتبليغ به لدى المحاكم أو في أقسام الشرطة، بعدما كان الأمر يعد لسنوات طويلة ضمن عداد «الحشومة»، أو الخجل من الفضيحة.

في عداد «الحشومة»

في الواقع، ظل موضوع الاغتصاب منسيا ومنتميا لدائرة المجهول لسنوات عديدة. هكذا، تواجه الباحث فيه مشاكل عدة تتعلق أساسا بشح المعطيات ذات الصلة.

يعزى ذلك إجمالا وفق أستاذ التاريخ الإسلامي، خالد حسين محمود[1]، إلى أن الرقابة الأخلاقية غيبت جريمة الاغتصاب عن الكتب، ومن ثم لم يستفض الحديث فيها، فجعلتها في العتمة المسكوت عنها التي لا يسلط عليها ضوء، وهكذا بقيت موضوعا غامضا إلى حد ما.

استنادا إلى خصوصية المحافظة التي طبعت المجتمع المغربي ذا النزعة القبلية، فإنه غالبا ما تحاط جريمة الاغتصاب بسياج من السرية والتكتم؛ فالعار متصل بالجنس بشكل كبير خوفا من الفضيحة، وهو ما يدفع إلى تحاشي إشاعة حتى محاولة اغتصاب رجل لامرأة لأن العار حتما سيلحقها.

انتفاء رضى المرأة، شرط أساس!

يعرف الفصل 486 من القانون الجنائي المغربي الاغتصاب فيقول: «الاغتصاب هو مواقعة رجل لامرأة دون رضاها».

الاغتصاب لغة مأخوذ من فعل غصب، ومصدره الغصب. غصبَ؛ أي أخذ ظلما بمعنى اغتصب. وغصب شخص فلانا على شيء؛ أي قهره على فعله.

أما اصطلاحا، فأكثر ما يرد في تعريف الاغتصاب، التعريف ذاته الذي أخذ به المشرع المغربي، بصياغته، مواقعة رجل لامرأة دون رضاها.

يمكن تعريف الاغتصاب بكونه وسيلة لتحقيق المتعة الجنسية، يهدف من خلالها الجاني لتلبية رغباته وشهواته عن طريق القوة، ضاربا كل القواعد والقوانين المنظمة للمجتمع بعرض الحائط؛ وهو بالتالي، يعد من أخطر أنواع الانحرافات الجنسية.

في أحيان كثيرة، لا تهم المغتصب طبيعة الضحية بقدر ما يهتم بالوصول إلى إشباع نزواته ورغباته الجنسية بأي وسيلة كانت، حتى إن وصل إلى درجة التخلص من الضحية أو الحد من مقاومتها بالقتل.

الدراسات تؤكد أن الاغتصاب ليس فيه خطر على الصحة الفزيولوجية والجسدية فقط للضحية، بل يتعدى ذلك إلى صحتها النفسية والسيكولوجية، ومن ثم في أحيان كثيرة يلغي رغبتها في الاستمرار في عيش حياتها كما تريد، ويقزم بل ويلغي شخصيتها.

أسباب كثيرة يصعب حصرها

يجمل الباحثون الأسباب التي تدفع عادة المغتصب إلى إتيان جريمته، في عوامل عدة، فمنها ما يتعلق بعوامل اجتماعية كانعدام التربية، والتفكك الأسري، وتأخر سن الزواج، والمخدرات، وما إلى ذلك. ومنها ما يتعلق بعوامل نفسية، أو طبيعية أو مرضية. كما لا ينفي المهتمون ارتباط الاغتصاب بتفاقم الثقافة المجتمعية التي تبرر الاغتصاب وتلوم الضحية بدل الجاني. شعور المغتصِب بإمكانية الإفلات من العقاب القانوني والمجتمعي يجعله يلغي أي رادع محتمل لتصرفه.

بالمقابل، نجد أبحاثا أخرى تقول إن غالبية مجرمي الاغتصاب يستطيعون تلبية حاجاتهم الجنسية بطرق أخرى سهلة لا تؤدي إلى المشاكل، مثل مواقعة عاملة جنس. لكنهم، إذ يعجزون أحيانا عن إيجاد شريكة جنسية، يعمدون إلى الاغتصاب بغية تلبية حاجتهم. من هذا المنطلق، ففعلتهم تعتبر جريمة جنسية.

الأسباب المؤدية إلى ارتكاب جريمة الاغتصاب كثيرة يصعب تعدادها، لكن عددا من علماء النفس ينفون أن يكون الهاجس الجنسي هو الذي يقود الجاني، إنما مجرد حاجته إلى تحقير

وإذلال المرأة\الضحية، ودفعها إلى ممارسة الجنس وجرح شعورها دون النظر إلى الطريقة التي سيتم بها ذلك.

بالمقابل، هذا العنف قد لا يكون عارضا، إنما قد يكون ناشئا عن رغبة الجاني في الانتقام أو الثأر من تجربة سيئة مر بها على أيدي آخرين. هكذا، يسعى إلى إيلام وعقاب وإذلال ضحيته عن طريق الجنس، وهنا يكون الجنس وسيلة تعنيف وغاية في الآن ذاته.

ماذا يقول القانون المغربي؟

تعد جريمة الاغتصاب في القانون المغربي من الجرائم الماسة بالآداب العامة، وهي بالتالي، جريمة تمس بالأخلاق من جهة، وبالمجتمع من جهة أخرى.

في القانون المغربي، لا يقع الاغتصاب إلا من رجل على امرأة. أما إذا أكرهت امرأة رجلا على مواقعتها، فلا تعد مغتصبة له، إنما هاتكة لعرضه، وتلك جريمة أخرى.

يشير العلامة أحمد الخمليشي، في كتابه القانون الجنائي الخاص، إلى أن الركن المادي لجريمة هتك العرض يتمثل في ملامسة الأماكن الجنسية ولا يفترض فعلا جنسيا، ومن ثم، فإن الرجل في هذه الحالة قد يكون مجنيا عليه أيضا.

بالمقابل، يقوم الركن المادي لجريمة الاغتصاب حصرا على إيلاج الرجل لكل أو بعض عضوه التناسلي في عضو المرأة التناسلي، دون رضاها.

وفق هذا الأساس إذن، يعد عنصر عدم الرضا أساسيا لقيام جريمة الاغتصاب، فهو الذي يميز بينها وبين جرائم أخرى كالفساد والخيانة الزوجية مثلا.

حسب الخمليشي، ينتفي رضى المرأة متى قامت بالفعل الجنسي بغير مساهمة إرادية في تنفيذه.

ويمكن أن يحدث ذلك بطرق عدة؛ على سبيل المثال، بالإكراه المادي باستعمال العنف أو التهديد باستعماله، بالإكراه المعنوي كالتهديد بإفشاء سر أو إلحاق أذى بأحد الأقارب، بفقدان المرأة للإدراك والتمييز، باستعمال وسائل احتيالية كمواقعة المرأة بعد تهييئها في وضع ملائم كعملية تدليك أو كشف طبي وما إلى ذلك.

ويشير أستاذ القانون الخاص بجامعة الحسن الثاني، عبد الواحد العلمي، في كتابه «شرح القانون الجنائي المغربي»، إلى أن الذي يواقع امرأة على أساس ظنه بأنها زوجته في حين أنها ليست كذلك، لا يقوم القصد الجنائي لديه ولا يعتبر مرتكبا لجريمة الاغتصاب، أو مثلا إذا كان الذي أتى الفعل مجبرا على ذلك بسبب تهديده بالقتل من طرف شخص ثالث إن هو لم يواقع المرأة المقصودة من طرف المكره.

ويقصد بالقصد الجنائي، أن يكون الجاني، على علم وإدراك بما يقوم به من أفعال معاقب عليها بقوة القانون. ويعد القصد الجنائي هنا ركنا معنويا تقوم عليه هذه الجريمة.

العقوبات والجهود الحمائية

ينص الفصل 486 من القانون الجنائي المغربي على كون الاغتصاب جريمة يعاقب عليها بالسجن من خمس إلى عشر سنوات، غير أنه إذا كان سن الضحية يقل عن ثمان عشرة سنة أو كانت عاجزة أو معروفة بضعف قواها العقلية أو حاملا، فإن الجاني «يعاقب بالسجن من عشر إلى عشرين سنة».

الفصل 487 من ذات القانون، يشدد العقوبة على مرتكب جريمة الاغتصاب، إذا كان الفاعل من أصول الضحية أو ممن لهم سلطة عليها، أو وصيا عليها أو خادما بالأجرة عندها، أو عند أحد من الأشخاص السالفة ذكرهم، أو كان موظفا دينيا أو رئيسا دينيا، وكذلك أي شخص استعان في اعتدائه بشخص أو بعدة أشخاص.

هذه الحالات أوردها النص على سبيل الحصر لا المثال، والمتوفرة فيه إحدى هذه الصفات، يعاقب بالسجن من خمس سنوات إلى ثلاثين سنة. نفس التشديد نجده في الفصل الذي يليه، إذا صاحب الاغتصاب افتضاضٌ لغشاء بكارة المجني عليها.

لكن السؤال المطروح هنا، هل يهدف المشرع بهذه المقتضيات إلى حماية المرأة قبل ارتكاب جريمة الاغتصاب أو بعدها؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال بالقول إن القانون كان سابقا يحمي المرأة من الاغتصاب قبل ارتكاب الجريمة،

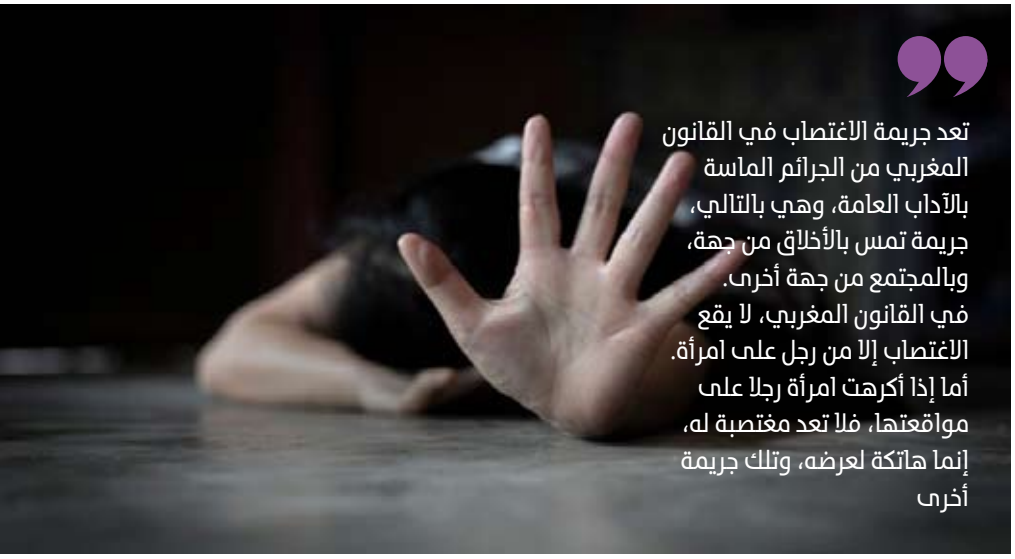

لكن البرلمان المغربي صادق مؤخرا على قانون مكافحة العنف ضد النساء (صدر في الجريدة الرسمية)، والذي حمل في طياته تحديدا مفاهيميا ومقتضيات زجرية، وتدابير وقائية ومبادرات حمائية لحماية المرأة من كافة مظاهر العنف، بما فيها جريمة الاغتصاب قبل وبعد ارتكابها.

جدير بالذكر أن المشرع المغربي ألغى سنة 2014 الفقرة الأخيرة من الفصل 475 من القانون الجنائي التي كانت تعفي الجاني «المغتصب» من عقوبة الحبس في حال زواجه من المجني عليها. وقد جاء هذا الإلغاء، بعد مسيرة نضال طويلة خاضتها الحركات الحقوقية بالمغرب، زاد من حدتها، انتحار الفتاة «أمينة الفيلالي» سنة 2012، عقب تزويجها بمغتصبها.

تجب الإشارة أيضا إلى أن جريمة الاغتصاب التي تطال القاصرات تصدرت النقاش العمومي في الآونة الأخيرة بالمغرب، إذ طالبت بعض الأصوات بتشديد العقوبات، فيما ذهبت أصوات أخرى حد المطالبة بإخصاء الجناة، أو تنفيذ عقوبة الإعدام في حقهم، وهو ما كان قد ذهب الفقه فيه سابقا.

ماذا يقول الفقه؟

بعض فقهاء المالكية والشافعية ذهبوا إلى تطبيق حد الحرابة على المغتصب، لأنه «جمع بين التعدي على الحرمات والفساد في الأرض والوطء المحرم»، غير أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار أن التمييز بين الأحرار والعبيد كان حاضرا في ذهنية الفقهاء عند صياغة تلك العقوبات، ذلك أنهم أسقطوا الحد على الرجل الذي يغتصب الأمة!!

إلى جانب تطبيق الحد على المغتصب، قضى المالكية بالصداق للمغتصبة بحجة أن «حد الله لا يسقط حق الآدمي وهما حقان أوجبهما الله ورسوله»، وأعطى الفقهاء للمرأة الحق «في الدفاع عن نفسها إذا أكرهها رجل على نفسها، وإن أدى ذلك إلى قتله، فلا شيء عليها».

وقد اشترط الفقهاء لإيقاع الحد على المغتصب شهادة أربعة شهود، إلا إن أقر المغتصب بجريمته فيؤخذ حينئذ بشهادة اثنين فقط.

العواقب... حرمان الطفل من نسب أبيه مثلا!

لجريمة الاغتصاب عواقب عدة، إن على المستوى النفسي والاجتماعي بالنسبة للمغتصبة، كما أسلفنا الذكر في الجزء الأول، أو خصوصا إن نتج عنه حمل ومن ثم وضع. بالإضافة إلى ما تعانيه المرأة حينها من ازدراء المجتمع ونظرته الدونية، كما تشير إلى ذلك الدراسات، فإن القانون يرفض أن ينال الابن نسب أبيه، ذلك أن العلاقة الجنسية التي نتج عنها الإبن، علاقة غير شرعية، وهو ما يدفعها في أحيان كثيرة إلى التفكير في إسقاطه؛ أي الإجهاض، وذاك نقاش آخر.

الحقيقة أن الاغتصاب يعد من الأسباب الرئيسية لحرمان الطفل من النسب، وهذا ما تؤكده المادة 152 من مدونة الأسرة، إذ تنص على أن أسباب لحوق النسب هي الفراش (عقد زواج)، أو الإقرار لشبهة (خلال ستة أشهر من الخطوبة، أو سنة بعد الطلاق)، أما الاغتصاب فلا يحق به النسب، إذ أن الحد والنسب لا يجتمعان.

هكذا يحمل الابن غير الشرعي وفق مدونة الأسرة، نسب أمه بناءً على البنوة الشرعية التي تستوي مع البنوة غير الشرعية بالنسبة للأم.

هذا المعطى يعد وجها من أوجه حماية الطفل، وهو مقتضى تداركه المشرع في مدونة الأسرة بعدما لم ينص عليه سابقا في مدونة الأحوال الشخصية.

بناء على المادة 146 من ذات المدونة، تترتب نفس الآثار عن البنوة للأم، سواء من علاقة شرعية أو غير شرعية، كحق الابن في الإرث مثلا. لكنه، مع ذلك، لا يستفيد من علاقة البنوة مع الأب، حتى لو ثبت أن الحمل ناتج عن اغتصاب.

يزخر تاريخ المغرب الضارب في القدم، بكثير من النساء اللائي كانت لهن أدوار سياسية مهمة، وإن في الخفاء.
زينب النفزاوية إحداهن. هذه الفتاة التي ولدت لتاجر من عامة القوم، سيقودها حسنها وحلمها و... ذكاؤها، إلى أن تصبح زوجة ملوك عدة، أبرزهم يوسف بن تاشفين. وقد كان لرجاحة رأيها، حسب المعطيات التاريخية المتوفرة، دور كبير في توسع المرابطين على نحو غير مسبوق في إفريقيا.
يقول عنها المؤرخ المغربي أحمد بن خالد الناصري في كتابه «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»: «كانت بارعة الجمال والحسن، وكانت مع ذلك حازمة لبيبة ذات عقل رصين ورأي متين ومعرفة بإدارة الأمور، حتى أنه كان يقال لها الساحرة».
في هذا البورتريه، نتعرف وإياكم على «زينب النفزاوية»، هذه المرأة التي خلد اسمها جزء من تاريخ المغرب العتيق.

زينب النفزاوية

زوجة ابن تاشفين ومهندسة توسع دولة المرابطين!

"المغرورة" بجمالها، وحلم الزواج بأمير البلاد

زينب بنت إسحاق النفزاوية، أو زينب تنفزاوة (بالأمازيغية)، وكما يدل اسمها على ذلك، هي ابنة إسحاق الهواري، أحد أكبر تجار قيروان آنذاك، وابنة "نفزة"، المدينة الأمازيغية التي تقع اليوم بالشمال الغربي لتونس. مصادر أخرى تقول إنها ابنة أحد صيادلة المدينة، لكن هذا الرأي يبقى، حسب عدد من الباحثين، ضعيفا.

تاريخ ميلاد النفزاوية يبقى مجهولا، ذلك أن المصادر التاريخية لا تذكر عنها شيئا قبل أن تظهر في حياة أمير من أمـراء المرابطين، وهو تحديدا، أبو بكر بن عمر اللمتوني. لكن المرجح أن ميلادها كان في يوم ما من بدايات القرن الحادي عشر للميلاد.

في عمر مبكر ستفر زينب النفزاوية رفقة والدها إلى أغمات (ضاحية مراكش)، بعد أن ثار قوم نفزة، التي كانت تحت إمرة بني زيري، على الخلفاء الفاطميين، ففر هؤلاء إلى القاهرة في مصر. هناك، طردوا بني هلال واستعانوا بهم لـ"همجيتهم"، حسب بعض الروايات التاريخية، كدروع بشرية في مواجهة الثائرين في نفزة.

كانت زينب امرأة حسناء، فذاع صيت جمالها بين القبائل في أغمات، وتنافس الرجال على الزواج منها، غير أنها رفضت ذلك، إذ اعتقدت أن حُسنها ينبغي أن يوصلها إلى مكانة مرموقة، فأصرت ألا تتزوج إلا بمن يحكم البلاد بأسرها.

هكذا، ستنعت من قبل نساء عصرها بالكاهنة والساحرة؛ حتى أن البعض قال لاحقا إن لها صلة بالشعوذة، بما أن طموحها تحقق فعلا.

يشير المؤرخ ابن خلدون إلى أن زينب النفزاوية تزوجت في البدء بيوسف بن علي، وكان شيخا على قبيلة وريكة، ثم تزوجها من بعده الأمير لقوط بن يوسف المغراوي، أمير أغمات.

الكتابات التاريخية المتوفرة تعرف هؤلاء باقتضاب مخل، لكن الأمير لقوط زوج زينب، سيكون آخر ملوك أغمات. حين استولى المرابطون على هذه المنطقة عام 1017 للميلاد، ظل متخفيا إلى أن فر هاربا، تاركا زينب النفزاوية لوحدها دون أن يأخذها معه.

زوجة أمير المرابطين

بعد دخول الأمير المرابطي أبو بكر بن عمر اللمتوني إلى أغمات، لم يسلم هو أيضا من حسن وجمال زينب النفزاوية، فتزوجها. تجدر الإشارة إلى أن اللمتوني يعده البعض فاتح إفريقيا، إذ عمل طوال حياته على محاربة البدع والوثنية المنتشرة في القبائل الإفريقية، مقابل نشر تعاليم الدين الإسلامي، وقد "فتح" في عهده أكثر من 15 دولة إفريقية.

ذات يوم، جاءه رسول يخبره بأن صراعا قد شب في الصحراء بين القبائل المسلمة. خشية ارتدادهم عن الإسلام وتشتتهم ومن ثم انقسام دولته، رأى أن يهاجر إلى الصحراء، ليقيم أمرهم وليكفهم عما هم فيه.

حسب كتاب "الاستقصا" للناصري، فإن اللمتوني سيفارق زوجته وسيطلقها، معللا ذلك بالقول: "يا زينب،

إني ذاهب إلى الصحراء، وأنت امرأة جميلة لا طاقة لك على حرارتها، وإني مطلقك، فإذا انقضت عدتك، انكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين؛ فهو خليفتي على بلاد المغرب".

هكذا، طلقها واستخلف يوسف بن تاشفين على المغرب ثم سار إلى الصحراء، وستصبح بذلك زينب النفزاوية زوجة لأمير المرابطين الجديد. بعض الروايات التاريخية تروي أن يوسف بن تاشفين كان متخوفا من فكرة زواجه بزينب بداية الأمر، لكنها

بعد دخول الأمير المرابطي أبو بكر بن عمر اللمتوني إلى أغمات، لم يسلم هو أيضا من حسن وجمال زينب النفزاوية، فتزوجها. تجدر الإشارة إلى أن اللمتوني يعده البعض فاتح إفريقيا، إذ عمل طوال حياته على محاربة البدع والوثنية المنتشرة في القبائل الإفريقية، مقابل نشر تعاليم الدين الإسلامي، وقد «فتح» في عهده أكثر من 15 دولة إفريقية

طمأنته بأنها "ستجعله سلطانا كبيرا يحكم المغرب بكامله".

زينب لم تدخر جهدا في مساعدة ابن تاشفين، برأيها ومالها. هكذا، يسجل التاريخ أن رجاحة عقلها كانت سببا في إتمام ما تبقى من "فتوحات"، وتثبيت دعائم الدولة المرابطية. وقد بلغ يوسف بن تاشفين بسند من زوجته مبلغا غير مسبوق في الملك، بل وكان أكثر ملوك عصره مكانة، ذلك أنه تميز بعلو الهمة والشأن، كما استطاع أن يسيطر على البلاد.

لكن، ما أن بلغ أبا بكر بن عمر اللمتوني ما أصبح عليه ابن عمه يوسف، حتى ارتأى أن يعود إلى المغرب، ويروى أنه "كان مضمرا لعزله وتولية غيره".

مهندسة توسع دولة المرابطين

معظم المؤرخين أثنوا على دور زينب السياسي آنذاك، فالناصري يقول إنها "كانت عنوان سعد ابن تاشفين، والقائمة بملكه، والمدبرة لأمره، والفاتحة عليه بحسن سياستها لأكثر بلاد المغرب". المؤرخ ابن الأثير يشير أيضا في كتابه "الكامل في التاريخ" إلى أن النفزاوية "كانت من أحسن النساء، ولها الحكم في بلاد زوجها ابن تاشفين". أما ابن خلدون، فيقول عنها: "كانت إحدى نساء العالم المشهورات بالجمال والرياسة".

الناصري يشير أيضا إلى أن يوسف بن تاشفين كان يذكر دائما فضل زينب عليه أمام الملأ من الناس، ويثني عليها إذا اجتمع بأبناء عمومته فيقول: "إنما فتح الله البلاد برأيها".

تجمع الروايات التاريخية على أن النفزاوية كانت المشيرة على ابن تاشفين والمحفزة له على بناء عاصمة جديدة للمرابطين، أي "مراكش".

من صلب ابن تاشفين، أنجبت النفزاوية ثلاثة أبناء: تميم والفضل والمعز بالله. ومع أن حنكتها السياسية ومكانتها عند ابن تاشفين كان يمكن أن تجعلانها تدفع بأحد أبنائها لخلافة زوجها، إلا أنها لم تستبد بأمور الحكم، وكان لتربية أبنائها فضل كبير في دعم ابنها تميم، القائد العسكري "البارع"، لأخيه من أبيه، "علي"، في خلافة الملك.

في الأخير، اختلفت المراجع التاريخية في تحديد تاريخ وفاة زينب النفزاوية، فبعضهم يقول إن ذلك كان سنة 1071 للميلاد، والبعض الآخر، سنة 1076، وهناك آخرون يقولون بوفاتها سنة 1081.

هكذا شاركت زينب النفزاوية في انقلاب ابن تاشفين على ابن عمه وكذا توسع دولة المرابطين

الواقع أنه لولا زينب النفزاوية لما استمر يوسف بن تاشفين على رأس هرم السلطة، فحين بلغ ابن تاشفين ما يعزم عليه اللمتوني، أخذ رأيها وعمل به؛ ورأيها كان، حسب الناصري: "إن ابن عمك لا يحب سفك الدماء، فإذا لقيته فاترك ما كان يعهده منك من الأدب والتواضع معه، وأظهر أثر الترفع والاستبداد، حتى كأنك مساو له، ثم لاطفه مع ذلك بالهدايا".

هكذا، لما وصل اللمتوني إلى المغرب، خرج إليه ابن تاشفين، وسلم عليه سلاما مقتضبا عن بعد وهو راكب حصانه، فيما لم يترجل كما عهد معه من أدب، فنظر أبو بكر إلى كثرة جيوش ابن تاشفين، ثم سأله: "يا يوسف، ما تصنع بهذه الجيوش؟"، فأجابه: "أستعين بها على من خالفني". ارتاب أبو بكر من ابن تاشفين، ثم نظر إلى ألف من الإبل جاء بها الأخير معه، وحين سأله عنها، أجابه: "أيها الأمير، إني قد جئتك بكل ما معي من مال وأثاث وطعام؛ لتستعين به على بلاد الصحراء"، عندها... أيقن اللمتوني ما يدور في خلد ابن تاشفين، وعرف أنه لن يتخلى له عن ملك المغرب.

حينها، طلب منه اللمتوني أن يترجل، ولأنه "رجل ورع لا يحب سفك الدماء"، ولاه الأمر نهائيا وأوصاه قائلا: "إني قد وليتك هذا الأمر، وإني مسؤول عنه، فاتق الله في المسلمين، وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا؛ فإنك مسؤول عنه، والله يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم"، ثم ودعه وعاد أدراجه إلى الصحراء.

زليخة نصري

سيرة أول مستشارة لملك المغرب

كان يمكن لصبية ولدت بوجدة سنة 1945، ومحيطها ينخره الفقر والتقاليد التي تسطو على مسار الأنثى، أن تذهب في مسار المرأة السائد حينذاك، من بيت الأب إلى بيت الزوج، ثم أخيرا بيت الأبدية.
لكن مسارها لم يكن كذلك، بل وكان استثنائيا، والأمر ليس مصادفة كما قد نفهم من قصيدة الشاعر الفلسطيني محمود درويش، «لاعب النرد». فهذه المرأة دون قليل من المبالغة، كما سنعرف في هذا البورتريه، وهبت حياتها للاجتهاد والتفاني إن في دراستها أو في عملها، حتى أنها آثرت، ضاربة نظرة المجتمع عرض الحائط، عدم الزواج!
إنها الراحلة زليخة نصري، أول مستشارة امرأة للملك في المغرب، وعينه التي كانت لا تنام!

الاجتهاد يغلب قلة ذات اليد

ذات يوم من عام 1945، ستعرف مدينة وجدة ولادة صبية أطلق عليها والداها اسم زليخة، زليخة نصري. ثم، كأي بنت "محظوظة" آنذاك، ستلحق بإحدى مدارس المدينة، وستتدرج سنة تلو الأخرى تحصد النجاحات إلى أن نالت شهادة البكالوريا.

إلى هنا، أصبحت وجدة مدينة أم، فالراحلة ستشد الرحال صوب العاصمة الرباط لتدرس بكلية الحقوق بجامعة محمد الخامس. توجت مسارها بالحصول على شهادة إجازة في العلوم القانونية، ثم ما لبثت أن التحقت بالمدرسة الوطنية لـلإدارة، فحصلت على دبلومها عن شعبة المالية والاقتصاد.

طموح زليخة كان جامحا في التحصيل الأكاديمي، فحضرت دكتوراه في القانون الخاص بفرنسا تحديدا بجامعة جان مولان، وهي الشهادة التي نالتها عن موضوع "قانون التأمينات بالمغرب"، أطروحة تعد إلى اليوم، حسب باحثين، أهم ما كتب عن التأمينات بالمغرب.

كفاءة زليخة هذه المرة مكنتها من الالتحاق بقسم التأمينات بوزارة المالية سنة 1994، لتصبح رئيسة له بعد ذلك. في نفس الأثناء، كانت تمارس التدريس بعدد من الجامعات والمعاهد المغربية.

لم يكن لاسم زليخة نصري أن يمر على المسامع مرور الكرام، فسرعان ما سيذيع صيتها كامرأة بارزة في مجال المال والأعمال، وأيضا بشكل خاص، في المجال الاجتماعي... اسم سيتصادى حتى دائرة القصر. هكذا ستقطف زليخة فاكهة سنوات من الاجتهاد والمثابرة، بعدما عينها الملك الراحل الحسن الثاني سنة 1997، كاتبة للدولة بوزارة الشؤون الاجتماعية مكلفة بالتعاون الوطني

كانت حينها... واحدة ضمن أربع نساء في حكومة عبد اللطيف الفيلالي.

زليخة نصري... عين الملك على الفقراء!

سنة بعد تعيينها كاتبة للدولة بـوزارة الشؤون الاجتماعية مكلفة بالتعاون الوطني، عام 1997،

ستخطف زليخة نصري الأضواء من الجميع... ستخطفها حد أن لفتت انتباه القصر إلى كفاءتها، فعينها الملك الراحل الحسن الثاني مكلفة بمهمة داخل الديوان الملكي. هناك بدأت تتسلق درجات أخرى بكامل شغفها للنجاح والذهاب بعيدا في الهدف الذي ابتغته لحياتها. توالت الأحداث سريعا، توفي الملك عام 1999، وجلس ولي عهده على العرش وأصبح ملكا، فأصبح أيضا عام 2000 فارقا في تاريخ المغرب الحديث، فهذه المرأة التي أتت بعيدا من المنطقة الشرقية، سيعينها الملك محمد السادس أول مستشارة امرأة له في المغرب.

منذ ذلك الوقت، نادرا ما ظهر الملك في شأن اجتماعي دون زليخة. كانت عينه التي لا تنام على الفقراء. وصفها البعض بالمرأة الحديدية التي تهتم بأدق التفاصيل. كانت ذات هيبة منقطعة النظير، كانت امرأة دولة، امرأة القصر التي ترتعد فرائص الولاة والعمال لهاتفها وحضورها، لكن في الوقت نفسه، عطوفةً حنونةً على الفقراء كما يشهد بذلك المقربون منها. هكذا اعتبرت زليخة نصري مهندسة قرارات القصر في الملفات والمشاريع الاجتماعية. نالت قسطا وافرا من ثقة الملك، والشواهد على ذلك كثيرة، مثل ترأسها سنة 2011 للجنة مكلفة بالمراقبة الدقيقة لإنجاز السكن الاجتماعي، وقد كانت في ذلك دقيقة ومهووسة بالتفاصيل حتى أنها كانت لتسأل عن "شجرة" موجودة في التصميم دونا عن الواقع، كما يتذكرها عدد من المنعشين العقاريين.

كانت زليخة صارمة في العمل، قريبة من المواطنين، ففي سنة 2004، يتذكر الكثيرون زيارتها للحسيمة في مأساة الزلزال الذي ضربها، حيث ظلت هناك أسبوعا تتفقد أحوال الناس، وتقف في وجه كل من يحاولون الركوب على مأساتهم.

نعم صحيح أنها قد كلفت ربما بالشأن الاجتماعي في القصر لكونها امرأة، لكنها لفطنتها وانضباطها وثقة الملك فيها لتنفيذها أوامره بدقة، منحها الأخير ملفات أخرى اقتصادية وسياسية بعد وفاة مستشاره الآخر مزيان بلفقيه عام 2010؛ فها هي هذه المرة، مثلا، تظهر بجانب الملك في تدشينها لأشغال القطار الفائق السرعة بطنجة في ذات السنة.

هكذا إذن استطاعت زليخة نصري أن تصنع لنفسها مقاما وازنا بين مستشاري الملك الرجال، طيلة 15 عاما، بوقار بالغ وخدمة متفانية؛ مبتعدة عن أي صراع قد يدخلها في حزازات تخدش ثقة الملك فيها، إلى أن لبت نداء أجلها عام 2015 عن 70 عاما، إثر جلطة دماغية.

يسارية؟ الصراع مع الإسلاميين

يظن الكثير أن زليخة نصري كانت متشبعة بالفكر اليساري، بل إن هناك من قال إنها كانت عضوة في حزب التقدم والاشتراكية أو حزب التجمع الوطني للأحرار... شيئا من هذا لم يكن، أو على الأقل لم يتم تأكيده؛ لكن زليخة كانت حتما متحررة ومنفتحة على كل الأفكار المتنورة.

في وقت كان فيه الإسلاميون قد توغلوا في المجتمع، تفطنت زليخة مبكرا إلى أن توغلهم بشكل أكثر عمقا قد يضر المجتمع الذي تطمح إليه، بخاصة في ما تعلق بقضايا المرأة؛ فتقربت أكثر من المواطنين تصنع عنها وعن المرأة بشكل عام، صورة مفادها أنها مؤهلة لخوض أعتى التحديات وأنها قادرة على ريادة مناصب جد متقدمة.

العمل الذي تبوأته زليخة نصري كعضوة في جمعية محمد الخامس للتضامن، مكنها من النضال في إطار رسمي بعد أن كان جمعويا، يبتغي رفض أي استغلال للدين كمشترك بين الغالبية من المغاربة لأغراض سياسية أو فئوية.

زليخة برزت على نحو ملفت للانتباه في إعداد مدونة الأسرة، بحيث إنها شجعت على إقرار مطالب النساء، بتعديل قوانين الزواج والطلاق والحضانة والولاية، ودافعت عن ذلك باستماتة في النقاشات التي أسلفت المصادقة على المدونة، بخاصة ضد عبد الكبير العلوي المدغري ومصطفى بن حمزة وأحمد الريسوني وغيرهم ممن عارضوا أي تغيير لا يحترم الضوابط الشرعية.

اليوم، يتذكر التاريخ المغربي، بخاصة النسائي منه، بكثير من الفخر إسهامات زليخة نصري في سبيل تحرير المرأة المغربية والوقوف في وجه كل من حاول أن يعيق تقدمها، كما يتذكر أيضا أن هذه المرأة الآتية بعيدا من الشرق، كانت سيدة القصر الأولى في الشؤون الاجتماعية.

في وقت كان فيه الإسلاميون قد توغلوا في المجتمع، تفطنت زليخة مبكرا إلى أن توغلهم بشكل أكثر عمقا قد يضر المجتمع الذي تطمح إليه، بخاصة في ما تعلق بقضايا المرأة؛ فتقربت أكثر من المواطنين تصنع عنها وعن المرأة بشكل عام، صورة مفادها أنها مؤهلة لخوض أعتى التحديات وأنها قادرة على ريادة مناصب جد متقدمة

خربوشة: عيطة حق عند سلطان جائر

صوت صدح في زمن لم يكن مباحا فيه للأصوات أن تَصدح، وامرأة تكلمت يوم كان لا يسمح للنساء بالخروج من بيوتهن إلا إلى مثواهن الأخير.... أيقونة لا تقل ثورية عن مشاهير الثوار. ذكرى امرأة تَمّ طيها كما يَطوي النسيان ذكريات المناضلين وسط زحام التفاهة.

«خربوشة» أو «حادة الزيدية»، فنانة وشاعرة، وثائرة في وجه الظلم والقهر بسلاح الكلمة والصوت الذي جهر ببطحاء «عبدة» مزلزلا قصبات القايد «عيسى» الذي كان طاغية زمانه و«حَجّاجٌ» حقبته.

«خربوشة» المرأة قبل أن تكون الفنانة، والشيخة قبل أن تكون المناضلة، شخصية ملحمية كسرت جدرانا سميكة من الصمت، واستعلت على الأعراف والألقاب العنصرية، لتنتزع الاعتراف بها كامرأة وفنانة، مخلدة بذلك اسمها بين نساء المغرب والعالم كصوت نشاز عن منظومة القهر والطاعة. مع نهاية القرن التاسع عشر، كان المغرب يعيش ظروفا سياسية مضطربة واستبدادا متفشيا بين القياد، الذين لم يتوانوا، لتوسيع سلطتهم ومناطق نفوذهم، في نهج سياسة عنيفة لقمع كل تمرد من القبائل التي ترفض الانقياد ودفع الضرائب لخزينة الدولة المركزية.

من بين كل هؤلاء القياد، اشتهر القايد «عيسى بن عمر» كقائدٍ حاز ثقة السلطان «المولى عبد العزيز» بتنصيبه قائدا على جهة عبدة-دكالة. قائدٌ حكم بقوة البارود وسنابك الخيل، ولم تأخذه شفقة ولا رأفة وهو يُزهق مئات الأرواح من قبيلته في سبيل توطيد دعائم حكمه واسترضاء السلطات المركزية بالرباط.

يقول المؤرخ المختار السوسي عن القايد عيسى: «لا عيب فيه إلا كثرة الفتك بأهل قبيلته، فما أسهل إزهاق الأرواح عنده».

إذا كان هذا حاله مع أبناء قبيلته، فإن سياسته كانت أعنف مع باقي القبائل، خصوصا قبيلة «ولاد زيد» التي ثارت في وجه ظلمه وتعسفه، متحفزة بشعر «خربوشة» التي اختارت الاصطفاف مع أبناء قبيلتها في وجه طغيان «عيسى بن عمر». شعرٌ، عند تأمل حمولته السياسية والاجتماعية، يمكن القول إنه نابع من وجدان فنانة مناضلة، متفهمة للعبة السياسية وأساليبها الميكيافيلية لإخضاع القبائل المقهورة.

تقول في قصيدتها الشهيرة التي كانت سببا في تمرد قبيلتها وسببا في نهايتها نهاية مأساوية:

خَرْبُوشَة نْخُوَة وعْزّة تْشْفِي الجْرَاحْ وَقْت الحَزّة
والأيام الأيام أيام القهرة والظلام
فِينَك أَغْوِيسَة وفِينْ الشّان والمَرْشَان
تْعَدّيتِي وخَسّرْتِي الخْوَاطر وظَنّيتِي القْيَادَة على الدوام
فِي أَيّامْك الجِيد مَا بْقَالُو شَانْ
والرّعْوَانِي زِيّدْتِيه القْدّام
سِير أَعِيسَى بْن عُمَر أَوكّال الجّيفَة.. وَيَا قْتّال خْوتُو ومْحَلّل الحْرَام
عْمّر الظّالْم مَا يْرُوح سَالْم
وعْمّر العَلْفَة مَا تْزِيد بْلا عْلاّم

تفتتح «خربوشة» عيطتها باعتزازها بنفسها وثقتها في صواب رأيها الذي يُلجأ إليه «وقت الحزة» لاستلهام أسباب العزة والنصر، وهو الأمر الذي ينبغي أن يتوقف عنده مطولا، لاستجلاء صلابة وجرأة «خربوشة» في زمن كان الفقه الذكوري فيه، يحرم على النساء الإدلاء برأيهن في عظائم الأمور، أو المشاركة في سياسة الدولة والقبيلة. ثم تنتقل بعد ذلك، للتصغير من عيسى بن عمر، بتصغير اسمه والتقليل من «شانه ومرشانه» في أوج سطوته وقوته.

«عيسى بن عمر» الذي بسط سلطته على سهول «عبدة»، «دكالة»، «حْمَرْ»، و«الشياظمة»، يُنتقص من قدره بطريقة ساخرة وبِبَيت شعري، جعله قزما أمام قامة «شيخة» ثائرة.

ثم تتوالى أبيات القصيدة في وصف سياسة «عيسى بن عمر» الجائرة، التي تُوّلِي رعاع الناس المناصب العليا مقابل الولاء المطلق، وإمعانه في الخروج عن شرعة الدين والأعراف الإنسانية:

فِي أَيّامْك الجِيّد مَا بْقَالُو شَانْ
والرّعْوَانِي زِيّدْتِيه القْدّام
سِير أَعِيسَى بْن عُمَر أَوكّال الجّيفَة.. وَيَا قْتّال خْوتُو ومْحَلّل الحْرَام
عْمّر الظّالْم مَا يْرُوح سَالْم
وعْمّر العَلْفَة مَا تْزِيد بْلا عْلاّم

استشاط القايد عيسى بن عمر غضبا من تحطيم صورته بين القبائل، وأضمر الشر لخربوشة وقبيلتها فأوقع بهم في الحادثة المشهورة «بعام الرفسة»... فأجهز على جريحهم، وطارد الفارين منهم إلى الأضرحة والزوايا فقتّل فيهم تقتيلا ذريعا، ثم أطلق جواسيسه وفرسانه للقبض

على «خربوشة»، التي اختلفت الروايات في طريقة قتلها والتنكيل بها.

قيل إنه اقتلع لسانها مبالغةً في تعذيبها والثأر من كلماتها ثم قتلها، وقيل إنه وأدها حية، وقيل إنه أُلقي القبض عليها من طرف المخزن ثم أُرسلت إلى الحضرة الشريفة بالرباط؛ لكن أعين «عيسى بن عمر» كانوا أسرع من المخزن فقتلوها في الطريق. كيفما كانت نهايتها، فهي لا تختلف عن نهاية الثائرين في وجه الاستبداد والمغردين خارج السرب والرافضين لأن يكونوا جزء من القطيع الكبير.

ماتت «خربوشة»... لكن كلماتها لازالت حية وألحان عيطتها لازالت تُعزف كسيمفونية خالدة تُحفز النساء لاستكمال مسيرة النضال ضد القهر والاضطهاد.

ماتت «خربوشة». لكن فنها لا زال يُذَكِّر الفنانين أن الفن قضية قبل أن يكون ترفيها، وأن الفنان ينبغي أن يكون صاحب موقف من قضايا عصره يعبر عنه بكلماته، بألوانه، بمسرحية ساخرة، بفيلم سينمائي... وأن مقطعا شعريا ملهما، كقصيدة خربوشة، يفعل ما لا تفعله مئات الكتب والمحاضرات لإلهاب وتحفيز الجماهير تجاه قضاياها المصيرية. ماتت «خربوشة» ولم تخجل من لقبها كشيخة بل كانت مفتخرة معتزة بنفسها وبما تقوم به، لأن الصواب والخطأ ليسا حكمين مطلقين بل يتغيران حسب وجهة النظر إليهما، و«خربوشة» بمواقفها وشعرها أثبتت أن الشيخة لا تقل مكانة عن أي مناضل أو صاحب قضية إذا استطاع أن يفلت من قبضة المجتمع وأحكامه الجاهزة.

ماتت «خربوشة» لتعلم الفنانين أن الفن عَصِيٌّ على التدجين والاستلاب والخضوع. ماتت... لكن فنها لم يمت كما ماتت وستموت آلاف الأغاني كـ «رجب حوش صاحبك عني» و «بوس الواوا»!

زهرة الفاسية... صاحبة «حبيبي ديالي فين هو» وأول فنانة قدمت أسطوانة غنائية في المغرب

كمغاربة، من المحتمل جدا أن يكون الواحد منا قد سمع يوما ما أغنية «حبيبي ديالي فين هو»... من المحتمل، أيضا، أن نكون قد سمعناها بأصوات مختلفة، فأيقنّا أن هذه الأغنية من روائع التراث المغربي... وأخيرا، من المحتمل أن نكون قد تساءلنا: «ترى من صاحب هذه الأغنية»؟

حسنا... أول من قدم هذه الأغنية، امرأة، اسمها زهرة الفاسية. بل وهي أول امرأة سجلت أسطوانة موسيقى في المغرب. في هذا البورتريه، نعود بكم إلى ذكراها كأحد أعمدة التراث الموسيقي المغربي[1]...

اسمها زهرة الفاسية، أو هكذا عرفت؛ فمجزوم أن هذا ليس باسمها الحقيقي كما دأب كثير من أهل الفن قديما، على تقديم أنفسهم إلى الجمهور باسم آخر. زهرة الفاسية رأت النور في مطلع القرن العشرين. بعضهم يقول إن ذلك كان عام 1900 بمدينة فاس، وبعضهم الآخر يرده إلى عام 1905 بمدينة صفرو.

الأكيد أنها نشأت بفاس في وسط يهودي، ذلك أنها يهودية. هذا الوسط كان عاشقا للفن، يزخر بموسيقى كالطرب الأندلسي والغرناطي والملحون، إلى ذلك من الأنماط الموسيقية التي كانت سائدة وقتذاك.

هكذا، ومنذ باكر عمرها، ستتسرب الموسيقى إلى قلب زهرة الفاسية. الحقيقة أن التاريخ لم يسجل الكثير عن نشأتها وبداياتها في الغناء. لكن زهرة الفاسية، اليوم، تعرف بكونها أول امرأة سجلت أسطوانات موسيقى في المغرب.

لا نعرف، أيضا، كيف انتقلت زهرة الفاسية في الغناء من الهواية إلى الاحتراف. لكن، ثلاثينيات القرن الماضي، كان أن دخلت تجربة زواج ثانية، بعد تجربة أولى أنجبت منها ابنين. هذه المرة ارتبطت بتاجر يهودي يدعى "طابيرو"، وكان يعمل في نقل الأسماك بالرباط.

عموما، يشير كتاب الإذاعي أبو بكر بنور "ضروب الغناء وعمالقة الفن"، إلى أن اكتشاف زهرة الفاسية، كمغنية، يعود إلى فنان اسمه إبراهيم الباشا، حين انتقلت إلى الرباط واستقرت بها، ثلاثينيات القرن الماضي.

منذ هذا الوقت، بدأت شهرة زهرة الفاسية. طوال عقدين من الزمن، قدمت مجموعة من القطع الموسيقية، التي كانت معروفة حينذاك، كـ"العيطة البيضاوية"، و"عيطة مولاي إبراهيم" وبعض قصائد الملحون. التسجيلات التي قدمتها زهرة خلال هذه الفترة، إذن، عبارة عن قطع تراثية مغربية غنتها بأسلوبها الخاص.

الواقع أن زهرة الفاسية مكثت بالرباط إلى غاية الأربعينيات، ثم انتقلت إلى مدينة الدار البيضاء، حيث استقرت بدرب بوطويل بالمدينة القديمة. هناك تعرفت على أشهر مغنيي تلك الفترة، مثل السولامي وسليم عزرا وبوحبوط.

مع ذلك، لا يُعرف أي الملحنين وكتاب الكلمات الذين تعاملت معهم زهرة الفاسية... الأكيد فقط أنها خلال هذه الفترة، قدمت روائعها الغنائية التي سجلت كأهم ما قدمته الموسيقى اليهودية المغربية لتراث هذه البلاد. من بينها يمكن أن نستمع إلى "زاد علي الغرام"، "يا وردة"، "شعلت النار"، "سعدي ريت البارح"، "الغربة"، ثم أشهرهن جميعا، "حبيبي ديالي فاين هو".

كانت زهرة الفاسية، حينها، شهيرة في الأوساط البورجوازية، إذ كانت تستضيفها عائلات من هذه الطبقة للغناء في جل مناسباتها، وهو ما يحدو اليوم بكثير من المغنين إلى تقديم قطعها الغنائية في المناسبات الخاصة التي تتسم بالفرح.

ظل الأمر على هذا النحو، إلى غاية عام 1964. قبل ذلك، انتقلت زهرة الفاسية لتقطن في "درب الإنجليز"، ثم لاحقا في "ساحة فيردان"، قبل أن تقرر الهجرة إلى فرنسا، حيث استقرت دون العودة إلى المغرب. لكنها، على غرار كثير من اليهود، هاجرت إلى فلسطين المحتلة/"إسرائيل" عام 1964، ثم عاشت هناك في عسقلان، إلى أن توفيت في الـ16 من يوليوز 1995. يذكر البعض أن زهرة الفاسية ظلت دوما متشبثة بهويتها المغربية؛ ذلك أن بيتها هناك، كان مؤثثا على الطريقة المغربية، تكلله صورة للملك الراحل محمد الخامس، بجانب كونها كانت ترتدي القفطان المغربي دائما.

وبالمناسبة، كانت وزارة الثقافة في المغرب قد أصدرت في وقت سابق، أسطوانة خاصة بزهرة الفاسية، ضمن أنطولوجيا الموسيقى المغربية، في جزء خاص بالمغنين المغاربة اليهود، وقد تضمنت ثمانَ أغان لها.

هكذا، إذن، دونت زهرة الفاسية اسمها بمداد لا يمحى في قائمة أوائل المغنين المغاربة، الذين قدموا قطعا موسيقية تعد، اليوم، تراثا للمغاربة جميعا، حيثما احتفلوا أخذوا في ترديدها.

الإجهاض السّري في المغرب

لا تحركوا «مواجع» النساء!

بكثرة تناوله من طرف الإعلام، لم يعد الإجهاض السرّي... سرّيا بالفعل. لكن... رغم كثرة تناوله إعلاميًا، ورغم عقود من النّضال النّسائي والمدني والحقوقي، لم يتمّ السماح للإجهاض بأن يمارس بشكل قانونيّ في المغرب.

يشكّل الإجهاض وجعاً حقيقياً لبعض النساء، اللائي لهنّ تجربة في الإيقاف الإراديّ للحمل. وتستمرّ المواجعُ إزاء الأمر الواقع وخطورته.

الإحصائيات الوحيدة المعتمدة منذ عقد من الزمن، والتي أعدتها الجمعية المغربية لمُكافحة الإجهاض السّري، تقول إن الأرقام تتراوح بين 600 إلى 800 حالة إجهاض في اليوم... إجهاض ممنوع وغير قانوني، ولكنه موجود!

المطلب الوحيد المرفوع اليوم، هو تقنين الإجهاض ليكُون في ظروف صحية آمنة. أن يُمارسَ في مصحات وأيضاً في مستشفيات عمومية. وأن يكون مجانياً أو بثمن رمزي، ليكون متاحا أمام الحالات التي تنتمي للفئات الهشّة. السرية ترفع الثّمن، وتجعل بعض "المافيا" تقتاتُ من بؤس هؤلاء النّساء بشكل غير أخلاقي وغير مشرُوع.

في رصد الواقع...

لا يخفي الدكتور شفيق الشرايبي أنّه، عندما كان رئيساً لمصلحة النّساء والتوليد بمستشفى الولادة بحي الليمون بالرباط، كانت هناك حالات كثيرة تأتي إلى المستشفى. ترد إيقاف حملهنّ بشكل إراديّ.

أيضاً، مما يورده البروفيسور الشرايبي لمرايانا، فإنه في زمن اشتغاله في المستعجلات، كانت ثمة حالات وافدة لفتيات أخذن مواداً سامة لإنهاء حياتهن. كان الأمر يبدو للوهلة الأولى على أنّه يتعلق بانتحار. غير أنّ الفحص الطبيّ يوضّح بجلاء أن الفتاة كانت حاملاً.

هذا، طبعاً، في وقت تنصّ فيه المادة 449 من القانون الجنائي المغربي على أنه: "من أجهض أو حاول إجهاض امرأة حبلى أو يظن أنها كذلك، برضاها أو بدونه سواء كان ذلك بواسطة طعام أو شراب أو عقاقير أو تحاليل أو عنف أو أية وسيلة أخرى، يعاقب بالحبس من سنة إلى خمس سنوات وغرامة من مائتين إلى خمسمائة درهم. وإذا نتج عن ذلك موتها، فعقوبته السجن من عشر إلى عشرين سنة".

ثمّ تأتي المادة 453، التي وصفها حقوقيون بـ"اليتيمة"، لتنصّ على أنه: "لا عقاب على الإجهاض إذا استوجبته ضرورة المحافظة على الأم متى قام به علانية طبيب أو جراح بإذن من الزّوج".

لكنّ البروفيسور شفيق الشرايبي يدفع بأنّ المادّة "قاصرة" عن التعبير عن الواقع، ذلك أنّ الحفاظ على الأم وصحّتها، يستوجب مراعاة الحفاظ على صحتها النفسية والعقلية وكذلك الاجتماعية، والتي كلها ستكون مهدّدة نتيجة حمل غير مرغُوب فيه.

رغم وجود هذا النصّ القانوني، يعدّد الشّرايبي ثلاثة أنواع من الإجهاض. يتعلق الصّنف الأول بفئة، نادرة في الواقع، لكنّها تشكل عنصر مفارقة، تشمل هذه الفئة الأشخاص الذين لهم الإمكانات المادية ليذهبوا للخارج، ويجرون عملية الإجهاض بشكل قانوني وآمن. هنا، يصبح للمشكل علاقة بالطّبقية وانعدام تكافؤ الفرص بين الأثرياء والطّبقات المجتمعية الأخرى... حتى في باب الإجهاض. هُناك أيضاً فئة متوسّطة تتوجه نحو أطباء يمارسُون الإجهاض السّري، بثمن مُرتفع أحياناً، يتراوح بين 3000 و15000 درهم.

هذا الإجهاض، وفق البروفيسور الشرايبي، آمن نسبياً، ولكنّه غير قانوني؛ حتى أنه قد يعرض صحة المرأة للخطر، ويعرّض الطّبيب للسجن.

معظم الأطباء الذين يجرون (بشكل سري) عمليات الإيقاف الإرادي للحمل، يضاعفون أسعار عملية الإجهاض كلما أدركوا الخطر واستعجال الحالة. هكذا، فالسّعر يرتفع حسب الحالة وحسب عدد شهور الحمل مثلا. ثمّ في ذيل الترتيب، يردف الشرايبي، توجد الفئة الفقيرة المُعدّمة، التي تلجأ إلى الإجهاض التّقليدي وغير الطبي. هنا، يقدّمون للمرأة مواداً تقتنيها من عند العشاب، وتدهن بها بطنها أو مهبلها، أو أعشاباً "ساخنة" تجهض الطّفل داخل البطن.

هذا كان يخلق، يقول البروفيسور الشرايبي،"مضاعفات خطيرة وقفنا عليها في عدّة حالات وافدة للمستشفى، كالنّزيف، تمزّق الرحم، تسممات، تعفنات ووفيات...".

الحقّ في الحياة للجنين؟

بعض الأصوات الحقوقية بالمغرب، تقول إنها تدافع عن الحق في الحياة فيما يتصل بالظّروف الخاصّة بالمرأة التي ترغبُ في الإجهاض. لكن مع التّشديد على حق الجنين في الحياة أيضاً.

تضعنا هذه الحجة أمام كون الحمل يحيل على حياتين، وليس حياة واحدة.

يتمّ تقديم هذه الحجة على أنها مقاربة حقوقية تحفظُ حق الجنين في الحياة. كما أنها في ذات الوقت مُقاربة عقلانية تحفظُ صحّة الأم والطّفل معاً.

لكنّ السّؤال الذي تطرحُه مرايانا في هذا الباب هو: إلى متى سيتمّ حفظُ الحياتين معاً؟

هذه المقاربة، وفق مدافعين عن الحقّ في الإجهاض، تستثني وجود الإجهاض السري وغير الآمن، الذي يهدّد صحّة الأم البدنية والعقلية والاجتماعية. كما تستثني حقيقة أنّ حياة ذلك الرّضيع، هي نتاج خالص لحمل غير مرغوب فيه، وستكون لها تبعاتها المجتمعية والنفسية. فماذا إذا وُلد وتم التخلي عنه، أو في حالة قتله حتى من طرف أمه، ورميه في الشارع أو في حاويات القمامة؟ وهذه أمور نتابع تفاصيلها بكثرة.

استجابةً للدفوع المقدّمة من طرف المناضلين لتقنين الإيقاف الإرادي للحمل، تمّ تقديم مشروع قانون جنائي جديد يوسّعُ من الحالات التي يسمح فيها للأطباء بالإجهاض. يحدّد الفصل 453 الحالات التي لا يعاقب عليها القانون في حالة القيام بإجهاض في:

- إذا كان الحمل ناتجا عن اغتصاب أو زنا المحارم، شريطة أن يقوم طبيب في مستشفى عمومي أو مصحة معتمدة بذلك، وأن يتم قبل اليوم التسعين من الحمل، وأن يتم الإدلاء بشهادة رسمية تفيد فتح مسطرة قضائية يسلمها الوكيل العام للملك المختص بعد تأكده من جدية الشكاية، وأن يُشعِر الطبيب مندوبَ وزارة الصحة بالإقليم أو العمالة، قبل إجراء عملية الإجهاض، وأن تُشعَر المرأة الحامل إلى الإمكانية القانونية المتاحة لها بخصوص كفالة الطفل، وإلى الأخطار الصحية التي يمكن أن تتعرض لها جراء الإجهاض، وتمنح مهلة لا تقل عن ثلاثة أيام للتفكير.
- لا يعاقب على الإجهاض، إذا كانت المرأة الحامل مختلة عقليا (مع تقييد هذه الحالة كسالفتها بمجموعة من الشروط).

• في حالة ثبوت إصابة الجنين بأمراض جينية حادة أو تشوهات خلقية خطيرة غير قابلة للعلاج وقت التشخيص. حدثت تعقيبات كثيرة على القانون. أبرزها أنه، نظرا لكون الحمل الناتج عن علاقة جنسية مع القاصر يدخل في إطار الاغتصاب وفق القانون المغربي، فهذا القانون، الذي لم يصادق عليه بعد، استثنى القاصرات صراحةً من مشروع القانون.

فلماذا لم تتمّ المصادقة على هذا القانون بعد؟

رئيس الجمعية المغربية لمكافحة الإجهاض السري، البروفسور شفيق الشرايبي، يجيب عن سؤال مرايانا معتقداً أنّ حزب العدالة والتّنمية الإسلامي ظلّ يشكل عرقلة للموضوع طيلة وجوده في الحكومة. الآن، هو خارج دواليب صنع القرار، ولذلك "سنتوجه للتجمع الوطني للأحرار والأصالة والمعاصرة، الذين سبق واجتمعت الجمعية معهم، وكانوا يرحبون بالفِكرة".

البروفيسور الشرايبي، يختم حديثه لمرايانا بالقول:"نأملُ من الأحزاب المشكّلة للأغلبية الحكومية الجديدة أن تدفع في اتّجاه التّصويت على القانون في البرلمان، رغم أنّ الحالات التي تضمنها القانون غير كافية، ولا تعبر عن كل الحالات المطروحة مجتمعياً. إلاّ أنّها ستكون حلقة إنقاذ مهمّة للبعض، في أفق استمرار النّضال لتوسيع القانون إلى أن يتمّ حلّ المُشكل نهائياً".

الإجهاض السّري في المغرب: علينا أولاً... "إجهاض" النفاق!

سؤال الإجهاض في النهاية، يظل رهين كلمة مفتاحية، مارست على الدوام لعبة المنع باسم التحريم. كلمة مفتاحية، عنوانها الدين، مقابل تغييبٍ تام ومتعمّد للمدخل الأسّاس في الحكاية: الطبّ.

فهل مشكل الإجهاض له موانعٌ دينية صِرفة؟

منع الإجهاض يعني النفاق؟

في تصريح حصريّ خصّ به مرايانا، يرى البروفيسور سعد أكومي، الأخصائي في أمراض النساء والتوليد، أنّ كلّ ما هو سري، هو خطير بالضرورة. والإجهاض السّري، بـدوره، لا يخلو من مخاطر جمّة، صحّية وقانونية وأخلاقية واجتماعية ومادية.

حين تثارُ لأكومي مسألة الإيقاف الإراديّ للحمل، يطفو إلى ذهنه مُباشرة، ما يسميه بالنّفاق المجتمعي والمدني والقانوني. وذلك على اعتبار أنّ القانون لا يستثني الحالات التي قيل في مشروع القانون إنّه سيلتفت إليها ويتيح فيها الحقّ في الإجهاض؛ والتي حددتها اللجنة التي تم تعيينها إثر التدخل الملكي... وتلك هي الحالات التي تحدثنا عنها أعلاه. لكن، يقول أكومي، إنه بفعل تعثر مشروع القانون، الذي لم ير النور إلى اليوم، تصبح المرأة، حتى في هذه الحالات، بحُكم القانون، ملزمة بالحِفاظ على جنين أتى في وضعية غير مقبولة أخلاقياً ولا مجتمعياً ولا قانونياً، وهذا هو النّفاق الحقيقيّ.

أمام هذا النّفاق، يضيف الدكتور، وفي حالة يأس نفسيّ، تلجأ النّساء إلى عيّادات و"محلاّت" و"دور" تُمارس الإجهاض السّري في الخَفاء.

أمام كلّ هذا الوضع، يغدو الإجهاض هُو ما يمكِن أن ينقذَ المرأة الضّحية من تكلُفة نفسية ومجتمعية قد تؤدي بها إلى الانتِحار. في كل الحالات، ستجد القانون يمنعها من التّخلص من عبئ حمل ناتج عن اغتصاب من غريب أو من قريب، يشرح البروفيسور.

التأويل الآخر للنص القانوني، أن محدودية القانون في الباب المتعلق بالإجهاض، وفق أكومي، تشجّع على تنامي ظاهرة الأمهات العازبات. بالتالي، ستكون للطفل كلفة مجتمعية حين يصبح لقيطاً ومتخلى عنه، وهو ما يجعل مستقبله، مرهونا بماضٍ لم يكن له يد فيه أو قرار.

المجتمع الازدواجيّ يرفض الإجهاض، ويرفض الطفل أيضا حين يولد، فما الحل إذن؟

لا يُخفي المتحدّث إحساسهُ بخيبة كبيرة حين تأتي امرأة حامل، ضحية اغتصاب أو تحمل طفلا بتشوّهات خلقية، ولا يستطيع مساعدتها في إيقافها الإرادي للحمل. يقول في ذلك إنّ "أخلاقيات مهنة الطب تمنع علينا القيام بعمليات خارج نطاق القانون؛ ومع ذلك نتعاطف معهنّ ونحسّ بمأساتهنّ"، يقول الأخصائي في أمراض النساء والتّوليد.

يخلصُ سعد أكومي في حديثه مع مرايانا، إلى أنها حـالات ينبغي أن يفي المشرع بوعده في إنصافها. وأمّا بخصوص تعميم الحقّ في الإيقاف الإرادي في الحمل، فالدكتور أكومي يلتزم التحفّظ، معتبراً أن هذا نقاش مجتمعي ينبغي أن يفتح بجدية، ويشارك فيه سوسيولوجيون وأخصائيون في الجنسانية وأخصائيون نفسيون وأطباء ورجال الدين، وهم من يقرروا ذلك من عدمه في النّهاية.

الإجهاض السريّ وفي ظروفه الحالية، وفق أطباء، قد يكون عاملاً متسبباً في عقم المرأة، لأنه قد ينتج عن عملية الإجهاض تعفن إثر غياب التّعقيم، وقد يظل فم الرّحم مفتُوحاً أو ملتصقاً.

حكاياتٌ لمرايانا

من أصعب ما واجه إعداد هذا الملف، هو إيجاد فتيات رمت بهنّ الحياةُ إلى متاهات الإجهاض بشكل سرّي، ليَقصُصنّ تجاربهنّ.

مرايانا تمكّنت من التّواصل مع هاجر، السّاكنة بالرّباط، والبالغة من العمر واحدا وعشرين سنة، والتي قامت بعملية إيقاف إرادي للحمل قبل ثلاث سنوات.

الغريبُ في حالة هاجر، وفق ما تحكيه لمرايانا، أنّها كانت تحسّ بدورتها الشهرية بشكل عاديّ، ولم تتوقف رغم أنها كانت حامل دون أن تدري. كانت تحسّ بآلام على مستوى البطن والرّحم بشكل مُستمر، ولم تعد تستَطيع المشي لفترة طويلة بسبب اشتداد الألم. بدأت أعراض الحُمى والقيء تبدو عليها. مع ذلك، لم تفكّر، لا هي ولا عائلتها، في أن للأمر علاقة بخطأ حدث أثناء الاتصال الجنسي، وأدى إلى حمل غير مرغوب فيه.

حينها، انصرف ظنّهم بالكامل إلى أنّ الألم راجع لالتهاب الزائدة الدودية، أي ما يعرف عند المغاربة بـ»المصرانة الزايدة». عندما «ذهبنا للطبيب، أخبرنا بأنني حبلى بطفل، وحدثت صدمة نفسية قوية بالنسبة لي ولوالدتي التي كانت معي. لم أكن مستعدّة لكي أكون أمّا وأنا في الثامنة عشر من عمري رغم أنّ «والد» الطفل وافق على الزواج بعد أن تحدّثت إليه والدتي، ولكني تشبثت بموقفي في الرفض وضرورة إيقاف الحمل»، تقول هاجر.

وقتها، «ذهبتُ إلى عيادة طبيب أخصائي في أمراض النساء والتوليد بالرباط، وشرح لي الطريقة التي ستكون بها العملية، ومنحني أياما للتفكير، رغم أني كنت في عجلة من أمري للتخلص من ذلك العبء النفسي الذي أصابني». في الحصة الأخرى، وبينما قلبي يكاد يتوقف رهبةً من مُداهمة الشّرطة للمصحّة، وخوفي من الموت نتيجة فشل العملية، بدأ الطبيبُ عملية الإجهاض، حيثُ قام باستئصال الجنين قطعة بقِطعة، والعملية كانت جد مؤلمة جسدياً.

وهي تحاول رسم صورة مخيفة عن الإجهاض السري، تقول هاجر إنه في آخر تفاصيل الحكاية، دفعت الثمن الإجمالي للعملية الذي يبلغ 6000 درهم، وقدّم لها الطّبيب وصفة طبّية بدُون توقيع. حينما اقتنت الأدوية، وجدت أنها عبارة عن مهدئات كان عليها تناولها في حال شعورها بأي ألم.

قصّة أخرى عنوانها فتاة في الخامسة والعشرين تسمى حسناء... تختلف هذه القصّة بلا شك عن تجربة هاجر، فعملية إجهاضها كانت أكثر خطورة وبدُون عناية طبّية، إذ لجأت إلى حبوب ARTOTEC الخاص بمرضى الروماتيزم. اقتنته من صفحات فيسبوكية، بحوالي 1500 درهم، بعد أن سحبته وزارة الصحة من الأسواق قبل سـنـوات ومنعت بيعه، لعلمها باستعماله في الإجهاض.

تقول حسناء إنها بحثت واطلعت على المضاعفات التي يسببها الـدواء، لكنّ رغبتها في التّخلص من «المصيبة»، كما تصفها، كانت أكثر صلابةً من أي اعتِبار آخر.

تقول: «كنتُ في الشّهر الثاني، وتناولت الدواء، ولم يكن في جسدي وذهني شيء سوى الخوف. قرأت أن الحبوب قد تتسبب في نزيف حاد، وقد تقودني إلى غرفة المستعجلات أو الإنعاش؛ ومع ذلك بادرتُ، وكأنني أنتحر».

حسناء تضيف متحسّرةً بأنّ هذا الثّمن «كان بوسعي أن أقُوم بدفعه في عملية قانُونية للإجهاض لو كَان القانُون يحميني في مثل هذِه الأزَمات. وجدتُ نفسي وحيدةً أواجه مصيراً مكلّفا ماديا ومعنويا».

بأقصى درجات المكاشفة، لا تنكر حسناء تفكيرها في الانتحار بعد أن ضاقَت بها الدّنيا بما رحبت. لم تكن تعرف أطباء يمارسون الإجهاض السّري بمراكش. لذلك دلّتها إحدى صديقاتها على الحبوب، وكانت تلك حكايتها.

ضمن كثيرِ حكاياتٍ تستحقّ أن تروى، تجتمعُ حقيقة وحيدة، قد تبدو واقعية ومنطقية، وهي أن السّماح بالإجهاض وتقنينه، لا يدلّ صراحةً على أن أرقام الإجهاض سترتَفع، ذلك أنّ السّماح بالإجهاض سيُرافقه التّحسِيس بضرُورة الوقاية من الحمل غير المرغُوب فيه، وهنا يكمنُ دور التّربية الجِنسية.

إلهام القادري

مغربية على رأس عملاق الصناعة البلجيكي «سولفاي»

حين كانت بعد طفلة تعيش بالدار البيضاء، أخبرتها جدتها بأن المرأة لديها سبيلان في الحياة، بيت زوجها أو القبر. لكن هذان الاحتمالان لم يكونا مغربيين لها، فعملت بقول جدتها: «عليك أن تبحثي عن مخرج آخر».

هذا المخرج بالنسبة لها، وفق ما تورده صحيفة «لوموند» الفرنسية، كان التعليم، الذي يعني الحرية، حرية اختيار أين نعيش وكيف نعيش وبمن سنتزوج.

إنها إلهام القادري، امرأة مغربية في 49 من عمرها، تحمل اليوم الجنسية الفرنسية أيضا. كان يمكن باكرا أن يقرر المجتمع عنها ما ستكون، لكن... بفضل وعيها المبكر بما أرادت أن تكون عليه مستقبلا، وإصرارها على اختيار طريقها، صارت اليوم ما تريد، أو ربما بعضا مما تريد، فأحلام/أهداف امرأة من هذه الطينة قد تكون أكبر من هذا بكثير.

إلهام القادري عُينت الثلاثاء 9 أكتوبر 2018، مديرة عامة لمجموعة سولفاي البلجيكية، إحدى المجموعة الأوروبية الرائدة في المجال الصناعي، ورئيسة للجنتها التنفيذية.

هذه المجموعة التي أسست عام 1863، ويبلغ رقم معاملاتها أزيد من 12 مليار يورو، منذ أشهر وهي تبحث عن شخصية محنكة تقودها، خلفا لرئيسها الفرنسي جون بيير كلامايديو، الذي عين، شهر ماي من نفس السنة، رئيسا لمجلس إدارة المجموعة الطاقية الفرنسية «إنجي».

بعد بحث طويل، داخل أطر المجموعة وخارجها، لا سيما في عالم الكمياء، اهتدت لجنة الترشيح، التي يرأسها المفوض الأوروبي السابق، إيف-تيبو دي سلجوي، إلى ما وصفته «لوموند» بـ»الطائر النادر»، الذي اسمه إلهام القادري.

إلهام القادري كانت ترأس، منذ عام 2017، شركة

ديفرسي الأمريكية، المتخصصة في التكنولوجيات وخدمات التطهير، التحقت بمجموعة سولفاي بداية 2018، لتشتغل رفقة الرئيس كلامايديو لفترة انتقالية امتدت لشهرين، ثم تصبح رئيسة للمجموعة، رسميا، بداية مارس 2019.

في أول تعليق لها على هذا التعيين، قالت القادري في تغريدة على حسابها بتويتر: «لي الشرف بأن أعين رئيسة لمجموعة سولفاي، كما تشرفني الثقة التي وضعها مجلس الإدارة في شخصي».

بالمقابل، أكد رئيس مجلس إدارة المجموعة، نيكول بويل، أن «معرفة القادري بالأسواق الاستراتيجية، وروحها الموجهة نحو العملاء، وقدرتها على بناء رؤية تعبوية، تجعل منها القائد الذي تحتاجه المجموعة لتسريع تحولها الثقافي وتحرير إمكانات نموها».

مسار إلهام القادري في سطور...

ولدت عام 1969 بالدار البيضاء، ونشأت بهذه المدينة إلى أن هاجرت إلى فرنسا لإتمام دراساتها العلمية العليا في الأقسام التحضيرية، ثم جامعة ليون الأولى، وبعد ذلك درست بجامعة لافال في إقليم الكيبك بكندا.

بعد نيلها الشهادة الماستر في الفيزياء والكيمياء عام 1991، ولجت المدرسة الأوروبية للكيمياء في ستراسبورغ، ثم بدأت بعد سنتين تحضير دكتوراه في الكيمياء-الفزيائية الجزيئية، شهادة نالتها عام 1997.

ذات السنة، ستبدأ القادري مسارها المهني في مجموعة شيل البترولية في بلجيكا، ثم بعد ذلك ستلتحق بشركة ليونديل بازيل في فرنسا، المتخصصة في البتروكيمياء، ولاحقا في 2002، بشركة UCB البلجيكية، المتخصصة في الصيدلانية البيولوجية.

بين عامي 2005 و2017، ستشتغل القادري في عدد من الشركات الأمريكية، بمناصب متعددة ومختلفة، آخرها رئاسة مجموعة ديفرسي للتكنولوجيات وخدمات التطهير، ثم في الـ9 من أكتوبر 2018، عينت رئيسة لمجموعة سولفاي البلجيكية.

المجلس الوطني لحقوق الإنسان
ⵜⴰⵎⴰⵡⴰⵙⵜ ⵏ ⵜⵣⵔⴼⵜ ⵏ ⵜⵣⵔⴼⵜ
Conseil national des droits de l'Homme

ما نسكتوش
على العنف ضد النساء والفتيات
ⴰⵓ ⵙⵓ ⵏⵜⵜⴰⵡⵓ ⵅⵜ ⵜⵕⵇⵜⵜ ⵜⵃⵓⵜⵜⵉⵏ ⵓ ⵜⵓⵛⵛⴰⵜⵉⵏ

#مانسكتوش_على_العنف

نقاش ▪ حرية ▪ معرفة ▪

دون أدوات شرط... دون حروف استثناء